

مجلة العلوم العربية والإنسانية

Journal of Arabic Sciences & Humanities

دورية علمية محكمة ربع سنوية

مجلد (17) عدد (2) ربيع الثاني 1445هـ
October 2023
E-ISSN: 1658-9602



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هيئة التحرير

رئيس التحرير

د. محمد بن فهد البطيلي

الأستاذ المشارك بقسم اللغة الإنجليزية والترجمة

مدير التحرير

د. بدر بن يوسف الحربي

الأستاذ المشارك بقسم اللغة الإنجليزية والترجمة

سكرتير التحرير

أ.هيلة الزبيري

الأعضاء

أ.د. ناصر بن فرحان الحرّص

الأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها

أ.د. احمد بن محمد البسام

الأستاذ بقسم الجغرافيا

أ.د. فاطمة بنت محمد الفريحي

الأستاذ بقسم التاريخ

أ.د. إبراهيم بن عبدالعزيز زيد

الأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها

أ.د. بدرالدين كمال عبده

الأستاذ بقسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية

مجلد (17) عدد (2) ربيع الثاني 1445هـ

October 2023

E-ISSN: 1658-9602

الهيئة الاستشارية

أ.د. عزالدين بن محمد المجدوب

أستاذ اللسانيات بجامعة سوسة، تونس

أ.د. إبراهيم بن سليمان الشمسان

أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك سعود، السعودية

أ.د. عبدالله بن عبدالرحمن عسيلان

أستاذ الأدب العربي بجامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية

أ.د. سعد بن عبدالرحمن البازعي

أستاذ الأدب الإنجليزي المقارن بجامعة الملك سعود، السعودية

أ.د. احمد بن عبدالعزيز البسام

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القصيم، السعودية

أ.د. خضر عبدالعظيم بوقورة

أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة، مصر

أ.د. سوما كليران

أستاذ الجغرافيا بجامعة ليستر، بريطانيا

التميز في نشر البحوث العلمية في مجال العلوم العربية والإنسانية باللغتين العربية والإنجليزية، وتحقيق معايير تصنيف المجلات العلمية المحكمة في قواعد البيانات العالمية.

الرسالة

توفير بيئة بحثية محفزة لنشر البحوث العلمية الرصينة، مع الحرص على مواكبة معايير النشر المقبولة دوليًا في مجالات العلوم العربية والإنسانية التي ترقى بالمجتمع وتسهم في تنميته.

أهداف المجلة

1. العمل على تصنيف المجلة ضمن قواعد البيانات الدولية.
2. نشر البحوث العلمية ذات الجودة العالية، والأصالة والجدة.
3. توفير منصة أكاديمية للباحثين، من جميع دول العالم، تعنى بنشر نتاجهم العلمي الذي يسهم في تطوير المجتمع وتقديمه في مجال العلوم العربية والإنسانية.
4. إثراء المكتبة العربية بنشر البحوث النظرية والتطبيقية في مجال العلوم العربية والإنسانية.
5. تبادل النتائج المعرفية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي.

مجلة العلوم العربية والإنسانية هي إحدى المجلات العلمية لجامعة القصيم، وتصدر عن مركز النشر العلمي والترجمة بوكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي، وقد صدر عددها الأول في شهر محرم لعام 1429 هـ، يناير 2008 م، وهي مجلة دورية علمية محكمة تُعنى بنشر البحوث في اللغة العربية وآدابها، واللغة الإنجليزية والترجمة والتاريخ، والجغرافيا، والاجتماع والخدمة الاجتماعية. وتطمح المجلة إلى أن تكون عنصرًا فاعلاً في حركة البحث العلمي وطنيًا وعالميًا، ورائدةً في نشر المعرفة، ومواكبةً لكل جديد في مجالات اختصاصها، عبر العناية بنشر البحوث المتميزة في موضوعاتها، والأصيلة في أفكارها. وتدعو المجلة الباحثين من جميع دول العالم لنشر بحوثهم في أعدادها الأربعة، التي تصدر بصفة فصلية، باللغتين العربية والإنجليزية، وفق المعايير العلمية وقواعد النشر وأخلاقياته التي تلتزم بها.

© جامعة القصيم (1445هـ) 2023.

جميع حقوق الطبع محفوظة لمجلة العلوم العربية والإنسانية بجامعة القصيم، ولا يسمح بإعادة طبع أي جزء من المجلة، أو نسخه بأي شكل وبأي وسيلة سواء كانت إلكترونية، أو آلية بما في ذلك التصوير والتسجيل، أو إدخاله في أي نظام حفظ معلومات دون الحصول على موافقة كتابية من رئيس التحرير.

7. لضمان السرية التامة في عملية التحكيم، على الباحث تجنب ما يكشف عن شخصيته أو ما يشير إلى أبحاثه المنشورة بما يودي نسبتها له، وذلك في جميع أجزاء البحث، كأن يقول مثلاً: "ناقشت/ تناولت ذلك في "لقب الباحث"، (2019). ويستعيز عن ذلك بالقول: (وقد ناقش ذلك "لقب الباحث" (2019))، أو (وقد نوقش ذلك في "لقب الباحث" (2019)) إلى غير ذلك من الطرق التي لا تكشف عن شخصيته.

8. يلتزم الباحث بإنزال البحث على قالب المجلة، ويتأكد من اتباع التعليمات الواردة فيه وتطبيقها كلياً، ثم مراجعة البحث لغوياً قبل إرساله للمجلة.

9. تستخدم المجلة خط العربية التقليدية Traditional Arabic للأبحاث المكتوبة باللغة العربية وفق التفصيل الآتي:

- عنوان البحث: حجم الخط (18)، غامق. (B)
- اسم الباحث، والانتماء المؤسسي (اسم القسم، الكلية، الجامعة، المدينة، الدولة): حجم الخط (16)، غامق (B)..
- ملخص البحث: حجم (12)، غامق للعنوان، وعادي لمتن النص.
- عناوين المباحث الأساسية: حجم الخط (16)، غامق (B).
- عناوين المباحث الفرعية وما تفرع منها: حجم الخط (14)، غامق (B).
- متن البحث: حجم الخط (16) عادي.
- الجداول والأشكال والملاحق: حجم الخط (14) عادي.
- التباعد بين الأسطر: مفرد.
- الهوامش: حجم الخط (13) عادي (ويشار إليها داخل المتن بأرقام متسلسلة مرتفعة عن السطر بين قوسين، وتكون هوامش سفلية نهاية البحث بعد الخاتمة).

1. يقدم الباحث الرئيس أو الباحث المراسل (في حال تعدد الباحثين) تعهداً، وفق النموذج المعتمد من المجلة، موقعاً منه ومن جميع الباحثين المشاركين، يفيد بأن البحث لم يسبق نشره، وأنه ليس فصلاً أو جزءاً من كتاب منشور، وأنه لم يقدم ولن يقدم للنشر لأي جهة أخرى حتى تنتهي إجراءات تحكيمه في المجلة.

2. تستقبل المجلة البحوث باللغتين: العربية والإنجليزية، ولا تتجاوز عدد كلمات البحث (12 ألف كلمة) متضمنة قائمة المصادر والمراجع والملاحق.

3. يشتمل البحث على ملخصين باللغتين العربية والإنجليزية (150 كلمة) ، وعلى كلمات مفتاحية (3-5 كلمات) مع العناية بسلامة الملخصين لغوياً وعدم استخدام ترجمة جوجل الحرفية.

4. لا تزيد نسبة الاقتباس الموثق (بالنص أو بالمعنى) في البحث عن 25%، سواء أكانت من أبحاث الباحث أم من أبحاث آخرين، وسيُرد أي بحث يتجاوز هذه النسبة، وفق معطيات نتائج برنامج قياس معدلات الاقتباس (iThenticate). يستثنى من حساب نسبة الاقتباس، أعلامه، الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والشواهد الشعرية.

5. يلتزم البحث بأسلوب التوثيق الذي تعتمده مجلة العلوم العربية والإنسانية، وهو أسلوب جمعية علم النفس الأمريكية APA الإصدار السابع، ويشمل ذلك التوثيق في متن البحث وفي قائمة مصادره ومراجعته وفق ما هو موضح على موقع المجلة، ولن تقبل الأبحاث التي لا تلتزم بهذا الأسلوب.

6. يلتزم الباحث/الباحثون برومنة المراجع العربية ودمجها مع المراجع الأجنبية (إن وجدت) وترتيبها ترتيباً ألفبائياً واستخدام نوع الخط: Times New Roman حجم 12 عادي.

الممارسة، وأي أمور أخرى تطلبها هيئة تحرير المجلة من مقدم طلب النشر.

16. إذا كان البحث مستلماً من رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه، فلا بد من الإشارة إلى ذلك في هامش صفحة العنوان.

17. لا يجوز نشر البحث أو أجزاء منه في وعاء نشر آخر، بعد قبول نشره في المجلة، إلا بعد الحصول على إذن مكتوب من رئيس هيئة تحرير المجلة أو الناشر، ولا بد من الإشارة إلى الحصول على الإذن وبيانات الأصل المنشور في وعاء النشر الجديد.

18. يلتزم الباحث/الباحثون بقوانين حماية الملكية الفكرية، وأخلاقيات النشر العلمي الأكاديمي.

19. ما ينشر في مجلة العلوم العربية والإنسانية من أبحاث، يعبر عن وجهة نظر الباحثين، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو الناشر.

للمراسلة

«مجلة العلوم العربية والإنسانية»

ص.ب: 6611 الرمز البريدي: 51452

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية – جامعة القصيم – المليداء

المملكة العربية السعودية

هاتف: 966163016387

البريد الإلكتروني ahsqu@qu.edu.sa

الموقع الإلكتروني https://jahs.qu.edu.sa



10. تستخدم المجلة خط Times New Roman للأبحاث المكتوبة باللغة الإنجليزية وفق التفصيل الآتي:

- عنوان البحث: حجم الخط (14)، غامق (B).
- اسم الباحث والانتماء المؤسسي والعناوين الرئيسية والفرعية: حجم الخط (12)، غامق (B).
- متن البحث: حجم الخط (12) عادي.
- الملخص والهوامش والجداول والأشكال: حجم الخط (11) عادي.
- المسافة بين الأسطر: مفردة.

11. توضع، أمام اسم الباحث في وسط أعلى الصفحة الأولى تحت عنوان البحث، أيقونة أوركيد ORCID  ويربط عبرها تشعوبياً حساب الباحث ورقمه في موقع أوركيد (وهنا لا بد للباحث/ للباحثين من التسجيل في موقع أوركيد ORCID عبر الرابط <https://orcid.org>).

21. إذا اشتمل البحث على اختصارات معينة، فلا بد من شرحها عندما ترد للمرة الأولى.

13. يلتزم الباحث/ الباحثون بكتابة نبذة تعريفية عنه/ عنهم، باللغتين العربية والإنجليزية بعد قائمة المراجع، متضمنة المعلومات الأساسية، على النحو الموضح في قالب البحث.

14. يلتزم الباحث/الباحثون باستخدام الأرقام العربية (0123456789) في جميع البحث، والتاريخ الميلادي في سنة نشر الأبحاث وأي تواريخ أخرى ترد في البحث.

15. في حال تعدد الباحثين، لابد من تحديد الباحث المراسل Corresponding Author في هامش الصفحة الأولى، وذكر بريده الإلكتروني. وسيكون هو الجهة التواصلية الأساسية والمسؤولة لدى هيئة تحرير المجلة طيلة فترة إجراءات طلب نشر البحث، ولا يعفي ذلك الباحثين المشاركين في البحث من المسؤوليات القانونية والأخلاقية فيما يخص أخلاقيات النشر وسوء

أبحاث العدد

العَلَم السعودي في الشعر المواكب ليوم العَلَم: دراسة سيميائية
أ.د. عبدالرحمن بن صالح الخميس

1

من الحقيقة الأنطولوجية إلى الحقيقة الإستمولوجية: قراءة في كفاية العامل النحوي التفسيرية
د. معاذ بن سليمان الدخيل

19

التدبر القرآني وصناعة السؤال البلاغي
د. حمود بن إبراهيم العصيلي

38

مدارات النصّ وعوالمه الممكنة بين رسالة ابن فضلان ورواية أكلة الموتى
د. سامية بنت عبدالله العُمري

71

: 1837 -1739

أ.د. عبدالله بن إبراهيم التركي

109

:

د. إيمان بنت سعد النفيعي

131

161

Decomposition in Arabic spoken word recognition
Dr. Faisal Aljasser

173

**Advancing academic writing skills: An interventional study with
EFL tertiary-level students**
Dr. Yasamiyan Alolaywi



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

العلم السعودي في الشعر المواكب ليوم العلم: دراسة سيميائية

عبدالرحمن بن صالح الخميس

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم والآداب، جامعة القصيم، الرس، المملكة العربية السعودية

Abstract

Saudi Flag in the Flag Day's Poetry. A Semiotic Study

In response to the Saudi government's declaration of designating the date March 11th as an official Flag Day, this study employs the semiotic approach in the communication and semantics to describes and analyses the different poets' readings and their emphasis on some of significant connotations towards the symbols of Saudi Flags as indicated in the blog 'Diwan Al-Alam'. The study concludes that the poets' direct reading of the Flag's symbols relies mainly on the referential function to refer to the connotations with transparency and clarity, while their technical readings depend on the poetic function that inserts the pleasure for causing a greater impact. Moreover, their technical readings take the manifestations of semantic expansion, portrayal and novelty as a support for the poetic functions. The most symbols occurred in the poets' readings are Greenery, whiteness, sword, and the word of monotheism.

Keywords: Flag, Poetry, Symbol, Semiotic

الملخص:

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي مستعيناً بالمنجز السيميائي في التواصل والدلالة، ومعنياً بقراءات الشعراء لرموز العلم السعودي في المدونة المنتخبة (ديوان العلم)؛ بالنظر إلى أنها استجابة لإعلان الدولة -تحديد يوم الحادي عشر من شهر مارس يوماً للاحتفاء بالعلم- ورسائل مقصودة ذات وظائف مختلفة. وهدف البحث إلى الوقوف على طرق قراءة الشعراء لرموز العلم وغايتهم من التركيز على بعضها، وجاء في تمهيد عرّف بالعلم السعودي والمدونة، ومبشرين حاورا طرق قراءة الشعراء لرموز العلم. وقد انتهى البحث بخاتمة جمعت نتائجها، ومن أبرزها: أن قراءة الشعراء المباشرة لرموز العلم قد اتكأت على الوظيفة المرجعية من أجل إيصال الدلالات بشفافية ووضوح، بينما اتكأت قراءتهم الفنية على الوظيفة الشعرية التي أضافت هدف المتعة لإحداث تأثير أكبر؛ متخذةً مظاهر التوسيع الدلالي والتصوير والبديع معينا لها على ذلك. وجاءت الخضرة والبياض والسيوف وكلمة التوحيد أكثر الرموز حضوراً في قراءة الشعراء لغايات مقصودة.

الكلمات المفتاحية: العلم، الشعر، الراية، الرمز، السيمياء

الإحالة APA Citation

الخميس، عبدالرحمن. (2023). العلم السعودي في الشعر المواكب ليوم العلم: دراسة سيميائية. مجلة العلوم العربية والإنسانية، 17، (2)، 1-18.

استلم في: 16-02-1445 / قبل في: 18-03-1445 / نُشر في: 14-04-1445

Received on: 01-09-2023/Accepted on: 03-10-2023/Published on: 29-10-2023

1. المقدمة

تتكوّن أعلام الدّول من رموز لغوية وغير لغوية تمتخّ من تاريخها وثقافتها الخاصة، ويعدّ العلم السعودي، برموزه المتنوعة، ذا دلالات عميقة ضاربة في التاريخ العربي، والإسلامي، والسعودي بدءاً من تأسيس الدولة على يد الإمام محمد بن سعود رحمه الله تعالى. وقد لقي العلم السعودي عناية كبيرة؛ سواء من الزاوية السياسية التي تجلّت في مراحل التّكوين والتطوير وما يتّصل بأنظمة التّحيّة والتقدير، أو من الزاوية العلمية والثقافية التي بدت في كتابات المؤرخين والنّقاد وغيرهم، أو من الزاوية الفنية والإبداعية التي أنارها الأدباء والتّشكيليون والمصورون.

وفي مجال البحث العلمي تأتي دراسة غالب (2019) واحدة من الدراسات التي غُنيت بالعلم السعودي؛ معتمدةً فيه المنهج السيميائي، ومتتبّعة دلالات رموز العلم المتنوّعة. ويأتي ديوان العلم (السّلمي، 2023/1444) أحد الجهود التي عكست ذلك التّكامل بين التّوجيهات العليا والميدان الأدبي والثقافي؛ حيث جاء جمعه بعد إعلان خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، حفظه الله، تحديد يوم الحادي عشر من شهر مارس يوماً للعلم السعودي، وضمّ مجموعة قصائد في المناسبة الأولى لهذا اليوم.

وانطلاقاً مما سبق، تبدو أهمية هذا البحث؛ إذ إنّ معنيّ بقراءة الشعراء لرموز العلم السعودي، بدلالاتها المختلفة التي انتهت إليها الدراسة السابقة، تلك القراءة التي واكبت تحديد يومٍ للاحتفاء بالعلم، وجمّعت بعده في ديوانٍ حمل اسمه. ويضاف إلى ذلك أنه لا توجد، في حدود علم الباحث، دراسة من هذا النوع؛ الأمر الذي يزيد من أهمية البحث وأسئلته التي من أبرزها:

أ. كيف قرأ الشعراء دلالات الرموز التي تضمّنها العلم السعودي؟

ب. هل سلّط الشعراء الضوء على دلالات رموز معينة دون غيرها؟ وما الهدف من ذلك؟

ج. هل هناك دلالات أضافها الشعراء في قراءتهم لرموز العلم السعودي؟

وقد رأى الباحث أن المنهج الوصفي التحليلي هو المنهج القادر على الإجابة على أسئلة البحث مع الاستعانة بالمنجز السيميائي في التّواصل والدّلالة. ورأى، كذلك، أن يكون في تمهيد يعرف بالعلم السعودي والمدوّنة والمنهج، ومبحثين يعني أولهما بقراءة الشعراء المباشرة لدلالة الرموز وثانيهما بالقراءة الفنية، وخاتمة تضمّ نتائج البحث، تتلوها قائمة بمراجعته.

2. التمهييد

1.2. العلم السعودي، ومدونة البحث

كانت آخر مرحلة، في تطوّر العلم السعودي، في عهد الملك فيصل رحمه الله تعالى؛ وتحديدًا عام 1393هـ-1973م. وفيها بدا العلم، برموزه المتنوعة، عاكسًا مبادئ هذه الدولة الطاهرة وقيمها المستمدة من الإسلام (السلمي، 2023). ويتضمّن العلم السعودي رموزًا عدّة، وذات دلالات ثريّة؛ هي (ينظر غالب، 2019):

- أ- اللونان الأخضر والأبيض: أمّا اللون الأخضر فيُحيل إلى معاني الخصوبة والارتواء والنّماء، والاستقرار والطمأنينة، والتوازن، والتّبل. وأمّا اللون الأبيض فيحيل إلى معاني الحقيقة الناصعة وجوهر الشيء وأصله، والطّهارة والنقاء والعفة، والتفاؤل والفرح، والتسامح والسلام، والكرم والرفعة.
- ب- الكلمة ونوع الخط: أمّا الكلمة/شهادة التوحيد، فتحيل إلى عقيدة الدولة منذ نشأتها؛ وما تحمله العقيدة من رؤية المسلم للوجود والكون والحياة، ونظرته لجميع الناس نظرة مساواة وسلام. وأمّا الخط/الثلاث، فيحيل إلى الجمال والأصالة.
- ج- الرّسم: وهو سيفٌ معترض، ويحمل معاني الشهادة في سبيل الله، والقوة والصرامة في الحق، والعدل والحكمة في ذلك

ويستمدّ البحث مادّته من كتاب (ديوان العلم) الذي ضمّ مشاركات مجموعة من الشعراء احتفاءً بيوم العلم وتجسيدًا للقيم النبيلة التي بُني عليها الوطن ورُمز إليها علمه، وقد جمع وأعد هذا الديوان أ.د. عبدالرحمن السلمي، وصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة عام 1444هـ/2023م.

2.2. منهج البحث

خطّت السيميائية، في مطلع القرن العشرين، خطوات منهجية شاملة؛ بفضل أفكار مؤسس علم اللسانيات الحديث دي سوسير الذي يعدّ من أوائل من بشّر بها حين "دعا إلى علم عام يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، معرّفًا بطبيعة هذه العلامات والقوانين التي تحكمها" (حنيّفة، 2015، ص.76). وقد عدّ دي سوسير (1916/1985) اللسانيات جزءًا من هذا العلم، وتبنى رأيه كثير من النقاد أمثال غيرو (1977/1984)، وبريتو (نقلًا عن السريغيني، 1986)، وكريستيفا (نقلًا عن خالفي، 2011)؛ واتّضح ذلك حين قسّم العلامة إلى قسمين: لسانية وغير لسانية، واعتبر اللسانيات معنيّة بالنوع الأول، واللسان نسقًا من العلامات التي تعبر عن الأفكار. ثم إنه انطلق، أيضًا، من جانب نفسي؛ حيث يقول:

الإشارة اللغوية تربط بين الفكرة والصورة الصوتية، وليس بين الشيء والتسمية. ولا يقصد بالصورة الصوتية، الناحية الفيزيائية للصوت بل الصورة السايكولوجية للصوت، أي الانطباع أو الأثر الذي تتركه في الحواس. إذن

فالصورة الصوتية هي حسية - لها علاقة بالحواس -، وإذا حدث أن وصفتها بأنها مادية فإنما أعني بذلك طبيعتها الحسية، وبالمقابلة بالعنصر الآخر للارتباط، وهو الفكرة التي هي أكثر تجريدًا من الصورة الصوتية، على العموم. (دي سوسير، 1985، ص. 84-85)

فهناك، إذن، الصورة الصوتية والصوت المادي؛ أما الأول فيتعلق بالمستوى النفسي، وأما الثاني فيتعلق بالمستوى المادي. لكنّ دي سوسير (1985) طور من نظريته هذه حين ذهب إلى أنّ العلامة تنشأ بنوع من التفاعل داخل المستوى النفسي، أي الصورة السمعية والمفهوم، وعليه استقر على مصطلحي: الدال/الصورة السمعية، والمدلول/المفهوم؛ وهو تطوير أفضى، كما يرى إسكندر (2000)، إلى فتح آفاق واسعة للعلامات حيث لم تعد مقتصرة على العلامة اللغوية، وحيث أُمست العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتبارية (عشوائية).

وقد صاحبت منجز دي سوسير مقولات بيرس الذي يعد المؤسس الحقيقي لعلم السيميائيات أو علم العلامة التي لا وعي للإنسان دونها، وفي هذا يقول: "إنه لم يكن بإمكانني على الإطلاق أن أدرس أي شيء (...) إلا بوصفه دراسة علامائية" (نقلاً عن عياشي، 2004، ص. 15). والعلامة عند بيرس: شيء ما يحلّ محلّ شيء ما من زاوية ما، وهي بذلك ذات عناصر ثلاثة - الممثل والموضوع والمؤول - وكلّ علامة، في تفرعاته، ناتجة من العلاقة الجامعة بين هذه العناصر (نقلاً عن دال، 1977/2004). وقد أفاد بعض النقاد من هذا التصور أمثال فوكو (1966/1989)؛ ونشأت من علائق العلامات - ببعضها وبموضوعاتها وبمؤولياتها - علوم التراكيب والدلالة والتداول، وغدت العلامات بأنواعها المختلفة تُدرس في سيميائيات التواصل من خلال مظهرها التواصلية، وفي سيميائيات الدلالة من خلال مظهرها الدلالي، وفي سيميائيات التداولية من خلال مظهرها التأويلية، وفي سيميائيات الثقافة بالنظر إليها نصّاً ثقافياً يتفاعل مع نصوص أخرى داخل المجتمع (ينظر المرباط، 2005). ومن بين تفرعات بيرس تقسيمه العلامة إلى ثلاثة: الأيقونة التي تدلّ على موضوعها عن طريق المشابهة والمحاكاة كالصور، والأمانة أو الإشارة التي تدلّ على موضوعها عن طريق التلازم، أو المجاورة والترتيب المنطقي والتتابع كعلامة الدخان على النار، والرمز التي تدلّ على موضوعها بالتواضع والاتفاق بين جماعة من الناس، بعد تراكم زمني وثقافي كإشارات المرور (دال، 1977/2004).

وقد خطا رولان بارت خطوات واسعة في سيميائيته التي عُرفت بسيميائيات الدلالة، وذهب فيها إلى أنّ لكلّ نسق أو واقعة دلالة، وأنّ مهمة البحث السيمولوجي إيجادها عن طريق تطبيق المقاييس اللسانية حتى على الوقائع غير اللفظية بالنظر إلى أنّ لها لغتها الخاصة. وبهذا التصور قلب بارت نظرة دي سوسير في موضوع العلاقة بين علمي اللسانيات والسيميائيات؛ حيث جعل الثاني فرعاً من الأول، وأنهى رابط المقصدية بين العلامات؛ نظراً لوجود نوع من التواصل غير الإرادي، ولكنه أكد على وجود الدلالة حتى في الأنساق والوقائع غير اللغوية باعتبارها أنساقاً لها لغتها الخاصة (ينظر حمداوي، 2010).

وأفاد جاكسون (1966/1988) من المنجز السيميائي، قبله، وبنى عليه نظرية الشعرية حين رآها لا تختصّ بعلم اللسانيات، بل هي ميدان السيمياء كذلك. ويعدّ منجزه، المتمثل في المساهمة في تأسيس مدرسة براغ الوظيفية، من أبرز منجزات الاتجاه السيميائي الوظيفي؛ الذي، وفقاً لسامسون (1980/1997)، حصر التعامل مع اللغة من منطلق وظيفتها كما يتعامل الميكانيكي مع المحرك انطلاقاً من وظيفة كلّ جزء فيه؛ ولذا ركّز على ما يخدم نظريته في التواصل، وهي وظائف اللغة (الغزالي، 2003)، فجاءت سيميائته تواصلية تقوم على عناصر ستة؛ بهدف الإبداع والتأثير على الآخر -بوسائل لغوية وغير لغوية- سواء وعى الآخر ذلك أو لم يعه (حمداوي، 2010).

ومما سبق يمكن القول: إن المنهج السيميائي هو المنهج الأقدر على الإجابة على تساؤلات هذا البحث، وذلك لأمرين؛ أولهما: أنّ مفهوم العلامة -وفق التصورات السابقة- يتجاوز اللغة ليشمل كلّ علامة لغوية أو غير لغوية، وهذا سيفيد في دخول العلامات غير اللغوية، كالألوان والرسوم...، في حدود البحث، ومن ثمّ دراستها تحت نوعي التواصل -اللساني وغير اللساني- بالنظر إليه جوهر العلاقات الإنسانية بما تحمّل من وظائف معرفية وتأثيرية (ينظر بنكراد، 2004؛ حمداوي، 2015). وثانيهما: أنّ تلك العلامات، في العلم السعودي، رسائل مقصودة -فهو علم الدولة وكلّ ما فيه موضوع لهدف- وقد قرأها الشعراء قصداً في قصائدهم التي نظموها احتفاءً بالمناسبة الأولى ليوم العلم استجابةً لأمر خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان حفظه الله بتخصيص يوم لهذه المناسبة؛ يدلّ على ذلك تصريح بعضهم إمّا في عناوين قصائدهم أو في أثنائها، وهو أمرٌ ملاحظ بوضوح في المدونة (السلمي، 2023، ص 42، 44، 46، 53، 56، 62، 64، 75، 92، 94، 103، 104). وعليه، فما سبق يؤكّد القصدية ويدعمها على اعتبار أنها موجودة في كلّ فعل تواصلية على حدّ تعبير مارتيني (نقلاً عن حمادو، 2015)، ويضع السياق/المرجع في ظروف معينة تتصل بالمرسل والمرسل إليه والعلاقة بينهما وطبقتهما الاجتماعية (المصطفى، 2007)، وغير ذلك مما لفت إليه جاكسون وراه العامل الأهمّ في الرسالة (ينظر بومزبر، 2007).

إلاّ أنه مما لوحظ في المدونة أنّ الشعراء في قراءتهم للرسالة، التي نقلتها العلامة/الدليل في العلم، قد ذهبوا مذهبين: مذهباً سلك الأسلوب المباشر لهدف ما، الأمر الذي يجيز محاورتها ضمن سيمياء التواصل باعتباره نظام ترميز مشترك/السّنن، وخطاباً يتجاوز الدلالة إلى القصدية الوظيفية (حمداوي، 2010)، ومذهباً ثانياً تفاعل مع الرسالة وتميّز في قراءة علاماتها بطرق متنوعة، مع وحدة القناة التي بواسطتها انتقلت الرسالة، ومن ثمّ فإنّ هذا النوع من القراءة يمكن محاورته ضمن سيمياء التواصل بوظيفته التعبيرية/الانفعالية التي تركز على المرسل (جاكسون، 1988) أو وظيفته الشعرية كما سيأتي. ويمكن محاورته، أيضاً، ضمن سيمياء الدلالة بنظرها إلى أنّ للنصّ بنيتين ظاهرة وعميقة يجب تحليلهما واستكشاف ما بينهما من علائق، وأنّ الدالّ يتميز بجرته الدلالية، وبالتالي ففعاليته من فعالية قراءته التي تصنع النصّ (الغدامي، 1998). وبتعبير آخر: إذا كان العلم، بعلاماته المتنوعة، رسائل مقصودة من الدولة إلى الجميع، فإنّ قراءة

الشعراء ما فيه تعدّ رسائل، كذلك، صادرة منهم إلى غيرهم؛ غير أنها اتخذت في المدونة منحنيين: منحى اتّسمت فيه القراءة بالقصدية ذات الوظيفة المرجعية التي بدت في حرص الشعراء على نقل دلالات العلامات بكلّ دقة ووضوح، وآخر بدت فيه أكثر تحرّراً في نظرتها إلى العلم وما يحويه من علامات/دوال حرة قد تحمل معاني جديدة في سياقات جديدة. ومن ثم، فرسائل العلم المختلفة داخلية في التواصل اللفظي وغير اللفظي (العبد، 2007) بالنظر إلى نوع العلامات التي ضمّتها، وليس ذلك داخلياً في نطاق البحث؛ أما قراءة الشعراء لهذه الرسائل -موضوع البحث- فهي، في منحيتها السابقين، مقتصرة على التواصل اللفظي؛ لأن الشعر لغة ذات رموز لفظية وحسب.

3. القراءة المباشرة لدلالات رموز العلم السعودي

لقد استطاعت هذه المناسبة الوطنية -يوم العلم- بجلالها ومكانتها أن تجعل قراءات بعض الشعراء لرموز العلم قراءة يمكن وصفها بالمباشرة، وهذا النوع من القراءة مرغوب عنه في الشعر، ولكنه -أحياناً- مرغوب فيه إذا هدف إلى إيصال الرسائل، التي حملتها رموز العلم المتنوعة، بكلّ شفافية ووضوح؛ وهنا تبرز الوظيفة المرجعية للتواصل في الحرص على نقل الرموز وتبليغها في الزمان والمكان بالوسيلة المناسبة دون تدخل بإضافة أو تعديل (ينظر خطابي، 1991؛ البشير والذبحاوي، 2018). لقد أثر بعض الشعراء أن يقرؤوا ما ضمّه العلم، بلونه ورسمه وكلمته، قراءة حرفية بالدلالات التي أريدت؛ حرصاً منهم على نقلها نقلاً دقيقاً يمنح المستقبل فرصة التأكد بالعودة إلى المرجع/العلم (غيرو، 1977/1984)، وإيماناً أنها رسائل وطنية لم توجه إلى المواطنين وحسب، ولا للعرب الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة دون غيرهم، بل لجميع المجتمعات العالمية التي هي أحوج إلى الأسلوب المباشر الذي يسلك طريق الوضوح والشفافية. ويبدو في هذا النوع، من قراءة الشعراء، حرصهم على نشر تلك الرموز وتعميمها والتأكيد على دلالاتها لتكون معلومة للجماهير، طامحين فيه إلى نوع من التواصل الاجتماعي المؤثر (العبد، 2007)، وساعين -في الوقت ذاته- إلى أن يكون تواصلها منطلقاً من أرضية معرفية لا تُجهل فيه رموز العلم ودلالاتها. ومن أوضح شواهد القراءة المباشرة لرموز العلم ما جاء في قصيدة سعد الرفاعي مخاطباً بلاده (السلمي، 2023، ص. 28):

شعائرك يحوي رموزاً تضيء	ففيه اخضرار دليل النماء
وفيه البياض نداء السلام	لشعب أبي يحب الإخاء
وسيف يثبّر لحزم الشريعة	ردع شديد لأي اعتداء...

فبهذه الطريقة قرأ الشاعر بعض رموز العلم قراءة مباشرة بدا فيها التواصل ذا وظيفة مرجعية، وهدفت إلى النصّ على الدلالات وإبرازها بالكلمات التي ينبغي على الجميع أن يعيها؛ فالعلم يضمّ رموزاً تضيء (الخضرة، البياض، السيف) ولكلّ رمز دلالاته. وقريب من هذا التواصل، ذي الوظيفة المرجعية، قول يوسف العارف في قصيدة عنونها بيوم العلم (السلمي، 2023، ص. 53، 55):

رمزُ النِّماءِ وخُضْرَةُ البِيداءِ والسَّيْفُ عدْلٌ راجحُ الأُمْداءِ
 وشهادةُ التَّوْحِيدِ عهدٌ ثابتٌ من ماضي الأجدادِ والآباءِ...
 وشعارُها الإسلامُ رمزُ عقيدةٍ نحيا بها في قوَّةٍ ونماءٍ...
 هو رمزُنا إن كان ثَمَّ دلالةٌ فعقيدتي وعدالتي ورخائي

حيث تتبّع الشاعر بعض رموز العلم -الخضرة، والسيف، وكلمة التوحيد- وقرأها قراءة مباشرة للتأكيد على ما تحمله من دلالات النماء، والعدل، والعقيدة؛ ولم يكتفِ بذلك بل عاد لينصّ على رمزيتها في البيت الأخير. وهذا ما يلمس كذلك في قصيدة عبدالإله جدع (السُّلمي، 2023، ص. 46-47):

فالبيرقُ الحقائقُ

يحملُ رايةً

التوحيدُ...
 والسيفُ رمزُ

للبطولةِ والعدالةِ

والأمانُ...
 إذ سلّط الشاعر الضوء على رمزي كلمة التوحيد، والسيف؛ مصرّحاً بدلالات العقيدة، والبطولة والعدالة والأمان. ومن ثمّ جاءت قراءته قراءة مباشرة هدفت إلى استحضار تلك الدلالات القارة في الذاكرة والتأكيد عليها. وهذا ما فعله فلاح العتيبي حين قال (السُّلمي، 2023، ص. 32):

لنا رايةٌ أعلى الإله مَكانها وما مثلها في الفضلِ والمجدِ والقدرِ

نرى روحها التوحيدَ والسَّيْفَ عزّها نصول به إن جدّ شيءٌ من الأمرِ

فبقراءة مباشرة، ركّز الشاعر على رمزين؛ هما: كلمة التوحيد التي هي روح الدولة والتي عليها تأسست، والسيف الذي به بقيت قوية متينة.

ويُتّضح الهدف المنشود، في قراءات الشعراء السابقة لبعض رموز العلم، وهو نظم الدلالات القارة من أجل نشرها للناس في كلمات ومعاهدتها بالتذكير والتأكيد. غير أنّ بعض الشعراء اكتفى، في هذا النوع من القراءة، بتسليط الضوء على أحد رموز العلم وما يحمله من دلالات، وهو اكتفاء يعطي مؤشراً على حرص الشاعر أن يحمل تواصله رسالة مركزة وموجّهة؛ تسعى إلى عدم تشتيت المستقبل مع توجيهه إلى حيث أراد المرسل/الشاعر. ومن شواهد ذلك قراءة أحمد

القرني للون الأخضر، وما يرمز إليه من دلالات الخصوبة والارتواء والنماء والاستقرار والطمأنينة والتوازن والنبيل (غالب، 2019)، وذلك في أثناء مخاطبته العلم (السلمي، 2023، ص. 65):

إني أرى فيك اخضرارًا شديني فأتى القريضُ مُسارعًا مُنهالا
ليقولَ إنَّك رمزُ كلِّ سمحةٍ في موطنٍ وسَّعَ الجميعَ منالا

فالخضرة هي التي شدت الشاعر، على حدّ تعبيره، وجعلته يركّز على هذا الرمز دون غيره؛ فأنهال شعره اعتزافاً بكرم الوطن وسخائه. وهذه القراءة، بهذه الطريقة، قراءة مباشرة صرّحت بدلالة الرمز تصريحاً عكس حرص الشاعر على استظهارها من عالم الألوان إلى عالم الكلمات كي يعيها الجميع ويدركوا فضل الوطن عليهم؛ وهنا يبدو سبب اكتفاء الشاعر بهذا الرمز، دون إشارة إلى غيره، وهو تحقيق نوع من التواصل المركّز والموجّه في آن واحد. والسيف هو الرمز الوحيد، في العلم السعودي، الذي ينتمي إلى فنّ الرسم ذي العلاقة المتينة بفن الشعر (الخميس، 2019). ويحمل في الموروث العربي معاني الشهادة في سبيل الله، والصرامة التي لا تكون إلا بالقوة والعزة، والعدل والحكمة (غالب، 2019). وقد اقتصر بعض الشعراء على قراءته، قراءة مباشرة، لذات الهدف؛ وهو التركيز على هذا الرمز مع توجيه المستقبل إلى الوعي بدلالاته -أو بعضها- استعانة بالسياق المعين في مثل هذا التواصل ذي الوظيفة المرجعية. ومن شواهد ذلك قول عادل القالي (السلمي، 2023، ص. 43):

سيئها ماضٍ بعزمٍ صادقٍ نحو عدلٍ عمّ كلّ الكوكبِ
وقول مني البدراني (السلمي، 2023، ص. 111):

بِجَمَاهَا سَيْفٌ حَقٌّ لَامِعٌ فِي جَبِينِ الدَّهْرِ رَمْزٌ لِلْهِمَمِ

وتظهر، بوضوح، سمات هاتين القراءتين لهذا الرمز بدلالاته -القوة والعدل- فهما في إطار القراءة المباشرة التي يراد منها نشر ما يحمله السيف من معاني لأجل أن تعيها الأرض قاطبة. وتعدّ كلمة التوحيد أحد الرموز التي ركز عليها بعض الشعراء، في هذا النوع من القراءة، حرصاً منهم على استظهار ما تحمله من دلالات سامية قامت عليها الدولة؛ من أبرزها عقيدة التوحيد، والنظرة للوجود والكون والحياة، والدعوة إلى المساواة والسلام (غالب، 2019). وقد جاء هذا التركيز عاكساً الهدف من عملية التواصل، ذي الوظيفة المرجعية، وهو إيصال دلالات هذا الرمز إلى المستقبل/الجميع بكل دقة ووضوح مع توجيههم إلى ذلك بالاقتصار على هذا الرمز. ومن شواهد قول محمد يعقوب (السلمي، 2023، ص. 15):

به من راية التوحيد حمى تُشَدُّ بهِ المواقفُ أو تُحلُّ

وقول مروان المزيني (السلمي، 2023، ص.109):

رَفِرْفَ -فَدَيْتُكَ- بالتَّوْحِيدِ يا عَلمُ واصدَحْ بِحُبِّ بلادي أَيُّها العَلمُ...
واخفُقْ بِحُبِّ قلوبِ زِدَّتْها وهَّما كم تحت رايَتِكَ الشَّمَاءِ قد حَكَمُوا...
كلُّ يُنَكِّسُ في الأحزانِ رايَتَهُ إلَّاكَ تُرَفِّعُ دَوْمًا أَيُّها العَلمُ

فيلاحظ تركيز الشعاعين على إبراز هذا الرمز/راية التوحيد، بما يحمله من دلالات، وذلك عن طريق نسبة العلم إليه في الشاهد الأول، واستظهار ما جناه الوطن وأهله -من حب واجتماع وعلو وأنفة- في الشاهد الثاني. وجو القصيدتين يشجع على إدخال القراءة، في هذين الشاهدين، في إطار القراءة المباشرة؛ بما تضمنته من تعداد لبعض الرموز وربطها بدلالاتها.

ويمكن القول: إن هذا النوع من القراءة حاضر في المدونة -سواء لبعض رموز العلم (السلمي، 2023، ص.41، 56، 92) أو لأحد رموزه فقط (السلمي، 2023، ص.21، 32، 37، 87، 93، 101، 106) - وعاكس لحرص الشعراء على توخي الدقة في قراءة الرموز؛ حرصاً دفعهم إلى إقامة تواصل ذي وظيفة مرجعية، لهذا السبب، مجيزين لأنفسهم تجاوز روح الشعر لهدف أسمى في نظرهم وهو إيصال الدلالات دون تدخل قد يحل رموز العلم ما لا تحتمله.

4. القراءة الفنية لدلالات رموز العلم السعودي

إذا كان بعض الشعراء قد آثر قراءة العلامات، التي ضمها العلم السعودي، قراءة مباشرة لهدف ما، فإن ثمة شعراء آثروا قراءتها بطريقة أخرى كشفت عن قدراتهم في التفاعل الفني، وأكدت على أن التواصل اللفظي أكثر طواعية وأنسب في نقل الثقافة بما يتميز به من بني مختلفة تعين على الانفتاح الدلالي وتطمع في التحليل (العبد، 2007). وقد سبقت الإشارة إلى أنه بإمكان الباحث أن يحاور هذا النوع من القراءة بوصفها قراءة ذات سمة قصدية تركز على إحدىوظيفتين: أولاهما تعبيرية/انفعالية تهدف، في نظر جاكسون (1988، ص28)، إلى التعبير "بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه. وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين". والثانية وظيفة شعرية، وهي الأوضح -في هذا النوع من قراءة الشعراء- من الوظيفة التعبيرية/الانفعالية التي قد لا تكتفي باستعمال ضمائر المتكلم وصيغ التعجب بل لا بد أن تستعين بعناصر غير لسانية كما يرى جاكسون، وهذا ما لا يوجد في مدونة البحث، بوصفها إبداعاً لغوياً/شعرياً، إلا مع تجاوز ذلك بالنظر إلى أن مقومات اللغة أقوى من مقومات غيرها "والشعر الغنائي الموجّه نحو ضمير المخاطب شديد الارتباط بالوظيفة الانفعالية" (المرجع السابق، ص32). ويضاف إلى ذلك أن الوظيفة الجمالية تتحوّل فيها الرسالة من وسيلة تواصل إلى هدف له (غيرو، 1984)؛ بحيث يسعى الشاعر إلى أن يقيم التواصل من أجل المتعة الجمالية كذلك. ومن جهة أخرى، فإن بإمكان الباحث أن يحاور هذا النوع -من قراءة الشعراء لرموز العلم- مستعيناً

بسيمياء الدلالة التي ترى أنّ للنص بنيتين ظاهرة وعميقة يجب تحليلهما واستكشاف ما بينهما من علائق، وأنّ الدالّ يتميز بحريته الدلالية، وبالتالي ففعاليته من فعالية قراءته التي تصنع النصّ (الغذامي، 1998). ويرى الباحث -في الجملة- أنّ طريقة الشعراء في قراءاتهم هي المُعين على تحديد ما يناسبها في المحاور النقدية؛ فبعض القراءات أثر فنيّات التصوير وتوظيف المحسنات البديعية، وبعضها أثر الغوص في دلالات الرموز استكشافاً وتوليداً.

لقد بدا تفاعل بعض الشعراء -في قراءة الرموز التي ضمّها العلم- في مظاهر مختلفة؛ ويمكن الوقوف على أبرزها وهي: التوسيع الدلالي، والتصوير، وتوظيف المحسنات البديعية. أمّا التوسيع الدلالي، فيعني به الباحث: أن يلفت الشاعر، في قراءته الرموز، إلى دلالات أخرى تستحق -في نظره- أن يسلّط عليها الضوء ليراه الجميع، ولا يتوقف في ذلك عند حدود الدلالات المتعارف عليها. وحضور هذا النوع من القراءة ملاحظ في المدونة؛ ومنه قول محسن السهيمي (السلمي، 2023، ص. 20):

علّم

ما يَمَّ

في الكون ضياءً كضياءه.

إذ لفت الشاعر -في هذا البيت- إلى رمز اللون الأبيض الذي قرأ فيه معنى الضياء والنور؛ فالعلم مصدر ضياء الكون كله. ولا شكّ في أنّ هذه الدلالة مما يحتملها اللون الأبيض، لكنّها ليست من ضمن دلالاته في رمز البياض الذي تضمّنه العلم السعودي (غالب، 2019)؛ الأمر الذي يسوّج حمل ذلك على نوع من التوسيع الدلالي المقبول الذي به رأى الشاعر وطنه مصدر نور العالم، وأراد أن يراه المستقبل كذلك. وقريب منه قراءة عبدالرحمن العتل لرمزي اللون الأخضر والأبيض (السلمي، 2023، ص. 30):

قد رشّفنا الخير من ألوانه كالربيع الغضّ كالغيث همى

فبالصورة التشبيهية ربط الشاعر رمز اللون الأخضر بالربيع، ومن ثمّ حمّله المعاني المألوفة في هذا اللون ومن أبرزها الخصوبة والارتواء والنماء (غالب، 2019). لكنه، بربطه رمز اللون الأبيض بالغيث، يكون قد تجاوز الدلالات المألوفة -كالطهارة والنقاء والعفة- إلى معنى العطاء والبذل والتجدة وكلّ ما يرتبط بالغيث الذي يحتاج إليه الناس جميعاً؛ وهنا يكون الشاعر قد وسّع من دلالة هذا الرمز اللوني مستعيناً بالصورة، التي هي كذلك مظهر من مظاهر القراءة الفنية، كما سيأتي، لافتاً إلى ما يراه جديراً بأن يسلّط الضوء عليه في هذا الرمز. ويدخل في هذا النوع قراءة نايف الرشدان لرمز الشهادة/كلمة التوحيد (السلمي، 2023، ص. 25):

يا راية التوحيد فُقت مهابةً حتى إلى الآفاق أنت السابقة...
نورٌ من الكلمات بين سطورها يهتز كل الكون وهي الوثائق

حيث رأى فيها دلالة الهيبة والقوة التي تخيف الكون ويهتز منها. وليست هذه من بين الدلالات البارزة في هذا الرمز الذي يحيل إلى عقيدة الدولة السمحة، ورؤيتها القائمة على مبدأ المساواة، ودعوتها إلى السلام (غالب، 2019)؛ غير أنّ الشاعر وسّع من دلالاتها في قراءته، وربما هدف من ذلك إيصال رسالة مفادها أنّ الهيبة الحقّة لا تنال بالبطش والتفريق، بل بقيم سامية لا تكون إلّا بمثل قيم الدين الحنيف.

وتجدر الإشارة - في نهاية الحديث عن مظهر التوسيع الدلالي - إلى أنّ من الشعراء من نظر إلى العلم، برموزه ذات الدلالات المتنوعة، رمزاً واحداً يحمل دلالة سامية؛ ويمكن أن يعدّ هذا لوناً من الانفتاح الدلالي في القراءة يجعل من الأجزاء كلاً لا يقبل التجزئة، ويحمل ما لا تحمله أجزاؤه. ومن ذلك قول صباح فارسي مخاطبة العلم (السلمي، 2023، ص78):

فلأنت في سفر المعالي دائماً رمزٌ يُخلّد لحظة الميلاد
ميلادٌ مملكةٍ تسامت في الدُّنا فشموخها في الأرض طودٌ بادٍ

فالعلم، برموزه، رمز واحد خلّد ميلاد الوطن الذي لا يزال في سموّ وشموخ، وقد أسهمت هذه النظرة - على ما فيها من اختزال - في توسيع دلالات الرمز عن طريق توجيه المستقبل إلى دلالة أخرى هي أكثر أهمية في نظر الشاعرة؛ ومن ثمّ حُمِلَت الرموز مجتمعةً ما لا تحمله مفردة. ويدنو من ذلك ما جاء في بيت عبدالله الدريهم (السلمي، 2023، ص87):

مُذ شاءك الله عنواناً لوحدتنا وأنت من أروع الأشياء في بلدي

إذ رأى في العلم رمزاً للوحدة التي جمعت أطراف المجتمع؛ لافتاً المستقبل إلى ما يمكن تسميته بالدلالة الكلية لرمز العلم الذي أذاب فيه دلالات الرموز المختلفة في دلالة واحدة تحمل معاني الوحدة والتلاحم والتعاقد.

كما استثمر الشعراء ظاهرة التوسيع الدلالي (السلمي، 2023، صص 64، 73، 93، 95) استثمروا كذلك ظاهرة التصوير التي وظفوها في قراءتهم رموز العلم - إذ حرّكوها وخاطبوها وشبّهوها وشبّهوا بها - ومن ثم جاءت قراءتهم قراءة فنية، تعتمد المجاز والاستعارة خاصة (القزويني، ت. 739هـ، ط. 2003)، يرام منها إلباس الدلالات ثوباً جمالياً يسهم في زيادة التأثير على المستقبل وإدهاشه؛ أي شكلاً جميلاً بالنظر إلى أنّ الصورة في الشّكل على حدّ تعبير ابن سيده (ت. 459هـ) (نقلاً عن ابن منظور، ت. 711هـ، ط. 1990، مادة صور). ومن شواهد ذلك قول عبدالعزيز خوجة (السلمي، 2023، ص. 13):

أيّها الأخضرُ رفرف علماً سنباهي بعُلاك الأمم

فالعلم السعودي ليس لوناً أخضر فقط، ولكنّ الشاعر أبرز هذا الرمز، بالمجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية (القزويني، 2003) وبلاستعارة، هادفاً إلى إيصال ما يحمله، من دلالات النماء والاستقرار والطمأنينة، إلى المستقبل بطريقة جميلة مؤثرة؛ يدلّ على ذلك تأكيده على هذه الدلالة بقوله (السُّلمي، 2023، ص. 13-14):

أخضرٌ إن يجذبِ الكونُ فما خاب مَنْ للعلمِ الحرّ انتمى
هو رمزٌ لبلادٍ قد غدتْ للذي يطلبُ مجداً حُلماً

ويدنو منه قول علي البهكلي (السُّلمي، 2023، ص. 95-96):

وطني عليه من العقيدة رايةً خضراءُ وارفَةٌ وسيفٌ ما انحنى
وطني لواءٌ شهادةٍ لا ينحني والسيفُ كم حفظَ الحقوقَ وأعلنا

فالعلم أخضر وارف، والسيف لا ينحني بل يحفظ الحقوق ويعلمها صراحة. وقد اتخذت هذه القراءات الفنية -لدلالات رمزي اللون الأخضر والسيف- من التصوير معيّنًا لها في عملية التواصل؛ فأحالت إلى الدلالات بطريقة جميلة ستسهم في التأثير على المستقبل. ويدنو من ذلك ما جاء في مطلع قصيدة إبراهيم البهكلي (السُّلمي، 2023، ص. 62):

وطنٌ كسّته رايةٌ فاخضَوضَرا ووقاه سيفٌ صارمٌ أن يُقَهَرا

إذ قرأ الشاعر رمزي اللون الأخضر والسيف، وما يحملانه من دلالات مختلفة، قراءة فنية صوّر فيها الوطن رياضاً بلون علمه الأخضر، والسيف حارساً للوطن بقوته التي لا يستطيع أحد أن يكسرها. وقد اتكأ عبدالله الدريهم على ظاهرة التصوير في قراءته دلالات رمز السيف؛ وذلك في قوله (السُّلمي، 2023، ص. 88):

والسّيفُ يبدو كجنديٍّ يرافقه كيلا يُمسَّ ببعضِ السّوء والنّكدِ

حيث استحضر دلالاته استحضاراً فنياً بالتصوير الذي بدا فيه السيف جنديّاً يصاحب الوطن أينما كان ويحميه من أعدائه المتربصين. ومن القراءات الفنية لرموز العلم قول عبدالرحمن العتّل مركّزاً على رمز الشهادة/كلمة التوحيد (السُّلمي، 2023، ص. 29):

يشرقُ التوحيدُ في مفرقه كانبثاقِ الصبحِ يجلو الظلما

فقد عبر الشاعر عن دلالات هذا الرمز بالتصوير الذي تجاوز القراءة المباشرة إلى قراءة فنية صوّر فيها كلمة التوحيد وهي تشرق في العلم كإشراق الصباح مبدداً الظلام. وتحمل هذه القراءة دلالات كلمة التوحيد -الرؤية الشاملة، والمساواة، والسلام- التي بها يسعد الخلق ويعيشون بأمن وأمان؛ ولكنها بطريقة جمالية تعمل على التأثير في المستقبل بما تحمله من استعارة وتشبيه.

واستثمار بعض الشعراء لظاهرة التصوير واضح في المدونة (السُّلمي، 2023، ص ص 15، 64، 25، 29، 43، 77، 101)، وبها استطاعوا قراءة الرموز قراءة شعرية، وربما دعموها بتوظيف ظاهرة المحسنات البديعية التي هي واحدة من الظواهر الفنية التي تضيف على اللغة حُسناً (القزويني، 2003) إذا ما وظفت التوظيف الصحيح المعتدل. والمحسنات البديعية -إذن- من مقومات الجمال الذي يتكئ، عند الفلاسفة، على التكامل والتناغم والوهج (إليوت، 1976/1982). ومن هذه المنطلق يمكن القول: إنّ تضمين الشعراء للمحسنات البديعية، في قراءاتهم رموز العلم، يجعلها قراءات فنية تنأى عن نقل الدلالات بطريقة مباشرة، وتعمل على جذب انتباه المستقبل والتأثير عليه بهذه الظاهرة اللغوية. ويعدّ التكرار من بين المحسنات التي وظفها بعض الشعراء في قراءتهم رموز العلم، وقد عمل على التأثير في المستقبل عن طريق التأكيد. ومن شواهد ذلك تكرار كلمة علم الذي نجده في قول السهيمي (السُّلمي، 2023، ص. 20):

عَلَّمَ

مَا يَمَّ

في الكونِ ضياءُ كضياءِ.

عَلَّمَ

يَزْهُو

بتوحيدٍ وسيفٍ في حماه.

عَلَّمَ

يُخَفِّقُ

عدلاً

بشباتٍ في علاه.

باخضرارٍ

وسلامٍ

ووثامٍ ونجاةٍ.

فبهذا التكرار استحضّر الشاعر كلمة العلم في جميع الأبيات التي بيّن فيها دلالات رموزه، وقد عمل ذلك على تنشيط انتباه المستقبل في أول كلّ بيت مع التأكيد على أنّ الصفات المذكورة له وليست لغيره. ومثل ذلك تلاعب بعضهم، بالجذر -خ ض ر- الذي منه رمز اللون الأخضر، تلاعباً عمل على استحضاره عن طريق المجانسة؛ وهذا ما يلمس في قول عادل القالي (السُّلمي، 2023، ص. 44-45):

مَوطِني دُمْتُ لَنَا مَحْبُوبَةً دُمْتُ خَضِرَاءَ كَغَرَمِ الْعَيْنِ
خُضْرَةُ الْأَرْضِ وَرَمَزُ شَاهِدٍ لَأَخْضِرَارِ الدَّرْبِ وَسَطَ اللَّهَبِ

وقد أدى هذا المحسن البديعي دوره في عملية الاتصال، وأضفى عليها لمسة جمالية لجذب انتباه المستقبل والتأثير عليه. ووظف بعضهم التضاد للتأكيد على ما تضمنته رسائلهم في قراءة رموز العلم، ومن ذلك ما جاء في بيت محمد آل شمالان (السلمي، 2023، ص. 101):

سَيُوفُ حَزْمِكَ فِي الْأَعْمَادِ سَاهِرَةٌ تُضْنِي الْعِدَا وَتُعِيدُ الْعَيَّ لِلرُّشْدِ

حيث أكد التضاد -الغي/الرشد- رمزية السيف التي لم توظفه الدولة إلا في الحق وللحق؛ وذلك عن طريق ردع الظالم عن ظلمه. ومن ثم استطاع الشاعر أن يوصل دلالات هذا الرمز، إلى المستقبل، بطريقة جمالية مؤثرة دون أن يحدث لبساً غير مقصود. وفي المجمل، فإن توظيف الشعراء للبديع، في قراءتهم رموز العلم، حاضر في المدونة (السلمي، 2023، ص. 13، 14، 25، 29، 42، 54، 56، 95)، ويتأكد أثره على القارئ إذا ما كان مدعوماً بظاهرة التصوير.

5. الخاتمة

يحمل العلم السعودي رموزاً ذات دلالات مختلفة هي رسالة سامية من الدولة إلى جميع دول العالم، وقد تفاعل الشعراء مع هذه الرسالة تفاعلاً ازداد إيجابية مع إعلان مقام خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز -حفظه الله- يوم الحادي عشر من شهر مارس يوماً للعلم السعودي؛ وتبدى ذلك التفاعل مع المناسبة الأولى لهذا اليوم (1444هـ-2023م) حين قرأ الشعراء العلم، بما فيه من رموز متنوعة الدلالات، بطرق مختلفة بغية إيصال رسائل ذات أهداف عدة. وقد سلط البحث الضوء على تلك القراءات التي اتسمت بالقصدية انطلاقاً من أنّ رموز العلم رسائل مقصودة، وأنّ على المواطنين، والشعراء منهم، أن يعوها جيداً ويبلغوها للجميع. وقد انتهى إلى النتائج التالية:

أولاً: أنّ ثمة حراكاً أدبياً وثقافياً إيجابياً في مواكبة التوجيهات الصادرة من الجهات العليا في الدولة، وقد بدا ذلك بوضوح في جهود وزارة الثقافة والأندية الأدبية ومنتج الأدباء، وما كتّاب (ديوان العلم) الذي ضمّ نخبة من القصائد التي قرأت العلم السعودي، وعبرّت عن عواطف أصحابها في هذه المناسبة، إلاّ ثمة من ثمرات ذلك الحراك الإيجابي.

ثانياً: تنوّعت قراءة الشعراء لرموز العلم بين القراءة المباشرة والأخرى الفنية، وقد أدى هذا التنوع إلى اختلاف وظائف التواصل الذي انعقد بين الشاعر والجمهور. أما القراءة المباشرة فقد اتكأت على الوظيفة المرجعية في التواصل، وهدفت إلى إيصال الدلالات إلى الآخرين بكلّ شفافية ووضوح، وتنوّعت بين قراءة عدد من الرموز وتبسيط الضوء على رمز أو اثنين لهدف ما.

وأما القراءة غير المباشرة/الفنية فبدت فيها -بصورة أوضح- الوظيفة الشعرية التي جمعت بين هديّ إيصال الرسالة وإحداث المتعة التي تسهم في التأثير، واتكأت على مظاهر: التوسيع الدلالي، والتصوير، وتوظيف المحسنات البديعية. وقد بدا التوسيع الدلالي في تحميل الرمز دلالة ليست له، في الأصل، أو في النظر إلى العلم رمزاً يحمل دلالة كلية تستمد وقودها من دلالات الرموز المختلفة. وأكثر الشعراء من التصوير؛ فحركوا الرموز وخاطبوا وشبهوا بها، وظهر ذلك واضحاً في المدونة. ووظّف بعضهم المحسنات البديعية، وخاصة التكرار والتضاد والجناس، فبدت قراءتهم في ثوب جمالي.

ثالثاً: حرص بعض الشعراء على قراءة جميع دلالات رموز العلم، وبدا ذلك واضحاً في القراءة المباشرة التي هدفت إلى نشر دلالات الرموز القارة ومعاهدتها بالتذكير والتأكيد. وحرص بعضهم على قراءة دلالات بعض رموز العلم، وأعطى ذلك مؤشراً على حرص الشاعر أن يحمل التواصل رسالة مركزة وموجهة؛ فتحقق بذلك عدم تشتيت المستقبل مع توجيهه إلى حيث أراد المرسل/الشاعر.

رابعاً: بدت رموز الخضر والبياض والسيوف وكلمة التوحيد أكثر حضوراً في قراءة الشعراء، ومن ثم كان إيصال دلالاتها، إلى المستقبل، الهدف الأول من عملية الاتصال.

مراجع البحث

- إسكندر، غريب. (2000). الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- إليوت، إسكندر. (1982). آفاق الفن (ط1) (جبرا إبراهيم جبرا، ترجمة). المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- (العمل الأصلي نُشر 1976)
- البشير، بشرى. والذجاوي، علي. (2018). نظرية التواصل اللساني المفهوم والرؤية. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. (38)، 1718-1732.
- <https://search.emarefa.net/detail/BIM-914692>
- بنكراد، سعيد. (2004). استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة. مجلة علامات. (21)، 3-18.
- بنكراد، سعيد. (2012). السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها (ط3). دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية.
- بومزبر، الطاهر. (2007). التواصل اللساني والشعرية مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون (ط1). الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.
- جاكبسون، رومان. (1988). قضايا الشعرية (محمد الولي ومبارك حنوز، ترجمة). دار توبقال للنشر. الدار البيضاء.
- المغرب. (العمل الأصلي نُشر 1966)
- حمادو، عائشة. (2015). السيميائية في النقد العربي المعاصر حول المفهوم وإشكالية التلقي. مجلة الباحث 7، (2)، 58-76.

- حمداوي، جميل. (2010). سيمولوجيا التواصل وسيمولوجيا الدلالة. في الجابري، محمد عابد (محرر). *التواصل نظريات وتطبيقات*. ط1. (ص ص 53-60)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر. بيروت.
- حمداوي، جميل. (2015). *التواصل اللساني والسيميائي والتربوي* (ط1). دار الألوكة. المغرب.
- حنيفة، فركوس. (2015). *الأصول الغربية للسيميائية وإرهاصاتها العربية*. مجلة الأثر. (23)، 71-84. <https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/24/14/23/47759>
- خالفي، حسين. (2011). *البلاغة وتحليل الخطاب* (ط1). دار الفارابي. بيروت. لبنان.
- خطابي، محمد. (1991). *لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب* (ط1). المركز الثقافي العربي، بيروت.
- الخميس، عبدالرحمن. (2019). صورة عيلان كردي في الشعر العربي دراسة سيميائية. مجلة جامعة حائل للعلوم الإنسانية. (3)، 247-274.
- دال، جيزار دولو. (2004). *السيميائيات أو نظرية العلامات* (عبد الرحمن بو علي، ترجمة). دار الحوار، اللاذقية. (العمل الأصلي نُشر 1977)
- دي سوسير، فرديناند. (1985). *علم اللغة العام* (يونييل يوسف عزيز، ترجمة). دار آفاق عربية، بغداد. (العمل الأصلي نُشر 1916)
- سامسون، جفري. (1997). *مدارس اللسانيات التسابق والتطور* (محمد زياد كبة، ترجمة). جامعة الملك سعود، الرياض. (العمل الأصلي نُشر 1980)
- السرغيني، محمد. (1986). *محاضرات في السيميولوجيا* (ط1). دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
- الشلمي، عبدالرحمن. (2023/1444). *ديوان العلم* (ط1). النادي الأدبي الثقافي بجدة.
- العبد، محمد. (2007). *العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال* (ط1). مكتبة الآداب، القاهرة.
- عياشي، منذر. (2004). *العلاماتية وعلم النص* (ط1). المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- غالب، حفيظة. (2019). علم المملكة العربية السعودية دراسة سيميائية. مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية 6، (2)، 225-241.
- الغذامي، عبدالله. (1998). *الخطيئة والتكفير من النبوية إلى التشرحيّة قراءة نقدية لنموذج معاصر* (ط4). الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الغزالي، عبدالقادر. (2003). *اللسانيات ونظرية التواصل رومان ياكوبسون نموذجًا* (ط1). دار الحوار، اللاذقية.
- غيرو، بيار. (1984). *السيميائية* (أنطون أبي زيد، ترجمة). منشورات عويدات، بيروت. (العمل الأصلي نُشر 1977)
- فوكو، ميشيل. (1989). *الكلمات والأشياء* (مطاع الصفدي، ترجمة). مركز الإنماء القومي، بيروت. (العمل الأصلي نُشر 1966)

القزويني، الخطيب. (ت. 739هـ، ط. 2003). *الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبيدع* (إبراهيم شمس الدين، محقق). دار الكتب العلمية، بيروت.

المرايط، عبدالواحد. (2005). *السيميائية العامة وسيميائية الأدب من أجل تصور شامل* (ط1). مكتبة المناهل، فاس.
المصطفى، عواطف كنوش. (2007). *الدلالة السياقية عند اللغويين* (ط1). دار السياب، لندن.
ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. (ت. 711هـ، ط. 1990). *لسان العرب*. دار صادر، بيروت.

Al-'Abd, Muḥammad. (2007). al-'ibārah wa-al-ishārah dirāsah fī Naẓarīyat al-ittiṣāl. Ṭ1. Maktabat al-Ādāb, al-Qāhirah.

Al-Bashīr, Bushrā. wāldhbbāwy, 'Alī. (2018). Naẓarīyat al-tawāṣul al-lisānī al-mafhūm wa-al-ru'yah.

Majallat Kullīyat al-Tarbiyah al-asāsīyah lil-'Ulūm al-Tarbawīyah wa-al-insānīyah. (38), 1718-

Al-Ghadhdhāmī, Allāh. (1998). al-khaṭī'ah wa-al-takfīr min al-binyawīyah ilā al-tashryḥ qirā'ah naqdīyah li-namūdhaj mu'āshir. ṭ4. al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-'Āmmah lil-Kutub, al-Qāhirah.

al-Ghazālī, 'Abd-al-Qādir. (2003). al-lisānīyāt wa-naẓarīyat al-tawāṣul Rūmān yākwbswn namūdhajan. Ṭ1. Dār al-Ḥiwār, al-Lādhiqīyah.

Al-Khamīs, 'Abd-al-Raḥmān. (2019). Ṣūrat 'Aylān Kurdī fī al-shi'r al-'Arabī dirāsah sīmiyā'īyah.

Majallat Jāmi'at Ḥā'il lil-'Ulūm al-Insānīyah. (3), 247-274.

Al-Murābiṭ, 'bdāl-wāhd. (2005). al-sīmiyā' al-'Āmmah wa-sīmiyā' al-adab min ajl Taṣawwur shāmil. Ṭ1. Maktabat al-Manāhil, Fās.

Al-Muṣṭafā, 'Awāṭif Kannūsh. (2007). al-dalālah al-siyāqīyah 'inda al-lughawīyīn. Ṭ1. Dār al-Sayyāb, Landan.

Al-Qazwīnī, al-Khaṭīb. (t. 739h, Ṭ. 2003). al-Īdāh fī 'ulūm al-balāghah al-ma'ānī wa-al-bayān wa-al-badī' (Ibrāhīm Shams al-Dīn, Muḥaqiq). Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, Bayrūt.

Al-Sarghīnī, Muḥammad. (1986). Muḥādarāt fī al-Sīmiyūlūjīyā. Ṭ1. Dār al-Thaqāfah. al-Dār al-Bayḍā'. al-Maghrib.

Alssulmy, 'Abd-al-Raḥmān. (1444/2023). Dīwān al-'Ilm. Ṭ1. al-Nādī al-Adabī al-Thaqāfī bi-Jiddah.

'Ayyāshī, Mundhir. (2004). al'lāmātyh wa-'ilm al-naṣṣ. Ṭ1. al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, al-Dār al-Bayḍā'.

Bingarād, Sa'īd. (2004). Istirātījīyāt al-tawāṣul min al-lafẓ ilā al'ymā'h. Majallat 'Alāmāt. (21), 3-18.

Bingarād, Sa'īd. (2012). al-sīmiyā'īyāt mafāhīmuḥā wa-taṭbīqātuhā. ṭ3. Dār al-Ḥiwār lil-Nashr wa-al-Tawzī', al-Lādhiqīyah.

Bwmzbr, al-Ṭāhir. (2007). al-tawāṣul al-lisānī wa-al-shi'rīyah muqārabah taḥlīlīyah li-naẓarīyat Rūmān jākwbswn. Ṭ1. al-Dār al-'Arabīyah lil-'Ulūm Nāshirūn, Bayrūt.

Dāl, Jīrār dwlw. (2004). al-sīmiyā'īyāt aw Naẓarīyat al-'alāmāt ('Abd-al-Raḥmān Bū 'Alī, tarjamat). Dār al-Ḥiwār, al-Lādhiqīyah. (al-'amal al-aṣlī nushr 1977)

Dī swsyr, frdynd. (1985). 'ilm al-lughah al-'āmm (yw'yl Yūsuf 'Azīz, tarjamat). Dār Āfāq 'Arabīyah. Baghdād. (al-'amal al-aṣlī nushr 1916)

Fūkū, Mīshīl. (1989). al-kalimāt wāl'shyā' (Muṭā' al-Ṣafādī, tarjamat). Markaz al-Inmā' al-Qawmī, Bayrūt. (al-'amal al-aṣlī nushr 1966)

Ghālib, Ḥafīzah. (2019). 'ilm al-Mamlakah al-'Arabīyah al-Sa'ūdīyah dirāsah sīmiyā'īyah. Majallat Jāmi'at al-Malik Khālīd lil-'Ulūm al-Insānīyah 6, (2), 225-241.

Ghyrw, Bayār. (1984). al-sīmiyā' (Anṭūn Abī Zayd, tarjamat). Manshūrāt 'Uwaydāt, Bayrūt. (al-'amal al-

- aşlî nushr 1977)
- Ḥamdāwī, Jamīl. (2010). symwlvjyā al-tawāşul wsymwlvjyā al-dalālah. fī al-Jābirī, Muḥammad ‘Ābid (muḥarrir.) al-tawāşul naẓarīyāt wa-taṭbīqāt. 1. (Ş Ş 53-60), al-Shabakah al-‘Arabīyah lil-Abḥāth wa-al-Nashr. Bayrūt.
- Ḥamdāwī, Jamīl. (2015). al-tawāşul al-lisānī wālsymyā’y wa-al-tarbawī. 1. Dār al-Alūkah. al-Maghrib.
- Ḥanīfah, Farkūs. (2015). al-uşūl al-Gharbīyah llsymyā’ w’rhāşāthā al-‘Arabīyah. Majallat al-athar. (23), 71-84.
- Ḥmādw, ‘Ā’ishah. (2015). alsymyā’y fī al-naqd al-‘Arabī al-mu’āşir ḥawla al-mafhūm wa-ishkāliyat al-talaqqī. Majallat al-bāḥith 7, (2), 58-76.
- Ibn manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram ibn ‘Alī. (t. 711h, 1. 1990). Lisān al-‘Arab. Dār Şādīr, Bayrūt.
- Ilīyūt, ilskndr. (1982). Āfāq al-fann (Jabrā Ibrāhīm Jabrā, tarjamat). 3. al-Mu’assasah al-‘Arabīyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr, Bayrūt. (al-‘amal al-aşlī nushr 1976)
- Iskandar, Gharīb. (2000). al-Ittijāh al-sīmiyā’ī fī Naqd al-shi’r al-‘Arabī. al-Majlis al-A’lá lil-Thaqāfah, al-Qāhirah.
- Jākbswn, Rūmān. (1988). Qaḍāyā al-shi’rīyah (Muḥammad al-Walī wa-Mubārak ḥnwz, tarjamat). Dār Tūbqāl lil-Nashr. al-Dār al-Bayḍā’. al-Maghrib. (al-‘amal al-aşlī nushr 1966)
- Khālīfī, Ḥusayn. (2011). al-balāghah wa-taḥlīl al-khiṭāb. 1. Dār al-Fārābī. Bayrūt. Lubnān.
- Khaṭṭābī, Muḥammad. (1991). Lisānīyāt al-naşş madkhal ilá insijām al-khiṭāb. 1. al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī. Bayrūt. Lubnān.
- Sāmswn, Jifrī. (1997). Madāris al-lisānīyāt altsābq wa-al-taṭawwur. tara : Kubbah, Muḥammad. (D. 1).
- Jāmi’at al-Malik Sa’ūd. al-Riyāḍ. (al-‘amal al-aşlī nushr 1980)

Biographical Statement

Prof. Abdulrahman bin Saleh bin Abdulrahman Alkhamis is a full Professor of Literature & Criticism in the Department of the Arabic Language. College of Science & Arts, Ar Rass, Qassim University. Saudi Arabia. Prof. Alkhamis received his PhD degree in 2012 from Imam University in Riyadh. His research interests include the Abbasid and Saudi literature.

معلومات عن الباحث

أ.د عبد الرحمن بن صالح بن عبد الرحمن الخميس، أستاذ الأدب والنقد في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية العلوم والآداب، الرس، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية. حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام 1433هـ. مختص بالأدب العباسي والأدب السعودي.

Email: azizinmm@gmail.com



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

من الحقيقة الأنطولوجية إلى الحقيقة الإبستمولوجية: قراءة في كفاية العامل النحوي التفسيرية



معاذ بن سليمان الدخيل

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، بريدة، المملكة العربية السعودية

Abstract

This paper entitled “from ontological truth to epistemological truth. A reading into the explanatory adequacy of the grammatical government” is based on the descriptive and comparative approach to summarize the position of critics of the government system in the Arabic grammatical tradition in terms of their view of it as a system imposed on the language from outside it, then it details the nature of scientific truth and its transformations, and shows the relationship between this and understanding the nature of the relationship between reality and theory, and the relationship of this to understanding the nature of the relationship between the studied reality and the explained theory. It shows the grammarians’ perception of this interpretation that they presented, and the impact of the perception in pushing criticisms as criticisms that did not understand the logic adapted by grammarians and the historical contexts in which both grammars; Western and Arabic arose.

Keywords: Philosophy of science, scientific explanation, structuralism, grammatical government.

الملخص

يقوم البحث على المنهج الوصفي والمقارن؛ ليلتص موقف ناقد نظام العامل في التراث النحوي العربي من جهة عدّهم إياه نظاماً مفروضاً على اللغة من خارجها، ويبيّن خلفيات هذا النقد إبستمولوجياً والظروف التي دعت اللسانيين البنيويين إلى تبنيّه واعتماده. ثم يقدّم تفصيلاً لتصور الحقيقة العلمية في إطار فلسفة العلم، وتحولات هذا التصور، وعلاقة ذلك بفهم طبيعة العلاقة بين الواقع المدروس والنظرية المفسّرة، وأثر هذه التحولات في فهم مبدأ السببية وتفسيره. ويبيّن البحث بعد ذلك طبيعة تصور نحاة العربية للنظرية التفسيرية التي قدّموها للتركيب المختلفة انطلاقاً من نصوصهم التحليلية، وأثر هذا التصور في تبديد النقود التي كانت موجهة إلى التراث النحوي العربي بوصفها نقوداً منطلقة من مقدمات لم تفهم منطق النحاة الذي اعتمدوه في بناء نظريتهم، ولم تراع السياقات التاريخية والظروف التي نشأت فيها الأنحاء الغربية من جهة والنحو العربي من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: فلسفة العلم، التفسير العلمي، البنيوية، العامل النحوي.

الإحالة APA Citation

الدخيل، معاذ. (2023). من الحقيقة الأنطولوجية إلى الحقيقة الإبستمولوجية: قراءة في كفاية العامل النحوي التفسيرية. مجلة العلوم العربية والإنسانية، 17، (2)، 19-37.

استلم في: 1445-03-02 / قبل في: 1445-03-24 / نُشر في: 1445-04-14

Received on: 17-09-2023/Accepted on: 09-10-2023/Published on: 29-10-2023



1. المقدمة

بقي التراث النحوي العربي في سجال مع المستجدات العلمية في العصر الحديث وبخاصة بعد اتّصال كثير من الباحثين العرب بالدرس اللساني الحديث في البعثات العلمية التي كانت منذ أربعينيات القرن الماضي. ولا نريد في هذه الدراسة أن نتوسّع في أنماط هذه العلاقة التي كانت بين الدرس اللغوي الحديث والباحثين العرب من جهة والتراث النحوي العربي من جهة أخرى؛ فتلك موضوعات لها دراسات اهتمّت بها. ولكننا نروم في دراستنا إلقاء الضوء على تلك النقود التي وجهها كثير من الدارسين العرب إلى التراث النحوي العربي بوصفه تراثاً قام نظامه التفسيري على فكرة العامل النحوي الذي فرضه، بحسب تعبيرهم، نحاة العربية على اللغة العربية؛ فكان وجهاً من وجوه الاعتساف وتشويه وصف اللغة. وكان التشويه، في تصوّرهم، عائداً إلى الاحتكام إلى نظام عقلي مصطحب من خارج اللغة بفرض المنطق اليوناني على اللغة، وما أداه ذلك من تغييب للغة وحقيقتها التي ينبغي أن تُدرس من خلالها.

تُعنى إذاً الدراسة بهذا السياق الذي التقى فيه التراث النحوي العربي مع المستجدات اللغوية الحديثة، وتركّز على التطوّرات العلميّة في فهم طبيعة الحقيقة العلميّة وتنزيلها منزلتها في الدراسة اللغويّة، مع العودة إلى التراث النحوي العربي في نصوص محقّقيه لفهم منطقته الداخلي والتعرّف على تصوّرهم للعلاقة بين واقع اللغة وتنظيرها؛ ولذلك تحاول الورقة أن تجيب عن الأسئلة الآتية:

أ. كيف أثّرت طبيعة الدرس اللساني الحديث في توجيه النقود إلى النحو العربي؟ وما الخلفيات المعرفيّة التي انطلق منها الوصفيّون العرب في تلك الحقبة؟

ب. ما طبيعة الحقيقة العلميّة؟ وما التطوّرات التي مرّت بها داخل فلسفة العلم؟

ج. كيف فسّر فلاسفة العلم مبدأ السببيّة في ضوء تمييزهم بين الحقيقة الأنطولوجيّة والحقيقة الإستمولوجيّة؟

د. ما التصرّ الذي كان يحكم النحاة في فهم علاقة نظريّتهم التفسيريّة باللغة الفعلية؟

وتقوم الورقة على المنهج الوصفي والمقارن، حيث إنّها اهتمّت بتتبّع النقود التي وجهها المحدثون إلى نظام العامل من جهة استصحابه من خارج اللغة وفرضه عليها، وتحليل هذه النصوص وبيان خلفياتها الإستمولوجيّة والتاريخيّة، ثم التعرف على منطق القدماء بتتبّع نصوصهم التي درسوا من خلالها اللغة، مع بيان الفروقات التاريخيّة والإستمولوجيّة بين ظروف الأنحاء الغربيّة والنحو العربي، وبيان تعدّد التصرّات التي حكمت منطق القدماء أنفسهم لنظام العامل وحقيقته.

وجاءت الدراسة في أربعة مباحث:

الأول: الدراسة اللغويّة في ضوء مبادئ الوصفيّين: تناولت فيه موقف الوصفيّين العرب من الدراسة العلميّة للغة،

بالإشارة إلى نماذج من أقوالهم، وبيّنت موقفهم من نظام العامل النحوي الذي قام عليه نحو العربية.

الثاني: الظروف التاريخية المسهمة في تكوين النموذج البنيوي في دراسة اللغة: درست فيه الخلفيات الإبستمولوجية للدرس اللساني البنيوي ودوافعها التاريخية، ونتائج ذلك على موقف الباحثين العرب من قضايا التراث النحوي العربي.

الثالث: العلاقة بين الواقع المدرس والنظرية المُفسّرة في ضوء فلسفة العلم: بيّنت فيه منظور فلسفة العلم من فهم العلاقة بين النظرية والظاهرة المدروسة، والتحوّلات التي طرأت في فهم هذه العلاقة، وأثر ذلك في حقل العلم نفسه.

الرابع: تصوّر النحاة للعلاقة بين اللغة المدروسة ونظريّتهم التفسيرية: قدّمت فيه تصوّر نحاة العربية للعلاقة بين النظرية وواقع اللغة انطلاقاً من نصوصهم وتحليلاتهم، وأثر ذلك في فهم نظام العامل على الوجه الذي قصده النحاة.

وختاماً أرجو أن تكون هذه الدراسة لبنة تضيف إلى بناء الدراسات اللغوية الجادة التي اهتمت بقضية العامل النحوي وركّزت على البعد الإبستمولوجي في النحو العربي.

2. الدراسة اللغوية في ضوء مبادئ الوصفين

ذهب كثير من الوصفين العرب إلى ضرورة أن تدرس اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، ويعني ذلك أنها ظاهرة تُلاحظ وتستقرّ ويقرّر واقعها دون وجوب أو جواز أو قوانين ملزمة، وليس من حقنا الحكم عليها بالصواب والخطأ؛ ولذلك يجب عندهم أن تكون القاعدة النحوية قاعدة عرفية تتفق مع الاستعمال، وليست قاعدة للتحكم في سلوك اللغة. (ينظر عيد، 2006) ويؤول هذا التصوّر إلى وجوب التمييز بين الحقائق اللغوية من جهة وتصورات النحاة الذهنية عن اللغة من جهة أخرى؛ لأنّ النحاة افترضوا أصولاً ذهنية لا سبيل إلى البرهنة اللغوية على صحتها. (ينظر عبد العظيم، 1990)

وتنسجم هذه الدعوة مع الخلفيات التي كان ينطلق منها الوصفون؛ فعلم اللغة الحديث والمنهج الذي يجب أن يتخذه ليحقق الشروط التي تنهض به في مصاف العلوم يجب أن يبدأ بتحديد موضوع علم اللغة كما ضبطه دي سوسير الذي ألحّ على أنّ دراسة اللغة العلمية تكون في ذاتها ولذاتها، ويعني ذلك أنه منهج لغوي خالص يدرس اللغة نفسها ولا غاية له سوى كشف العناصر التي تتكوّن منها اللغة المدروسة؛ أي: يكون لعلم اللغة منهجه المستقلّ في تناول المتن اللغوي، وتحليصه من المناهج الدخيلة، نحو: الفلسفة والمنطق ونحوهما.

فقد كان علماء اللغة وفق هذا المنظور يعتمدون المنهج الوصفي الذي يتوخّى تحقيق الموضوعية في دراسة اللغة بالاهتمام بتجرّد الباحث من ذاتيته، أو اعتماده على أفكار أخرى خارجة عن اللغة نفسها، ولذلك كان لهذا المنهج مجموعة من السمات التي تلخص طبيعته وغايته، أهمّها: (ينظر حسان، 1986)

أ. أنّه منهج لغوي خالص يصف اللغة المدروسة كما هي دون إقحام للعوامل الذاتية من فروض وظنون وآراء شخصية؛ حتى يصل الباحث إلى نتائج تتفق مع واقع اللغة دون زيف أو اضطراب؛ ولذلك كان الالتجاء إلى مؤثّر خارجي وتطبيق أفكاره ومبادئه على دراسة اللغة يتنافى مع هذه الحقيقة.

ب- وانطلاقاً من السمة الأولى يؤكد الوصفيون ضرورة استقلال المنهج اللغوي بتخليصه من التفكير الفلسفي الذي كان ملتبساً به في تاريخ الدراسات اللغوية؛ لأن الدراسة العلمية تقتضي قيامها على الاستقراء باستقصاء المفردات ابتداءً ليوجد الباحث بعد ذلك جهة الاشتراك بينها لتكون قاعدة البحث ونتيجته. ويقطع هذا المنهج في دراسة اللغة مع المنهج الذي كان سائداً في الدراسات اللغوية القديمة حين كان قائماً على المنطق القياسي غير الصالح للدراسات العلمية بافتراضه القواعد وإيجادها ابتداءً ثم التفكير فيما يمكن أن يدخل تحتها من مفردات.

وبعد أن قدّم علماء العربيّة المحدثون هذه الضوابط في دراسة اللغة جاءوا إلى التراث النحوي العربي ونظروا في نظام العامل ورأوا أنّ النحاة عدّوا العامل شخصيّة لها اعتباراتها الملزمة، ووضعوا هذه الاعتبارات في قوانين وقواعد هي (فلسفة العامل والعمل). وقد أدّت هذه القواعد الاعتبارية إلى كثير من الجدل في نظر الوصفيين؛ لأنّها قائمة على فكرة التأثير والتأثر المنقولة عن منطق أرسطو. وقد تركت هذه الفكرة ظلالها على عقول النحاة، ثم تطورت عندهم ونضجت نتيجة المجهود الذهني العميق الذي بذله النحاة في تصوّر وتوليد الأفكار. (ينظر عيد، 2006) وقد أدّت هذه الفكرة إلى مشكلات في بناء النحو العربي ألجأت النحاة إلى القول بلزوم عمل العامل النحوي وأن يترك العامل أثراً في المعمول ظاهراً أو تقديراً. وألجأهم إلى القول بمسائل الحذف والاستتار، والتنازع والاشتغال وغيرها مما أسهم في تعقيد النحو العربي وصعوبته، وما كانت هذه المسائل تطرح وتثار لولا سيطرة التفكير الفلسفي البعيد عن روح اللغة. (ينظر بشر، 2005) ولا نغفل عن توصيف مهم لتلك المرحلة الذي اقتضت فيه أن تلتقي أفكار الوصفيين مع أفكار أصحاب دعوات التيسير لتكوّن مسارات من الأفكار بينها تقاطعات كثيرة، فلم يقف أمر النقد عند معضلة تعقيد النحو وصعوبته من وجهة نظرهم، بل إنّ القول بالعامل واستلزام مقتضياته أدّى إلى أخطاء في وصف النحاة وتفسيرهم للغة، ويتجلى ذلك في أنّ القول بالعامل والتزام مقتضياته انتهى بالنحاة إلى تقديرات في البنية اللغوية لا وجود لها في الاستعمال اللغوي، وما كان ذلك ليكون لولا اضطرابهم إليه بسبب نظام العامل الذي يقتضي فيه كلّ معمول وأثر إعرابيّ عاملاً نحويّاً. (ينظر مصطفى، 1992)

ويعود ذلك كلّـه -من وجهة نظر الوصفيين- إلى أن التفكير النحوي التقليدي ركّيزته الانفصال بين قواعده ومادّته، ويعنون بذلك أنّ القاعدة في تفكير النحاة مبنية على اعتبارات عقلية لا علاقة لها بممتن اللغة ومادّتها. (ينظر أيوب، 1957) ويصف محمد عيد الفرق -من وجهة نظره- بين العامل النحوي والتفسير اللغوي الحديث للجملة بقوله:

فهذا هو الفهم اللغوي الحديث في مقابل العامل الذي أتعب النحاة والدارسين، وهو فهم طابعه الوصف لا قوانين العقل، إذ يعتمد على علاقات الكلمات في الجمل ووظائفها والدلالة عليها شكلياً، لا على أساس التأثير والتأثر!! إذ إن الأخير منبعه العقل والمنطق، أما الأول فأساسه عرف اللغة. (عيد، 2006، ص. 227)

نلاحظ، إذاً، أنّ ثمة مقدّمة يستبطنها الوصفيّون ملخصها أنّ قول النحاة بنظام العامل النحويّ أثّر من آثار التفكير الفلسفيّ المفروض على اللغة، وأنّه أدّى بالدراسة النحويّة إلى تعقيدات يجب أن تتخلّص منها الدراسة النحويّة؛ لكونها مخالفة للمنهج العلميّ الحديث في دراسة اللغة. ونتيجة لهذا الفضاء الوصفيّ الذي ساد الدراسة اللغويّة آنذاك نجد أنّ دعوة ابن مضاء في رفض العامل النحويّ أصبح لها حظوة وحضور في تلك المرحلة، فقد نُشِرَ كتابه "الرّد على النحاة" وكتب له شوقي ضيف تقديمًا يحتفي بما فيه من أفكار ورؤى تدعو إلى تحديد النحو والتخلّص من مظاهر تعقيده وصعوبته، ويعدّ كتاب ابن مضاء خطوة تصحيح تستحقّ الاحتفاء والإفادة من مضمونها. (ينظر ابن مضاء، د.ت، أ) ويلتقي الوصفيّون مع تلك الدعوة التي سبقتهم بقرون ليست بالقليلة ويتفقون معها في الموقف من نظام العامل ويلخصّون موقف علم اللغة الحديث من قول القدماء بالعامل النحويّ بأنّه انتهاء إلى القول بالتأثير والتأثر الذي يؤدّي إلى تحكيم الأفكار الدخيلة على دراسة اللغة، فالمنهج اللغوي الحديث يتلاقى مع دعوات سابقة في القديم كدعوة ابن مضاء في رفض العامل والعمل انطلاقاً من أنّ خصائص العمل والعامل لا يمكن أن تصدق على عوامل النحو. (ينظر عيد، 2006)

ونريد بعد هذا التطواف الموجز أنّ نفهم الدوافع التي كانت توجّه الوصفيّين العرب نحو نبذ نظام العامل والاحتراز منه، ولكي نصل إلى ذلك لابدّ أنّ نفهم النموذج اللسانيّ البنيويّ من جهة ظروف تكوّنه، وطبيعة تصوّره للمعرفة العلميّة والدراسة العلميّة للغة.

3. الظروف التاريخيّة المسهّمة في تكوين النموذج البنيويّ في دراسة اللغة

نلاحظ إذاً أنّ الموجّه الرئيس للمحدثين الذين رفضوا نظام العامل النحويّ هو النموذج اللسانيّ البنيويّ في تصوّره لطبيعة اللغة، ولطبيعة الحقيقة العلميّة. ونعتقد أنّ الوعي بهذا الأمر يجعلنا قادرين على فهم ذاك الواقع العلميّ، ثم مناقشته مناقشة علميّة تعيننا على المواصلة في بحث القضية واستكمال الطريق نحو فهم التراث والاقتراب من منطق الناظم لقضاياه.

يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنّ احتراز البنيويين في تصوّره للحقيقة العلميّة مرتبطٌ بخلفيّات الدراسة اللغويّة في الغرب، حيث إنّ اللغويّين في تلك الحقبة الغربيّة، أعني الحقبة التاريخيّة التي سبقت البنيويّة، كانوا يتصوّرون اللغة من حيث طبيعتها ظاهرةً طبيعيّة تناظر الكائنات الحيّة، فتكون بذلك خاضعة لقانون التطوّر ومحكومة به، أي: هي ظاهرة تتشكّل وفق قوانين محدّدة، وتخضع للتطوّر ثم الانقراض التدريجيّ. (ينظر الدخيل، 2021) وقد كان هذا الواقع العلميّ دافعاً للسانيّين آنذاك نحو مراجعة هذه الأقوال وتصحيح مسارها؛ فنجد أنّ دي سوسير (1916/1985) يعيد تحديد موضوع الدراسة اللغويّة بأنّها دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها. وهو تحديدٌ يريد من خلاله اللسانيّون تجاوز مظاهر القصور التي أدّت بالدرس اللغويّ التاريخيّ إلى نتائج غير مستندة إلى معطيات ملموسة؛ لأنّها تقول إلى معطيات الماضي غير

الممكن التحقق منها بالقدر الذي يجعل اختبارها لمعرفة قوتها التفسيرية أمراً عسير المنال. ويُضاف إلى ذلك أن ثمة خلطاً من وجهة نظر البنيويين في الدرس اللغوي التاريخي بين الدراسة الآنية والدراسة الزمانية، ويعنون بذلك تمييز دراسة الظاهرة في بعدها التاريخي لفترات تاريخية متباعدة بالقدر الذي يعطي الباحث التقاطات مختلفة للظاهرة ثم يقدم وصفاً لها رغم هذا التعدد التاريخي للظاهرة، في مقابل الدراسة الآنية التي تدرس اللغة الموصوفة في مرحلة معينة واحدة لا استناد فيها على معطيات لغوية تاريخية. نلاحظ إذاً أن الدراسة اللغوية مع البنيوية كانت تواجه إشكالية في نتائج الدرس اللغوي قبل ذلك من جهة الشك بنتائجها التي وصلت إليها دون معطيات ملموسة يمكن الاستدلال بها والاتكاء عليها؛ لأن الدراسة الزمانية تفتقر إلى المعطيات اللغوية التي تمكن الباحث من الاستناد إليها في الوصول إلى نتائجه، فليس من شأن تدخّل التاريخ والزمن -بحسب دي سوسير (1916/1985)- إلا أن ينحرفاً بأحكام الباحث عن الصواب، فمن العبث أن ترسم منظر جامع لسلسلة جبال الألب وأنت تنظر إليها في نفس الوقت من قمم متعدّدة، وقل مثل ذلك عن اللغة فإنك لا تستطيع أن تصفها وصفاً موضوعياً إلا إذا قصرت نظرك على حالة معينة من حالاتها.

ويُضاف إلى ذلك أن الدراسات اللغوية في العصور الوسطى في أوروبا كانت محلّ نقد ومراجعة من البنيويين أنفسهم؛ لأنها كانت ملتبسة بأفكار ومصطلحات فلسفية، ولم تراعي اختلاف اللغات في طبيعتها وأنظمتها نتيجة لتقليد لغوي مهيم في ثقافتهم. فقد عدّ اليونان نظام لغتهم الخاصة نموذجاً مُعمّماً على الفكر الإنساني، ثم تواصل هذا التقليد مع اللغويين مع الرومان حين بنوا قواعد اللغة اللاتينية وفق النموذج اليوناني. وبقي هذا التقليد مؤثراً في الدراسة اللغوية حتى مع عصر النهضة في أوروبا، فقد تزامن مع تلك المرحلة التي ظهرت فيها اكتشافات جغرافية جهوداً لغوية قام بها العلماء في تلك القوافل عن طبيعة لغات البلدان الجديدة، ولكنها جهود بقيت رهينة سياق علمائها آنذاك المحكومين بنظام اللغة اللاتينية ونظامها (ينظر Bloomfield 1973؛ العمري 2012)، فكان ذلك مظهرًا آخر من مظاهر الرغبة الغربية في تجاوز هذا المزلق المعرفي. ومن هنا، تكوّنت الظروف التاريخية في أوروبا لنزعتهم نحو نموذج علمي يمكنهم من تجاوز مزالق الدراسة اللغوية السابقة وأخطائها، وتتجسّد هذه النزعة نحو تحقيق (الموضوعية) في بناء النسق النظري لأي لغة يريد الباحث دراستها، والابتعاد عن التأمّلات الذاتية والفروض غير المدعومة بمعطيات تؤيّدتها وتدعمها. ولذلك سعى البنيويون نحو إحداث قطيعة مع الدرس اللغوي التقليدي لتجاوز الأخطاء السابقة، وللتخلّص من مرحلة القوميات التي سادت في القرن التاسع عشر وما تركته من آثار في الدرس اللغوي (دي سوسير 1916/1985؛ الدخيل 2021)، ويعني ذلك أن السياق الأوروبي كان يعيش آنذاك في علاقة غير مثالية مع ماضيه المعرفي. ويلخص العمري هذا السياق بقوله:

كانت الرغبة ملحةً هناك في بداية مرحلة جديدة تميّزت بالرغبة في تشييد الصروح العلمية، وذلك ضمن مشروع أوروبي ضخم أسهم فيه العلماء من كلّ التخصصات، واتّسم بالتطلّع إلى القيام بثورات كبرى تأتي على الموروث

إلا ما كان يخدم هذا الهدف؛ فشاهدنا ثورات عميقة في علوم ظلت تلوك أفكار النهضة. حدث ذلك في الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات وفي المنطق وعلوم اللغة وعلوم المجتمع وعلم النفس وغيرها. (العمرى، 2012، ص. 85-86)

نسوق هذه المعطيات التي حكمت المشهد اللغوي في الغرب آنذاك لتكون رافداً مهماً في فهم طبيعة النموذج العلمي البنيوي من جهة تصوّره لطبيعة اللغة من جهة، وطبيعة الحقيقة العلمية من جهة أخرى، أعني أنّ استحضار هذا السياق سيكون معطى مهماً لفهم الأسباب التي دعت البنيويين إلى نبذ القضايا غير المستندة إلى معطيات ملموسة خارج حدود الدرس اللساني، أي: أعاد اللسانيون ضبط موضوع العلم؛ فأصبح البحث في قضية من قبيل: نشأة اللغة بحثاً في قضية تقع خارج حدود موضوع اللسانيات؛ لأنّ الباحث فيها لا يتوقّر على معطيات ملموسة توجهه نحو هذه النتيجة أو تلك. تكون الحقيقة العلمية، إذًا، في نظر البنيويين كامنّة في معطيات الواقع اللغوي نفسه مع قطع الصلة بكلّ ما هو خارج عن وقائعها المادّية حتى لا نخرم شرط (الموضوعيّة) التي يريد البنيويون الالتزام بها، فإذا أردنا دراسة اللغة فعلياً أن نكتفي بوصف ظواهرها كما ندركها. (ينظر الدخيل، 2021) وبذلك أصبحت كل القضايا التفسيرية التي يمكن أن يستند إليها في كشف أنساق اللغة ومظاهر انتظامها، من قبيل: التقدير، والتأويل، والحذف ونحوها أموراً واقعة خارج موضوع العلم.

4. العلاقة بين الواقع المدروس والنظرية المُفسّرة في ضوء فلسفة العلم

بعد هذا البيان لخلفيات تصوّر البنيوي، ثم الوقوف على تصوّره لطبيعة الحقيقة العلمية وطبيعة اللغة كذلك التي كشفت لنا أنّه تصوّر لا يقيم فصلاً بين عالمي الواقع والنظرية، وأعني بذلك أنّ الحقيقتين؛ الأنطولوجية والإستمولوجية ممتزجتان بالقدر الذي يجعل الباحث يرصد ما يجده في عالم الظاهرة ويبحث عنه في عالم النظرية. وما دما في حقل المعرفة العلمية القائم على التطوّر مع اختلاف في تفسير هذا التطوّر بين تصوّرين؛ التراكم، والثورية، وليس هذا موضع التوسّع في ماهيّتهما، وأدلة كل فريق منهما، (ينظر الدخيل، 2021) فإنّ ركنًا رئيسًا من غايات هذه الورقة يتمثّل في إظهار هذا التحوّل في فلسفة العلم في فهم العلاقة بين عالمي الظاهرة والنظرية.

حين تظهر، إذًا، في الاتجاه البنيوي دعوة تؤوّل إلى المماثلة بين عالم الظاهرة وعالم النظرية الواصفة فإنّ هذا يجعلنا نُفكّر ابتداءً في مدى سلامة هذا التصوّر إستمولوجيًا من عدمه، بالنظر في سمات النموذج العلمي وعلاقته بالعالم الخارجي أو بالظاهرة التي يريد أو يحاول تقديم تفسير ملائم له.

وإنّا حين نشير إلى ضرورة الانتباه إلى السياق الذي نشأت فيه الأنساق المعرفية الغربية عند ربطها بثقافة أخرى للإفادة منها فإنّا لا ندعو إلى أمر توجّهه الرغبة الذاتية أو العاطفة المحضة، بل هي دعوة لها صوت داخل العلم نفسه؛ لأنّ الأنساق وليدة ظروفها وسياقاتها التاريخية؛ فكان ذلك داعيًا إلى الوعي بتلك الحقيقة حتّى يأخذ الباحث باستلزاماتها،

فالعلم ووظيفته مرتبطان بالتصورات الحضارية والثقافية المختلفة عن العالم، فالعلم الحديث علمٌ من منظور غربي؛ ولذلك جاءت نتائجه تعبيراً عن تصورات ذاك الفكر وظروفه. ولكن هذا التصور ليس هو التصور الوحيد للعلم ووظيفته، فالحضارات الأخرى غير الغربية في مراحلها القديمة كانت لها تصورات مختلفة عن العلم ووظيفته. وليست الفكرة الخطأ من قدر العلم الحديث، أو الانحياز إلى حضارة دون حضارة، بل حقق العلم الحديث نجاحات غير مسبقة، وقدم خدمات للإنسانية معلومة. ولكنها دعوة إلى الارتكاز على فكرة التعددية الثقافية والحضارية (ينظر أبو زيد، 2008)، وهي دعوة لها دلائل تتجسد في سيروية العلم نفسه، ومن العلماء أنفسهم، ولا سيما في حقل العلوم الإنسانية، حيث يرى كثيرٌ من العلماء أنّ ذاك الحقل في الغرب يواجه مشكلات منهجية ونظرية مرتبطة بطبيعة موضوع العلوم الإنسانية من جهة وبالمؤثرات الفلسفية والإيديولوجية التي رافقت تلك العلوم ومسيرتها التاريخية؛ لأنّ تلك الفلسفات والإيديولوجيات التي صبغت العلوم الإنسانية بصبغتها هي النتاج الفكري والفلسفي الذي تمخّض عن قرون من الصراع بين الفكر اللاهوتي الكنسي والفكر المتحرّر. ولذلك لابدّ إذاً من ضرورة تبديد وهم الصدق المطلق للعلم والمنهج العلمي -في صورته المتجسّدة داخل النسق العلمي-؛ لأنّ العلم في الصورة التي وصلتنا اليوم ليست إلا واحدة بين تصورات ممكنة للعلم، وهذه الصورة التي وصلتنا ليست غير نتاج لأوضاع تاريخية بعينها تتصل بالظروف التي أحاطت في أوروبا بنشأة العلم وتطوّره، فينبغي أن ننظر إلى العلم في صورته المعروفة لنا اليوم على أنّه أحد مراحل عملية مستمرة من التطور. (ينظر قلامين، 2018)

وننظر، الآن بعد أن بيّنا النزعة البنيوية، نحو الموضوعية في وصف الظاهرة المدروسة في طبيعة العلاقة بين الظاهرة والنظرية المفسّرة لها، فقد ذهب جورج بيركلي إلى «أنّ علومنا هي ما تصوّره لنا حواسنا ومداركنا القاصرة، وأنّ حقيقة العالم الخارجي ليس بمقدورنا إدراكها، ولا معرفتها معرفة اليقين». (سعيدان، 1988، ص. 28) ولئن كان الشكّ فيما تمثّلنا الحواس به من معارف مُسلّمًا به فإنّ ديكارت قد ذهب في مذهبه الشكّي إلى هذه النتيجة، وحصر اليقين في رياضيات إقليدس؛ لأنّها عقلية محضة، والفكر لا يجري عليه ما يجري على الحواس الإنسانية من تقصير. ولم يدم هذا اليقين طويلاً، فقد ظهر في القرن التاسع عشر ما يضع رياضيات إقليدس ضمن العلوم المتضمّنة حقائق نسبية.

والقول بهذه النسبية وبهذا الاقتراب دون الملامسة والمطابقة التامة بين النظرية المفسّرة والظاهرة المدروسة هو الذي يتّسق مع منطق التطور الذي يمثّل جوهر العلم والمعرفة، فالقول بمطابقة النظرية للواقع قولٌ يتضمّن في لوازمه موت العلم وانتهاء أدواره تجاه ذلك الواقع الذي قدّم فيه إسهامه، وهذا ادّعاء يهرب عنه كلّ أحد في حقل العلم. فيمكن القول نتيجة لذلك «إنّ علومنا إنّما تعطي نماذج للعالم الخارجي، والنموذج ليس هو الأصل. ولكنّه يشبه الأصل: فيه ما فيه، وفيه ما ليس فيه. وهكذا إذاً معارفنا العلمية؛ إنّها نماذج، والنموذج يتغيّر كلّما ازدادت معلوماتنا فيصبح أفضل تمثيلاً للأصل». (سعيدان، 1988، ص. 30) ولذلك أصبح سؤال مطابقة النموذج العلمي للواقع أو للظاهرة سؤالاً لا معنى

له ولا وجود في فلسفة العلم؛ لأنّه أصبح من المسلّم به أنّ غاية العلم تقريب نماذجه من الحقيقة على الدوام. بناء على ذلك يكون السؤال المشروع هو: هل ينطوي النموذج على صفات النموذج العلمي من اتساق وقدرة تفسيرية وشمول وبساطة؟

ونريد القضية توضيحًا بتأمل المسألة رغبة في كشفها وبيانها وذلك بالتفكير في محتوى هذه الأداة التحليلية، أعني النظرية المفسّرة، التي تُعيننا على تمثّل نوع العلاقة بين طرفيها وفهمها إذا تأملنا في المصطلح الذي يعبر عن النسق النظري لأي ظاهرة فنجد هذا المعنى، أعني علاقة التقارب لا التطابق بين النسق والظاهرة، مُخزّنًا في دلالاته، حيث إنّ (Model) التي تترجم كثيرًا بـ(نموذج)، أو (منوال) كما ذهب إلى ذلك عزّ الدين المجدوب، والذي يهتّمنا في هذا السياق أن نتعرّف على المحتوى الدلالي الذي يُعبر عنه هذا المصطلح، فقد ذكر ملتشوك (2016/2023) أنّ النماذج تؤدي دورًا مهمًا في جميع العلوم، فإذا كان الباحث لا يمكنه، لأيّ سبب من الأسباب، أن يرصد رصدًا مباشرًا البنية الداخلية للكيان أو الظاهرة التي يتفحصها (كما هي الحال في اللغة البشرية، إذ لا يمكن رصدها بشكل مباشر) فإنّه يلجأ إلى نموذج لهذه الظاهرة. فيقوم من خلال دراسته لسلوك الظاهرة من الخارج ببناء نموذج للظاهرة محاولًا الحصول على أكبر قدر من التشابه بين سلوك الظاهرة وسلوك النموذج. فالعلم بمعنى من المعاني ليس إلا بناء للنماذج، وليست اللسانيات في هذا الصدد مختلفة عن العلوم الأخرى؛ فكلّ لسان طبيعي نظام معقّد جدًّا من القواعد المشقّرة في أدمغة متحدثيها. وللحصول على فهم أفضل لما نتحدّث عنه (يعني دلالة النموذج)، نحتاج إلى حلّ اللبس والغموض المتأصل في الاسم (نموذج). وقد قدّم ملتشوك إضافته بالإشارة إلى أنّ هنالك ثلاثة معانٍ لكلمة نموذج تتصل بما نريده هاهنا، يمكن توضيحها من خلال الأقوال التالية:

- نموذج الرسام هو زوجته.
- نموذج ورقي للطائرة.
- نموذج بور-رودرفورد للذرة.

إنّ هذه الاستعمالات للاسم (نموذج) تنطبق كلها على الوضعية ذاتها، بوجود كيانيين (س) و (ص)، وأحدهما، ولنقل إنّه (س)، قد أنشأه شخص عن غير قصد على نحو يجعله يمتلك بعضًا من خصائص (ص) المهمة في سياق معيّن. وهذان الكيانان فيما دُكر من مقامات في الأمثلة الموجودة هما: الرسمة س (= التصويرة) التي تعرض شخصًا معيّنًا ص، والدمية س المشابهة للطائرة ص، والمعادلات الرياضية س الواصفة للذرة ص. فنرى هنا علاقة ثنائية غير تناظرية: (هو نموذج لكذا). ولتدقيق فكرة كون الشيء نموذجًا نحتاج إلى التفسيرات الثلاثة الآتية التي بيّنها ملتشوك (ص.75):

أولاً: دعونا نتميز بين معنيين أساسيين يستعمل بهما مصطلح (النموذج)، فيقصد بـ(النموذج) في مثال الرسام الكيان المعين الذي هو ص (والذي يكون في الواقع شخصاً أو حيواناً أليفاً)، في حين أنّ ما ينشئه الرسام أو ص هو الرسمة الممثلة لـ ص. أما نموذج الطائرة ونموذج الذرة فيمثّلان علاقة معاكسة، فـ ص هو الكيان المعين الذي تُراد نمذجته، في حين أنّ (النموذج) يطلق على الكيان س، أي: التمثيل المصنوع لـ ص.

ثانياً: تمعن في تعبير من شاكلة (س نموذج لـ ص). فيمكن للمرء أن يرى الفرق المهم التالي بين المثالين المذكورين أعلاه لتحققاته المحتملة: فنموذج الطائرة شيء مادي، في حين أنّ نموذج بوهر-رودرفورد للذرة هو مجموعة من التعبيرات الرمزية؛ فيتعين علينا إذاً التمييز بين النماذج الملموسة (الفيزيائية)، والنماذج الرمزية (المجرّدة).

ثالثاً: يذكر نموذج الطائرة المرء بالطائرة، على الأقلّ في شكلها المنظور، ومثل هذا النموذج يسمّى (نموذجاً بنيوياً). فالنموذج البنيوي لـ ص يوضع بناء على الرصد المباشر لبنية ص بقياس مكونات ص واستنساخها. ولكن نموذج بور-رودرفورد للذرة لا يشبه الذرة على الإطلاق، بل يمثّل سلوكها أو اشتغالها الوظيفي فحسب؛ فهو نموذج وظيفي.

يكون النموذج، إذاً، مُستقراً في عالم إستمولوجي؛ للوصول إلى وصف العالم الأنطولوجي وفهمه مع الاعتراف بالتعدّد في دلالات النموذج واستعمالاته بين المجالين الأنطولوجي والإستمولوجي غير أنّ جميع الدلالات تعترف بوجود علاقة تناظرية بين المجالين؛ فيمكن أن يكون الكيان الفعلي هو النموذج؛ لأن الذات الموجهة تريد أن تجعل تصوير الكيانات الحقيقية هي العالم الأنطولوجي المدروس.

ونعود في سياق التدليل على وهم المماثلة بين الحقيقة الأنطولوجية والحقيقة الإستمولوجية إلى مبدأ السببية أو العلّية الذي قد يُفهم منه أنّه مبدأ تخلّت عنه فلسفة العلم، والصحيح أنّه مبدأ تجددت دلالاته بعد أن تجاوز التصوّر التقليدي الذي يجعله مكافئاً لفكرة الإيجاد والخلق. وكما هو معلوم أحدث مبدأ (اللايقين) الذي وضعه الفيزيائي (هايزنبرج) إرباكاً في القول بالاحتمية الناشئ عن التسليم بمبدأ السببية، ولكنّ فلاسفة العلم أعادوا النظر في هذا المبدأ ولهم مذاهب شتى في الموقف منه، فقد ذهب (ديوي) إلى أنّ السببية وسيلة منطقية وظيفية تكتسب قيمتها من حيث كونها هي أداة، وليست أمراً قائماً في الوجود الخارجي. ويعني ذلك أنّ المبدأ طريقة لوصف الواقع، فهو محدّد بحدود الملاحظة الإنسانية، ولا يؤكّد شيئاً خارج حدود الملاحظة، فالقول بهذا المبدأ هو قول يتعلّق بالمنهج، وليس العلم بحاجة إلى حتمية أنطولوجية يثبتها أو يدحضها. وفي ضوء هذا التصوّر ميّز (ماكس بلانك) بين أمرين: عالم الحسّ من جهة، وصورة العالم الفيزيائية من جهة أخرى، فصورة العالم الفيزيائية بناءً نظريّ تصوّريّ، وأي نتيجة تقول إلى القول باختيار مبدأ الحتمية إنّما هي مؤسسة على خلط بين صورة العالم الفيزيائية وعالم الحسّ. وبناء على ذلك تكون الحقيقة العلمية ليست هي الواقع، بل ما يقرّره العلماء عن هذا الواقع، وبذلك لا يمكن أن نتصوّر أنّها موجودة في مكان ما وعليها أن نعثر عليها، بل هي أقرب إلى أن تكون مثلاً ينشده العلماء. (ينظر قنصوه، 2008)

نلاحظ، إذًا، أنَّ العلم في داخله قد أحدث مراجعة لمفهوم الحقيقة العلمية، وميّز بين مجالين ينبغي الحذر من الخلط بينهما حتى يبقى مفهوم العلم وطبيعته المبني على التطور متسقًا مع طبيعة الحقيقة العلمية. وإذا تأقنا هذه المراجعة ألفيناها تجاوزًا للتصور البنيوي الذي أشرنا إليه آنفًا، وكان ذلك دافعًا لنا نحو مراجعة أقوال استندت إلى تلك التصورات وكانت لصيقة بالعامل النحوي، في صورته التي قدّمها نحاة العربية. فتريد إذًا أن نعود إلى التراث النحوي باحثين عن حقيقة تصوّرهم للعامل النحوي الذي جعلوه نظامًا يُفسّر تراكيبها المختلفة، ومحاولين تقديم تفسير للعلاقة بين قواعدهم من جهة واللغة نفسها من جهة أخرى.

5. تصوّر النحاة للعلاقة بين اللغة المدروسة ونظريّتهم التفسيرية

نريد أن نحدّد مجال البحث في هذا القسم بالكشف عن تصوّر النحاة للعلاقة بين اللغة بوصفها ظاهرة مستعملة والنظام التفسيري لها مُمثلاً بنظام العامل؛ لنختبر كفاية هذا النظام انطلاقًا من النقد الموجّه إليه الذي أشرنا إليه في القسم الأول من الدراسة. وأما التوسّع في نظام العامل والنظر في مدى كفايته في وصف بنية العربية ووظيفتها فتلك غاية خارج حدود موضوع الدراسة، وقد قدّمت فيه إضافات جادة في الدرس اللساني الحديث. (ينظر Owens، 2000)

وإذا أردنا أن نفهم تصوّر النحاة للعلاقة بين النظرية (=قواعد النحاة وتعليقاتهم) والظاهرة (=الظاهرة اللغوية) فلا بُدّ من استدعاء نصٍّ أورده الزجاجي، إذ قال:

وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد -رحمه الله- سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، ف قيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمسست، وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم داخل دارًا محكمة البناء وقد صحت عنده حكمة بانيها، بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكان كلما وقف في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا لعلّة كذا وكذا ولسبب كذا وكذا. سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته فليأت بها. (الزجاجي، ت. 340 هـ، ط. 1982، ص 65-66)

حيث تبدو دلالة قول الخليل واضحة في طبيعة النظام التفسيري الذي قال به النحاة من جهة انفصاليه عن الواقع الحقيقي وانتمائه إلى واقع يفترضه النحوي ليضفي على ظواهر اللغة انتظامًا واطرادًا معيّنًا؛ لنكون أمام احتمالين جائزين في هذه العملية التفسيرية: مطابقة التفسير للظاهرة، وعدم مطابقتها إيّاها. وتبدو قيمة هذا التصوّر المبكر في كونه يفتح المجال لكلّ اجتهاد يروم تفسير نظام اللغة بالقدر الذي يعطي مشروعية التراكم المعرفي واستمرار تقدّم المعرفة العلمية.

وإذا انتقلنا من الفضاء التنظيري العام الذي وجدناه مع الخليل إلى تطبيقات هذا التنظير من خلال معالجات النحاة لظواهر اللغة وتفسيرها نجد أنّ سيوييه (ت. 180هـ، د.ت) يستوعب في جانب التطبيق هذه الفروقات بين النظرية والاستعمال، من ذلك قوله: «هذا باب ما يعمل عمل الفعل، ولم يجر مجرى الفعل، ولم يتمكن تمكّنه، وذلك قولك: ما أحسن عبد الله. زعم الخليل أنّه بمنزلة قولك: شيء أحسن عبد الله، ودخله معنى التعجب. وهذا تمثيل ولم يُتكلّم به» (72/1).

وقال أبو سعيد السيرافي مبدّداً الوهم الذي قد يقع في فهم مصطلحات النحاة التي تحمل مدلولات في الواقع الفعلية مختلفة عن المدلولات التي يقصدها النحاة في عالمهم النظري:

واعلم أنّ قولنا: فاعل وفعل، ليس المقصد فيه إلى أن يكون الفاعل مخترعاً للفعل على حقيقته، وإنّما يقصد في ذلك اللفظ الذي لبّناه فعلاً في أول الكتاب الدال بصيغته على الأزمنة المختلفة متى ما بنيناه لاسم ورفعناه به، سواء كان مخترعاً له أو غير مخترع رفعناه به وسمّيناه فاعلاً من طريق النحو، لا على حقيقة الفعل، ألا ترى أنّنا نقول: مات زيد، ولم يفعل موتاً، ونقول من طريق النحو: (مات) فعل ماضٍ، و(زيد) فاعله، وطلعت الشمس، وانتصبت الخشبة، ونظف ثوبك، وما أشبه ذلك من الأفعال التي لا تخصي. (السيرافي، ت. 368هـ، ط. 2008، 266/2)

وذهب ابن يعيش في المسار نفسه لرفع اللبس وإيضاح المقصد من خلال حدّ الفاعل إذ قال:

واعلم أن الفاعل في عُرف النحويين: كل اسمٍ ذكرته بعد فعل، وأسندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم. ولذلك كان في الإيجاب والنفي سواء. ثم قال: ليس من شرط الفاعل أن يكون موجداً للفعل، أو مؤثراً فيه (...). وفي الجملة الفاعل في عُرف أهل هذه الصنعة أمر لفظي، يدلُّ على ذلك تسميتهم إياه فاعلاً في الصور المختلفة من النفي، والإيجاب، والمستقبل، والاستفهام، ما دام مُقدّماً عليه، وذلك نحو: قام زيد، وسيقوم زيد، وهل يقوم زيد؟ و(زيد) في جميع هذه الصور فاعل، من حيث إنّ الفعل مسند إليه، ومقدّم عليه، سواء فعل أو لم يفعل. ويؤيد إعراضهم عن المعنى عندك وضوحاً أنّك لو قدّمت الفاعل، فقلت: زيد قام، لم يبقَ عندك فاعلاً، وإنّما يكون مبتدأ وخبراً معروضاً للعوامل اللفظية. (ابن يعيش، ت. 643هـ، ط. 2014، 189/1-190)

ويمعن ابن يعيش في تقصّي الفروقات بين عالمي الواقع والنظرية، وتبديد الوهم الذي قد يقع بالانزلاق في الخلط بين هذين العالمين، إذ قال في الرتبة بين الفاعل (المعمول) والفعل (العامل):

اعلم أنّ القياس في الفعل من حيث هو حركة الفاعل في الأصل أن يكون بعد الفاعل؛ لأنّ وجوده قبل وجود فعله، لكنّه عرض للفعل أن كان عاملاً في الفاعل والمفعول؛ لتعلّقهما به، واقتضائه إياهما، وكانت مرتبة العامل قبل المعمول، فُقِدَ الفعل عليهما لذلك، وكان العلمُ باستحقاق تقدّم الفاعل على فعله من حيث هو موجوده ثانيّاً، فأغنى أمن اللبس فيه عن وضع اللفظ عليه؛ فلذلك قُدّم الفعل، وكان الفاعل لازماً له، يتنزّل منزلة الجزء منه. (ابن يعيش، 2014، 192/1)

يتبيّن إذاً أنّ التنظير النحويّ، في تصوّر النحاة، نظامٌ ذهنيٌّ لا وجود له إلّا في عقول الناطقين باللغة؛ ولذلك أصبحت اجتهادات النحاة وآراؤهم مقارباتٍ لتلك الحقيقة الذهنيّة، وإتّما هي مقاربات لكونها نابعة من الاختلاف بين موضوع البحث ومادّته، أي: بين النظام اللغويّ واللغة نفسها، فهي عبور من المحسوس (الكلام) للوصول إلى المعقول (النظام). (ينظر جواد، 2007) وإذا استوعبنا هذه الحقيقة، أعني إدراك النحاة للفصل بين مستويي النظريّة والاستعمال، بدت لنا كثير من مظاهر التفسير للنظام اللغويّ معقولةً رغم ما قد يبدو لغير المتأمل والمدقّق فيها من اعتساف وتشويه للغة، ونلاحظ هذا جليّاً في عبارات النحاة التي أوردناها آنفاً:

- تمثيل ولم يتكلم به.
- سميناه فاعلا من طريق النحو لا على حقيقة الفعل.
- في عُرف النحويين.
- في عرف أهل هذه الصنعة.

وما تركناه من النصوص أكثر مما استشهدت به، وأعرضنا عنها خشية إثقال البحث بها، وفي ما أُورد كفاية في التعبير عن المقصد. نلاحظ إذاً أنّ التمييز بين العالمين الأنطولوجي (اللغة في بُعدها الحقيقيّ) والإستمولوجي (نظام اللغة في تصوّرات النحاة التفسيرية) كان حاضراً عند النحاة، وتكون بذلك تقديرات النحاة وتصوراتهم التفسيرية نظاماً ذهنيّاً لا يتعدّاه إلى القول بوجودها حقيقة في التركيب؛ لأنّ ذلك مؤدّ إلى الإخلال بدلالة التركيب، فالنحاة يُفرّقون بين الشكل الظاهر للتركيب الذي يحمل دلالة ووظيفة محدّدة، والحاجة إلى إظهار مُقوّمات النظام التي كانت وراء إنتاجه وأتساقه وانتظامه. فهذه التمثيلات المصطنعة التي يفترضها النحاة أداة تحليليّة عندهم يسوقونها ويوظّفونها لوضع ما يبدو مشتمّاً وغير منتظم من الكلام في أنساق ذهنيّة مثاليّة تمكّنهم من معرفة أحكام النظام الجارية في الكلام؛ فهم إذاً على وعي تامّ بالفصل بين اللغة بوصفها مادة حقيقية مستعملة في التواصل والتحليل اللغوي لهذه اللغة لإعادة بناء نظامه. (ينظر جواد، 2007)

ويشير الشاطبيّ (ت. 790هـ، ط. 2007) إلى حقيقة العامل بين المجالين الأنطولوجي والإستمولوجي حين أكّد أنّ الأثر الإعرابيّ يكون موجوداً مع وجود العامل ويكون معدوماً مع عدمه؛ فالعامل كالسبب في الأثر الإعرابي. ثم يؤكّد

أنّ السبب في الحقيقة هو المتكلم، وإنّما نُسب العمل للألفاظ اصطلاحاً لا أنّ النحاة يدعون عمل العوامل حقيقة، ويعني بذلك أنّ العمل يكون للعامل لا في الحقيقة، بل في اصطلاح أهل هذه الصناعة لضبط القوانين. ثمّ يختص الشاطبيّ بتمييزه البديع برده على ابن مضاء وبيان زيف منطقاته فقال:

وإنّما بسطت القول فيه؛ لأنّ ابن مضاء ممن ينسب إلى النحو قد شنع على النحويين في هذا المعنى أخذاً بظاهر اللفظ من غير تحقيق مرادهم فنسبهم إلى القول على العرب، وإلى الكذب في نسبة العمل إلى الألفاظ، بل نسبهم إلى مذهب الاعتزال والخروج عن السنة وظلمهم - عفا الله عنه - إذ لم يعرف ما قصدوه. (الشاطبي، 2007، 620/1)

ويكشف تعامل النحاة مع فكرة العامل وتصوّره للعلاقة بين العامل النحوي واللغة بوصفها ظاهرة حقيقية يتواصل بواسطتها الناس - أنّهم يرومون تحقيق شرط الاقتصاد في التفسير العلمي الذي يعبر عن علاقة اقتران بين السبب والنتيجة، مع الوعي عندهم بأنّ تفسير الشيء مختلفٌ عن ذاته؛ فتفسير رفع الفاعل بتأثيره بفعل قبله لا يعني الإحداث الطبعي والحقيقي لعلامة الرفع، ولكنّه يعني الإحداث الصناعي الذي يُفسّر اطراد رفع الفاعل باطراد وجود فعل قبله. (ينظر الملخ، 2001) ويتبيّن إذاً أنّ القدماء كانوا ينطلقون في تعييدهم من منطق واعٍ بهذا التمييز، نعي بذلك أنّهم يجعلون (علم النحو) عالماً نظرياً مستقلاً عن عالم اللغة نفسها، فلا يستقيم - من وجهة نظر النحاة - أن نبحت في عالم اللغة المدروسة عن تحقّقاتٍ لما نذكره ونقدّره ونفترضه في عالم النظرية؛ لأنّهما ينتميان إلى عالمين مختلفين لا يصحّ - منهجياً - أن نخلط بينهما في العمل العلمي. كما أنّ الوصف العلمي لا يمكن أن ينهض متماسكاً وذا قوّة تفسيرية باكتفائه بالجانب الملموس من اللغة؛ لأنّ واقع اللغة وحده يتعدّد معه أن نقدّم فيه نظرية تفسيرية متينة ومقتصدة، فالظواهر لا بدّ لها من تجريد عقليّ يلمّ شتات ما قد يبدو فوضي لا نظام له، وهذا التجريد الذي نستوعب به تعدّد الظاهرة المدروسة وتمائلها الملبس - إذا اكتفينا به - لا يمكن أن يكون ممثلاً للظاهرة في صورتها المنجزة أو مكافئاً لها، بل هو نموذج تفسيريّ كما أسلفنا.

6. الخاتمة

نختم الدراسة بمحوصلة أهم ما وصلت إليه، فقد كان المبادئ البنيوية التي سادت البحث اللغويّ العربيّ في النصف الأول من القرن العشرين فضاء رحباً لنبد كثير من المفاهيم التي قام عليها النحو العربي. وقد كان ذلك مدفوعاً بأمرين: الأول: نزعة النموذج البنيويّ نحو المعطيات المادية الملموسة ورفض المظاهر التفسيرية المتكئة على التقدير والافتراض.

الثاني: تأكيد استقلال الدراسة اللغوية وتخليصها من أية أفكار خارجة عنها.

وكان العامل النحوي أحد المفاهيم التي تعرضت إلى المراجعة والنقد تحت تأثير هذه الدوافع بحكم طبيعته المجردة المفتقرة إلى كثير من مظاهر: الحذف، والتقدير، والافتراض ونحوها.

وانتهت الدراسة إلى أنّ ثمة تمييزاً في فلسفة العلم يجب الانتباه إليه والالتزام بمقتضياته، حيث إنّ الفصل بين عالمي الواقع والنظرية حتمية نظرية لا يمكن أن نؤمن بتراكمية المعرفة العلمية واستمرار تقدّمها وتعدّدها إلا بالتسليم بها. فلا يمكن أن نعتقد المرجح بين العالمين ثم نتوخّى تقدّم المعارف وتقدّمها، فإذا كانت النظرية هي الواقع نفسه وبحثنا عن التطابق بينهما فإنّ المعرفة العلمية قد اكتملت وتوقّفت. ونذهب في مقابل ذلك إلى تصوّر يسمح بتقدّم المعارف وتراكمها، ويتحقّق ذلك إذا فصلنا بين عالمي الواقع والنظرية، فلا يمكن لنا أن ندرك العالم الخارجي، أو الظواهر في حقيقتها، وإنّما المعرفة هي ما ندركه وما نعرفه عن هذا العالم أو هذه الظاهرة. وتعبّر عن هذا التصوّر للمعرفة العلمية المفاهيم نفسها المستعملة داخل الحقل الإستمولوجي، ويكفي أن نتدبّر مدلول كلمة (Model) لندرك هذه الحقيقة لنفهم أنّ النماذج التفسيرية تنتمي إلى العالم الإستمولوجي المفضي إلى فهم الوقائع والظواهر في عالمها الأنطولوجي. وأفضت هذه التحوّلات التصورية لطبيعة الحقيقة العلمية إلى مراجعة لمبدأ السببية، حيث أصبحت السببية وسيلة منطقية وظيفية تكتسب قيمتها من حيث كونها هي أداة، وليست أمراً قائماً في الوجود الخارجي.

وإذا تدبّرنا نصوص النحاة وتحليلاتهم وقفنا على حقيقة جلية تؤكّد أنّهم بنوا نظريتهم التفسيرية القائمة على نظام العامل النحوي بوصفها نظاماً تفسيرياً لا يعكس واقع اللغة بالضرورة. فإذا كان الوصفيون وجهوا نقدهم للعامل النحوي بوصفه نظاماً مقحماً في اللغة ومشوّهاً لواقعها وحقيقتها فإنّ هذا النقد أصبح مدفوعاً بالتمييز بين عالمي الواقع والنظرية. وننتهي إلى أنّ الوصفيين قد بنوا نقدهم على مقدّمات لم تفهم منطق النحاة في بناء نظامهم التفسيري؛ لأنّ نصوص النحاة تفيض بالتمييز بين العامل النحوي بوصفه نظاماً تفسيرياً واللغة بوصفها ظاهرة يتواصل بها مستعملوها، ولكلّ مستوى منهما طبيعته وسماته الخاصة. فلئن كانت اللغة في حقيقتها الاستعمالية تنزع نحو الوضوح والسهولة تحقيقاً لغايتها التواصلية فإنّ النظام التفسيري الذي يجسّده في بحثنا نظام العامل النحوي كما تصوّره النحاة ينزع نحو تحقيق الاتّساق والاقتصاد في صياغة القواعد مع وعي النحاة بأنّ تفسير الشيء مختلف عن ذاته. ويكون بذلك علم النحو عالماً نظرياً مستقلاً ومختلفاً عن عالم اللغة نفسها، ولا يمكن أن تقوم قواعد اللغة ونظامها على معطياتها الملاحظة وحدها، فالوصف العلمي يقتضي أن تستدل بما ذكّر من الظاهرة على ما هو مجرد في النظام حتى يحقّق الوصف كفايته التفسيرية.

مراجع البحث

- أيوب، عبد الرحمن. (1957). *دراسات نقدية في النحو العربي* (ط1). مؤسسة الصباح، الكويت.
بشر، كمال. (2005). *التفكير اللغوي بين القديم والجديد* (ط1). دار غريب، القاهرة.

- الجرجاني، عبد القاهر. (ت. 471هـ، ط. 1982). *المقتصد في شرح الإيضاح* (ط1) (كاظم المرجان، تحقيق.). منشورات وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (ت. 392هـ، ط. 1986). *الخصائص* (ط3) (محمد النجار، تحقيق.). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جواد، علاء عمار. (2007). *التمثيل النحوي في كتاب سيبويه* [رسالة ماجستير، جامعة القادسية]، محافظة القادسية، العراق.
- حسان، تمام. (1986). *مناهج البحث في اللغة* (ط1). دار الثقافة، الدار البيضاء.
- الدخيل، معاذ. (2021). *تطور النموذج العلمي اللساني: قراءة في الاتجاه البنوي والتوليدي والوظيفي*. مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، 29، (3)، 308-282.
- https://marz.kau.edu.sa/Files/320/Researches/73876_47048.pdf
- دي سوسير، فرديناند. (1985). *دروس في الألسنية العامة* (صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، ترجمة.). الدار العربية للكتاب. (العمل الأصلي نشر 1916)
- الزجاجي، أبو القاسم. (ت. 340هـ، ط. 1982). *الإيضاح في علل النحو* (ط4) (مازن المبارك، تحقيق.). دار النفائس، بيروت.
- أبو زيد، سمير. (2008). *العلم وشروط النهضة: التصورات العلمية الجديدة والتأسيس العلمي للنهضة العربية* (ط1). مكتبة مدبولي، القاهرة.
- سعيدان، أحمد سليم. (1988). *مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام* (ط1). عالم المعرفة، الكويت.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. (ت. 180هـ، د.ت.). *كتاب سيبويه* (ط1) (عبد السلام هارون، تحقيق.). دار الجيل، بيروت.
- السيرافي، أبو سعيد. (ت. 368هـ، ط. 2008). *شرح كتاب سيبويه* (ط2) (رمضان عبد التواب وآخرون، تحقيق.). دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.
- الشاطبي، أبو إسحاق. (ت. 790هـ، ط. 2007). *المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية* (ط1) (عبد الرحمن العثيمين وآخرون، تحقيق.). معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة.
- عبد العظيم، أحمد (1990). *القاعدة النحوية: دراسة نقدية تحليلية* (ط1). دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- العمرى، محمد محمد. (2012). *الأسس الإستمولوجية للنظرية اللسانية البنوية والتوليديّة* (ط1). دار أسامة للنشر، عمان.
- عيد، محمد. (2006). *أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث* (ط5). عالم

الكتب، القاهرة.

القرطبي، ابن مضاء. (ت. 592هـ، د.ت.). *الرد على النحاة* (ط3) (شوقي ضيف، تحقيق.). دار المعارف، القاهرة.
 قلامين، صباح. (2018). *إستمولوجية العلوم الإنسانية: قراءة في الأطر التصويرية المتصلة بالإنسان والمجتمع*. في صباح قلامين (محرر.). *قراءات في إستمولوجيا العلوم الإنسانية*. (ص ص 8-29). مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر. <http://search.mandumah.com/Record/915265>

قنصوه، صلاح. (2008). *فلسفة العلم، دار التنوير، بيروت*.
 مالتشوك، إيغور. (2023). *اللغة من المعنى إلى النصّ (عقيل الزقاي الشمري، ترجمة؛ عزّ الدين المجذوب، مراجعة)*.
 ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، ودار الروافد الثقافية، الشارقة. (العمل الأصلي نشر 2016)
 مصطفى، إبراهيم. (1992). *إحياء النحو* (ط2). القاهرة.
 الملخ، حسن خميس. (2001). *التفكير العلمي في النحو العربي: الاستقراء - التحليل - التفسير* (ط1). دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.
 ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي. (ت. 643هـ، ط. 2014). *شرح المفصل* (ط1) (عبد اللطيف الخطيب، تحقيق.). دار العروبة للنشر، الكويت.

- Abd al-‘Azīm, Aḥmad. (1990). *al-Qā‘idah al-naḥwīyah : dirāsah naqdīyah taḥlīlīyah* (Ṭ1). Dār al-Thaqāfah lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, al-Qāhirah.
- Abū Zayd, Samīr. (2008). *al-‘Ilm wa-shurūṭ al-Naḥḍah : alṭṣwwrāt al-‘lmyyḥ al-Jadīdah wa-al-ta’sīs al-‘lmī lil-naḥḍah al-‘Arabīyah* (Ṭ1). Maktabat Madbūlī, al-Qāhirah.
- Aldkhyāl, Mu‘ādh. (2021). *Ṭṭwwr al-namūdḥaj al-‘Ilmī al-lisānī : qirā‘ah fī al-Ittijāh al-binyawī wāltwlydy wa-al-wazīfī*, Majallat Jāmi‘at al-Malik ‘Abd al-‘Azīz : al-Ādāb wa-al-‘Ulūm al-Insānīyah, m29, ‘3, §282-308.
https://marz.kau.edu.sa/Files/320/Researches/73876_47048.pdf
- Aljrjānī, ‘Abd al-Qāhir. (t. 471h, Ṭ. 1982). *al-Muqtaṣid fī sharḥ al-Īdāḥ* (Ṭ1) (Kāzīm al-marjān, taḥqīq.). Manshūrāt Wizārat al-Thaqāfah wa-al-‘lām fī aljmhwrīyah al-rāqyyḥ.
- Al-Mulḥ, Ḥasan Khamīs. (2001). *al-Taḥkīr al-‘Ilmī fī al-naḥw al-‘Arabī : al-istiqrā’ – al-Taḥlīl – al-tafsīr* (Ṭ1). Dār al-Shurūq lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, ‘Ammān.
- Al-Qurṭubī, Ibn Maḍā’. (t. 592h, D. t). *al-Radd ‘alā al-nuḥāḥ* (ṭ3) (Shawqī Ḍayf, taḥqīq.). Dār al-Ma‘ārif, al-Qāhirah.
- Alshāṭbī, Abū Ishāq. (t. 790h, Ṭ. 2007). *al-Maqāṣid al-shāfiyah fī sharḥ al-Khulāṣah al-Kāfiyah* (Ṭ1) (‘Abd al-Raḥmān al-‘Uthaymīn wa-ākharūn, taḥqīq.). Ma‘had al-Buḥūth al-‘lmyyḥ wa-lḥyā’ al-Turāth al-‘slāmī, Makkah al-Mukarramah.
- Alsyrāfī, Abū Sa‘īd. (t. 368h, Ṭ. 2008). *Sharḥ Kitāb Sībawayḥ* (ṭ2) (Ramaḍān ‘Abd al-Tawwāb wa-ākharūn, taḥqīq.). Dār al-Kutub wa-al-Wathā’iq alqwmīyah, al-Qāhirah.
- Al-‘Umarī, Muḥammad Muḥammad. (2012). *al-Usus al-‘bstmwlwlyyḥ lil-naẓarīyah al-lisānīyah al-binyawīyah wāltwlydyḥ* (Ṭ1). Dār Usāmah lil-Nashr, ‘Ammān.

- Alzjjājī, Abū al-Qāsim. (t. 340h, T. 1982). al-Īdāh fī 'Ilal al-naḥw (t4) (Māzin al-Mubārak, taḥqīq.). Dār al-Nafā'is, Bayrūt.
- Ayyūb, 'Abd al-Raḥmān. (1957). Dirāsāt nqdyh fī al-naḥw al'rbī (T1). Mu'assasat al-Ṣabāḥ, al-Kuwayt.
- Bishr, Kamāl. (2005). al-Taḥkīm al-lughawī bayna al-qadīm wa-al-jadīd (T1). Dār Gharīb, al-Qāhirah.
- Bloomfield, L. (1973). *Language*. George Allen & Unwin LTD. (Original work published 1933).
- Dī swsy, Firdīnān. (1985). Durūs fī al-alsunīyah al-'Āmmah (Ṣāliḥ alqrmādy wa-Muḥammad al-Shāwīsh wa-Muḥammad 'Ajīnah, tarjamāt.). al-Dār al-'Arabīyah lil-Kitāb. (al-'amal al-aṣlī Nashr 1916)
- Ḥassān, Tammām. (1986). Manāḥij al-Baḥth fī al-lughah (T1). Dār al-Thaqāfah, al-Dār al-Bayḍā'.
- Ibn jnny, Abū al-Faṭḥ 'Uthmān. (t. 392h, T. 1986). al-Khaṣā'is (t3) (Muḥammad al-Najjār, taḥqīq.). al-Hay'ah almsryy al-'āmmh lil-Kitāb.
- Ibn Ya'īsh, mwffq al-Dīn Ya'īsh ibn 'lī. (t. 643h, T. 2014). Sharḥ almfṣṣl (T1) ('Abd al-Laṭīf al-Khaṭīb, taḥqīq.). Dār al-'Urūbah lil-Nashr, al-Kuwayt.
- 'Īd, Muḥammad. (2006). Uṣūl al-naḥw al-'Arabī fī naẓar al-nuḥāh wa-ra'y Ibn Maḍā' wa-ḍaw' 'ilm al-lughah al-ḥadīth (t5). 'Ālam al-Kutub, al-Qāhirah.
- Jawād, 'Alā' 'Ammār. (2007). al-Tamthīl al-Naḥwī fī Kitāb Sībawayh] Risālat mājistīr, Jāmi'at al-Qādisīyah [, Muḥāfaẓat al-Qādisīyah, al-'Irāq.
- Māltshwk, iyghwr (2023). al-Lughah min al-ma'nā ilā alnṣṣ ('Aqīl alzmāmāy al-Shammarī, tarjamāt.). murāja'at : 'zz al-Dīn al-Majdūb, Ibn al-Nadīm lil-Nashr wa-al-Tawzī', Wahrān, wa-Dār al-Rawāfid al-Thaqāfiyah, al-Shāriqah. (al-'amal al-aṣlī Nashr 2016)
- Muṣṭafā, Ibrāhīm. (1992). Iḥyā' al-naḥw (t2). al-Qāhirah.
- Qanṣūh, Ṣalāḥ. (2008). Falsafat al-'Ilm, Dār al-Tanwīr, Bayrūt.
- Qlāmyn, Ṣabāḥ. (2018). ibstymy al-'Ulūm al-Insānīyah : qirā'ah fī al-Uṭur alṣwryy almttsh bi-al-insān wa-al-mujtama'. fī Ṣabāḥ qlāmyn (mḥrrir.), qirā'āt fī Ibistimūlūjiyā al-'Ulūm al-Insānīyah. (S 8-29). Mu'assasat Kunūz al-Ḥikmah lil-Nashr wa-al-Tawzī', al-Jazā'ir.
- <http://search.mandumah.com/Record/915265>
- Owens, Jonathan. (2000), The Structure of Arabic Grammatical Theory. In: Auroux, S. Koerner, E.F.K, Niederehe H-J, Versteegh, K. *History of the Language Sciences / Geschichte der Sprachwissenschaften / Histoire des sciences du langage*. (vol. 1, p. 286-300)
- Sa'īdān, Aḥmad Salīm. (1988). Mqddmh li-Tārīkh al-Fikr al-'Ilmī fī al-Islām (T1). 'Ālam al-Ma'rifah, al-Kuwayt.
- Sībawayh, 'Amr ibn 'Uthmān. (t. 180h, D. t). Kitāb Sībawayh (T1) ('Abd al-Salām Hārūn, taḥqīq.). Dār al-Jīl, Bayrūt.

Biographical Statement**معلومات عن الباحث**

Dr. Muaath Aldukhail is an Associate Professor of Linguistics in the Department of Arabic Language, College of Arabic and Social Studies, Qassim University (KSA). Dr. Aldukhail received his PhD degree in 2018 from King Saud University. His research interests include Linguistic studies and the Arabic linguistic tradition.

د. معاذ بن سليمان الدخيل، أستاذ اللسانيات المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية في جامعة القصيم (المملكة العربية السعودية). حصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة الملك سعود عام 2018. تدور اهتماماته البحثية حول قضايا اللسانيات والتراث اللغوي العربي.

Email: Msdkhie1@qu.edu.sa



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

التدبر القرآني وصناعة السؤال البلاغي

حمود بن إبراهيم بن عبد الله العصيلي ^{ID}

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، بريدة، المملكة العربية السعودية

Abstract

This study entitled “Qura’nic meditation and crafting a rhetorical question” investigates how the person, who meditates upon the Qur’an, distinguishes between spiritual and intellectual contemplation. The desired intellectual contemplation is contingent upon a deep understanding of Arabic language usages and their methods. Through this linguistic expertise, contemplation transcends beyond mere impression to a realm of perceptible cognition, facilitated by key elements, including uniqueness, differentiation, and the detection of the linguistics.

The study comprises an introduction explaining the research concepts, discussions on the significance of the rhetorical question among rhetoricians, the prerequisites that pave the way for crafting a rhetorical question, its definition. The results indicate that the desired mental contemplation is contingent upon a solid grasp of Arabic sciences. The rhetorical question is the one that questions about the essence of meaning, not the initial meaning. The essence of contemplation lies in crafting the authentic question that stimulates reflection on the verses, even if no immediate answer is found.

Keywords: Meditation, Rhetorical Questioning, Uniqueness, Similarity, Structural Detection of the Linguistics, Graphical Applications.

الملخص

يأتي هذا البحث؛ ليكشف لمتدبر القرآن كيف بفرق بين التدبر الروحي، والتدبر العقلي؛ إذ إن التدبر العقلي المنشود الذي يعتمد على معرفة استعمالات اللغة العربية وأساليبها، فينتقل معها التدبر من الانطباع إلى الحس المدرك، عبر مفاتيح، منها: التفرد، والتمايز والعدول وغيرها، ويشتمل البحث على تمهيد يشرح مفاهيم البحث، ومباحث عن أهمية السؤال البلاغي لدى البلاغيين، والمهيكات التي تُمهّد لصناعة السؤال البلاغي، ومفهومه، والمفاتيح المختارة لصناعة لسؤال البلاغي، والتدرب على هذه المفاتيح من خلال التطبيقات البيانية على آيات مختارة؛ ليصل البحث إلى نتائج، منها: أن التدبر الذهني المنشود هو الذي يعتمد على الإمام بعلوم العربية؛ إذ هو أساس للتدبر وصناعة السؤال البلاغي، وأن السؤال البلاغي هو الذي يسأل عن معنى المعنى، وليس المعنى الأولي مع أهميته، وأن العبرة في التدبر هو صناعة السؤال الحقيقي الذي يثور الآيات في نفسه، وإن لم يجد الإجابة.

الكلمات المفتاحية: التدبر، صناعة السؤال، التفرد، التشابه، العدول التركيبي، التطبيق البياني.

الإحالة APA Citation:

لقب الباحث، الاسم الأول. (2023). التدبر القرآني وصناعة السؤال البلاغي. مجلة العلوم العربية والإنسانية، 17، (2)، 38-70.

استلم في: 1445-03-02 / قبل في: 1445-03-20 / نُشر في: 1445-04-14

Received on: 17-09-2023/Accepted on: 05-10-2023/Published on: 29-10-2023

1. مقدمة

السؤال العلمي صاحب المؤلفين منذ زمن الالف في شتى العلوم؛ إذ هو مفتاح العلوم، ومثير الأذهان، وجاذب المتعلم إلى الوصول نحو الإجابة المنشودة والمعلومة الغائبة لديه، ومشارك في حل الإشكال المعرفي الذي يطرأ على ذهن المتعلم، ويحدد له محددات المشكلة، ومواطن المعرفة.

جاء هذا البحث ليبين أهمية صناعة السؤال البلاغي الذي يفتح للمتدبر وجه السر البلاغي في الآية، ومعرفة جماليات التراكيب، فمن خلال التدرب على مهارات السؤال صناعة البلاغي عبر المفاتيح البلاغية (التفرد، والتمايز والتشابه، والعدول في التراكيب، والمبنيات) يستطيع الباحث أن يصنع السؤال البلاغي، وهو ما يساعد على استثارة الآية وتدبرها بمسوغ علمي ينطلق من السؤال المبني على التعليل اللغوي، وهذا ما يميز التدبر المبني على التعليل العلمي والتدبر الروحي الذي يجده الإنسان في نفسه حين يقرأ القرآن دون أن يجد له سبباً أو تعليلاً يكشف من خلاله عظمة القرآن وعلو طبقته البيانية.

ويأتي البحث ليكشف عن مدى إمكانية استعمال المفاتيح المختارة في صناعة السؤال البلاغي، وهل هي قادرة على صناعة السؤال البلاغي، ومعينة للمتدبر على صناعة السؤال اللغوي، وعلى استثارة عقله حين يستصحبها في تثوير الآيات القرآنية؟

ويعتمد البحث على منهج الاستنباط الذي يقوم على استخراج ما خفي الأوجه البلاغية عن طريق استعمال المفاتيح المختارة في هذا البحث لصناعة السؤال البلاغي للآيات التي من خلالها يظهر تحديد المفتاح البلاغي المناسب له، ليصل من خلال تحديد المفتاح البلاغي إلى صناعة السؤال البلاغي لكل آية من الآيات التي يتناولها هذا البحث.

ومن الدراسات السابقة في هذا الموضوع ما كتبه الدارسون حول موضوع السؤال البلاغي، ومن ذلك:

- دراسة الباربات (2015): أسئلة الإمام الزمخشري البيانية في تفسير البقرة دراسة تحليلية تفسيرية.
- دراسة الزركاني (2015): الفنقلة عند الزمخشري بين الدلالة والحجاج.
- دراسة عطا الله (2017): فنقولات الزمخشري البلاغية في سورة يوسف.
- دراسة جدي (2018): افتراضات الزمخشري في الكشف، دراسة تطبيقية في علم المعاني..
- دراسة العبدلي (2019): فنقولات المفسرين، دراسة نظرية تطبيقية على سورة الفاتحة.
- دراسة الزهراني (2023): الأسئلة البلاغية عند المفسرين إلى نهاية القرن السادس الهجري.

وهذه البحوث على أهميتها إلا أن مجالها تتبع سؤالات المفسرين، فهي تدرس الظاهرة وما فيها من مسائل بلاغية، دون أن تقف على ما أنا بصددده، وهو كيفية صناعة هذا السؤال، والمهيات التي يتطلبها الأمر قبل صناعة السؤال البلاغي، والتطبيقات العملية على مفاتيح السؤال البلاغي.

2. مفهوم التدبر وأهميته

التدبر في كتاب الله ﷻ مطلب منشود، ومرتقى سام، لا يرتقي إليه إلا من استقام له أمر الله ﷻ ونهيه، فالله ﷻ أمر عباده بالتدبر في أربعة مواضع من كتابه.

إن ما يحدث للقارئ من تأثير عند سماع القرآن، وما يعقبه من قشعريرة وخشوع؛ بسبب تأثير القرآن عليه هو نوع من التأثير الروحي، ومع جماله وسموه إلا أنه لا يرتقي إلى التدبر المنشود - وإن كان أمراً محموداً في ذاته - لأن التأثير قد يكون بسبب التلاوة والترتيل وغيرها، فالتدبر عملية عقلية تحدث في الذهن، أما التأثير فهو انفعال في الجوارح والقلب، وقد يكون التدبر موصلاً إلى التأثير، لكن التأثير قد لا يوصل إلى التدبر.

والأصل أن مرحلة التدبر تأتي بعد الفهم؛ إذ لا يمكن أن يطلب منك تدبر كلام لا تفقهه، وهذا يعني أنه لا يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه مطلقاً، وأن التدبر يكون فيما يتعلق بالتفسير، أي: يتعلق بالأمر المعلوم، سوى ما لا يدركه العقل من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها؛ «لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم به، ولا معرفة من القيل والبيان والكلام إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به» (الطبري، ت. 370هـ، ط. 2002، 76/1).

إن التدبر في معناه اللغوي هو النظر الثاقب في أدبار الأمور، والتفكير فيه؛ للوقوف على ما تؤول إليه عاقبته (ينظر ابن منظور، ت. 711هـ، ط. 2009، مادة دبر). وأما التدبر في كتاب الله ﷻ فهو عند أهل العلم «ديمومة العمل، وتجده؛ لتحقيق نفاذ البصيرة، وتحديقها فيما يبلغه المعنى القرآني المديد من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم» (توفيق، 2022، ص. 40). فالتدبر ليس فعلاً من أفعال التلقي، بل هو منهج وكيفية لكل فعل من أفعال التلقي، فما من فعل من أفعال التلقي إلا وهو مفتقر إلى هذه الكيفية من التدبر التي هي في مفهوم السعي إلى بلوغ الأدبار، وانتهاء ما تؤول إليه الألفاظ من معاني ومقاصد.

إن التدبر في مفهوم الديمومة والمنهجية المستمرة يورث المتدبر ستة أفعال كلية هي من أفعال التلقي، وهذه الأفعال مراتب في منهاج التدبر، تبدأ **بالتعقل** وهو استيعاب البيان وأصول معانيه في الفؤاد، ثم **التفكير**، وهو تفكيك البيان وتحليله، ثم **التبصر**، وهو التدسس في البيان ومعانيه؛ لإدراك دقائقه ورفائقه، ثم **الاستنباط**، وهو استخراج الدقائق واللطائف من معدنها ومكنزها، ثم **الاستنتاج**، وهو استخراج ما ليس بموجود مما هو موجود، فلاستنتاج يكون بتلقيح المعاني ببعضها، ثم يأتي الفعل الأخير وهو **الاستطعام**، وهو استطعام المستحصد من كل تلك الأفعال؛ ليسري أثره في

سلوك العبد، فيكون محبوب ربه ﷻ، وهذه المرتبة هي التي تحيل الفقيه فهيماً، فالفهم عن الله ﷻ إنما هو ثمرة حسن الاستطعام، وكل فعل من أفعال التلقي لا بد أن يكون على منهج التدبر الذي يعني استطالة الفعل، وديمومته، وتجدده، واكتماله (ينظر توفيق، 2022).

إن التدبر المنشود هو الذي يؤول إلى معرفة مراد الله ﷻ في أمره ونهيهِ، ثم الاستجابة لتلك الأوامر والنواهي، وكذلك الذي يؤول إلى تعظيم الله ووحدانته بالعبادة، وإجلال قدرته وكمال مشيئته، وكذلك الذي يؤول إلى معرفة الإعجاز البياني الذي تحدى الله ﷻ به الناس أن يأتوا بمثله، والوقوف على الأسرار البلاغية التي تظهر من خلال الألفاظ والتراكيب البيانية، فترسم للمتدبر مشهداً لغوياً بارعاً يعجز البليغ العربي أن يأتي بمثله، وهنا يعظم النص القرآني في قلب المتدبر، ويقف على المشاهد الحسية التي أكسبته هذه الصورة العليا للبلاغة القرآنية، فيزداد المؤمن إيماناً، ويحار المعاند أمام إعجازه، فيختار إما الهداية والانقياد لما جاء بالقرآن بعد انبهاره، وإما المكابرة والعناد، ويذهب كل مذهب في صد الناس عنه، ولن يفلح.

إن المعاني المنشودة هي كنوز في القرآن، وعلى قدر الترقى الذي يصل إليه العبد بتلاوته وتدبره تنكشف له تلك المعاني التي تنمو في خلدته كلما تكشفت له مهيئات الأسئلة البلاغية التي تثير ذهنه، وتوقد فيه شعلة السؤال، وبهذا يهتدي المتدبر من خلال طرح السؤال البلاغي إلى مستويات المعاني القرآنية، وهي على مستويين (ينظر توفيق، 2022):

المستوى الأول: المعنى الكلي الجمهوري، وهو المعنى الذي يتلقاه كل من ينطق العربية، ويعقل عنها، أيًا كان وعيهِ المعرفي، وقدرته التأويلية؛ لذا فهو معنى جمهوري يدركه كل من له دراية بالنطق باللغة العربية، وهو ما يعرف بـ(معنى المنطوق) أو (مدلول العبارة)، فهو كل ما ثبت باللفظ، وكان مقصوداً قصداً رئيساً، فهذا معنى ظاهر لا يحتاج معه المرء إلى استنباط أو طول تأمل، لكنه معنى أساس في الفهم وركيزة أولى لبناء المعاني الأخرى عليه، وردّ المعاني الثانوية إليه، كما هو الأمر في معاني العقائد والتشريع وغيرها، فهي أساس في الفهم، فكل «ما كان من المعاني العربية التي لا ينبي فهم القرآن إلا عليها، فهو داخل تحت الظاهر» (الشاطبي ت. 590هـ، ط. 2012، 3/ 386).

المستوى الثاني: المعنى الكلي الإحساني⁽¹⁾، ويدخل فيه ما يسمى باطن البيان، إذا لم يكن هذا جارياً على مقتضى الظاهر، وهو معنى لا يصل إليه المتدبر إلا بعد طول تدبر، ولقانة قلب زكي مطهر من الشبهات، والشهوات، والغفلة، والعصبية لغير الحق، وهذا ذو درجات في اكتنانه، وبعده عن ظاهر العبارة، وهو الذي يفتقر المرء فيه إلى قدر من مهارة الاستنباط.

والمعاني الإحسانية تتطلب من المرء مزيداً من حسن الحال، والفهم، والتأمل، والمهيئات؛ حتى تمنحه تلك الآيات حسن العطاء، وحسن التأمل، وهداية المعاني الحقّة، وأشار عبد القاهر الجرجاني (ت. 471هـ، ط. 1993) إلى هذين المعنيين، وكيفية الحصول عليهما، في معرض حديثه عما سماه «المعنى»، ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ،

والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر» (ص. 263). فالمعنى الذي تصل إليه عن طريق اللفظ وحده، ويقتضيه موضوعه في أصل الوضع اللغوي هو ما تقتضيه المعاني الجمهورية، كما تحبر عن زيد بالخروج على الحقيقة، فتقول: خرج زيد.

أما معنى المعنى، فهو ينطلق أولاً من المعنى اللغوي الجمهوري، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، وهذا هو مدار الكناية، والاستعارة، والتمثيل، وما تدل عليه التراكيب من نظم معين من خلال التقديم أو التأخير، أو الحذف والذكر، أو التنكير والتعريف، أو ما يتصل بمعاني حروف المعاني وإشراكها معاني غيرها، وغيرها من دلالات التراكيب، فلو نظرنا إلى قول العرب: هو كثير رماد القدر، فإن غرض المعنى لا يمكن أن تصل إليه من خلال مجرد اللفظ «ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجهه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من (كثير رماد القدر) أنه مضياف» (الجرجاني، 1993، ص. 262).

وهذه المعاني الإحسانية على علوها في الدرس البلاغي، وكونها مستويات متعددة، وذات علاقات تتولد مع النظر في سياقاتها ومناسباتها للموضع والسورة والمقصد إلا أنها ولائد المعاني الجمهورية، فليس ثم معنى إحساني غير خارج من رحم المعاني الجمهورية، فكل ما يسميه أهل البيان (معنى المعنى) وإن توالى فهو من المعاني الإحسانية (ينظر توفيق، 2022).

إن العلاقة بين المعنى الجمهوري والمعنى الإحساني هي علاقة ممتدة في أصل المعنى؛ إذ إن المعنى الأولي نجده في المعنى الجمهوري، بيد أن المعنى الإحساني يرتبط بما يطرأ على الألفاظ من تغيير في المفردات أو التراكيب تكسبها معاني تسمو بها نحو المعاني الإحسانية، وهي متصلة بما في خلق ذلك النظم من مقاصد وأغراض وتوظيف للمقامات، وإن كانت الألفاظ الواردة في الجملة لم تتغير من حيث دلالة اللفظ على المعنى من خلال الوضع اللغوي، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني حين يتغير النظم، فإن النظم إذا تغير «فلا بد حينئذٍ من أن يتغير المعنى، على ما مضى من مسائل التقديم والتأخير، وعلى ما رأيت في المسألة التي مضت الآن، أعني: إن زيداً كالأسد، وكأن زيداً الأسد، ذلك لأنه لم يتغير من اللفظ شيء، وإنما يتغير النظم فقط» (الجرجاني، 1993، ص. 265).

لذا، كان لزماً على النفس المؤمنة أن تدرك معنى الآيات وفهم أقوال المفسرين للمعاني المعلومة سواء المعنى الجمهوري أو المعنى الإحساني، أما ما لا يدركه العقل من الأمور الغيبية التي استأثر الله ﷻ بعلمها، فالواجب الإيمان بها دون الدخول في اجتهادات لبيانها، وهي مما لا يحصل بيانه من جهة العقل، ومتى وقع طلبها من جهته حصل الانحراف والزيف في شرع الله (ينظر الطيار، 2007).

3. أهمية السؤال البلاغي لدى علماء البيان القرآني

السؤال هو مفتاح التعلم، ووسيلة التفتق الذهني، وعماد الإثارة المعرفية، والمعين للعقل على التفكير، لا سيما إذا كان السؤال ذا طابع متميز يصيب الهدف المنشود، ويحدد الأمر المطلوب، ويجعل المستمع يعيد النظر فيما هو معروف لديه. إن السؤال الجيد هو دلالة على ارتقاء مستوى التأمل؛ إذ وصل بسؤاله مرحلة من الفهم كشفت له مبادئ المعرفة، ثم ارتقى بها نحو كشف الظنون خلف المعارف الأخرى التي يمكن أن تجليها المعرفة من خلال الإلحاح المعرفي، وافتراس الفرضيات التي تجعل التأمل يقارن فيها بين تصور معلوم لديه، وتصور آخر يحاول كشفه؛ ليميز بين المعلوم الحاضر في ذهنه، والتصور المأمول الكشف عنه من خلال التثوير الذي أشغل ذهنه بعد استقرار المعرفة الأولى، مما جعل التصور المنشود لديه من خلال الترتقي في التدبر يثور لديه سؤالات عدة، فتمضي به نحو البحث عن الإجابات لتلك الأسئلة التي ظلت تساور ذهنه.

هذا ما نجده لدى علماء البلاغة في دراساتهم للآيات القرآنية من خلال تعليقاتهم على الآيات، أو من خلال مصنفاتهم المستقلة بالتفاسير التي أشبعوها أسئلة، حتى يكون طرح السؤال، والبحث عن الإجابة ظاهرة في مصنفاتهم، سبيلهم في ذلك التثوير للسؤال البلاغي، إما أسلوب: (فإن قلت...، قلت:...) (2)، كما نجد ذلك عند الزمخشري (ت. 538هـ، ط. 1998). في تفسيره، أو طرح السؤال مباشرة دون ذكر أسلوب الحوار الافتراضي بين المفسر والقارئ، أو من خلال طلب التأمل، والوقوف حول الآية للوقوف على ما فيها من تثوير للسؤال البلاغي، إلى غير تلك الأساليب التي يجمعها تهيئة صناعة السؤال الافتراضي الذي يجعل المفسر من بعده يتتبع ما يفتح الله عليه من مساءلة الآيات القرآنية في الجانب البلاغي، جاعلاً سؤال التعليل (لم، لماذا) أو سؤال الكيفية (كيف) أو (ما سر مجيء هذا النظم؟) أو غيرها هي مفاتيحه نحو تثوير المسائل البلاغية في الآيات، والإجابة عن تلك السؤالات.

4. مَهَيَّات صناعة السؤال البلاغي

قبل الحديث عن كيفية صناعة السؤال البلاغي حيال آيات البيان القرآني لا بد أن ينشأ لدى الراغب في طرح السؤال مهيئات ذاتية تكسبه التثوير للآيات؛ إذ التثوير للآيات هو المبلغ الأكبر، والمنتهى الأسمى في مهيئات صناعة السؤال البلاغي، يقول ابن مسعود (ت. 32هـ): ((من أراد خير الأولين والآخرين فليثور القرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين (الطبراني، ت. 360هـ، ط. 1984، رقم الحديث: 8664) وفي لفظ: من أراد العلم فليثور القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين)) (الطبراني، 1984، رقم الحديث: 8665). وتثوير القرآن معناه: قراءته، ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه، والبحث فيه، ومدارسته (ينظر الأزهرى، ت. 370هـ، ط. 1964، 110/15؛ ابن عطية، ت. 546هـ، ط. 2002). والاستعانة على ما كتبه العلماء حول ألفاظه ومعانيه في تفاسيرهم، ومناقشة الأقران، ومدارستهم حول المعاني المكونة خلف الألفاظ الظاهرة، وكل هذا لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر - كما قال الزركشي (ت. 745هـ،

ط. 1984، 2/ 154) - بل هي دعوة لاستيضاح كل ما يليق بمقام هذه الآيات عالية المقام، التي امتلأت درراً مكنونة لا يستطيع أن يستظهرها إلا من منح القرآن حقه من مقام العزة والمهابة والعلو، فإذا تحصّل الراغب على تلك المكانة، والقرب من القرآن، وتهيئاً لمقام عزة القرآن أكسبه الله ﷻ من الكرامة والنفحات الربانية والفتوحات العلمية ما يستحق أن يتحصل عليه من كرم القرآن، وبذل المعاني له؛ لذا نجد أن الله ﷻ وصف القرآن بوصفين عظيمين: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41] وكذلك: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 77] فلا يمكن أن يبذل القرآن لك كرم المعاني، وفتح مكنون الدرر حتى تنهياً لما يناسب عزة القرآن، وهذا المقام يُنال بالآتي:

- استشعار مقام النص الإلهي، وأن القرآن كلام الله ﷻ لفظاً ومعنى.
- الإقبال على القرآن قراءة واستماعاً إقبالاً لا يحجبه شواغل الزمن مع كثرتها.
- الاعتناء بتجويد القرآن، وفهم أحكامه ومواقع الوقف والابتداء، والتأدب بآداب تلاوته.
- حضور القلب عند تلاوته وحفظه والاستماع إليه، واستشعار خصوصية المخاطبة للقارئ، وأنه هو المعني بتلك الآيات.
- الفرح بالقرآن، وهذا يتأتى من خلال استشعار الرحمة والفضل الذي خص الله ﷻ هذه الأمة بهذا القرآن، وجعله شفاء ورحمة، وسلوة للمحزون، وجلاء للهموم يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] ويقول الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الأنعام: 82] فإذا استشعر القارئ المتدبر هذا الفضل العظيم، والمنزلة الكبيرة لهذا الكتاب، وتأمل المكانة التي سيحصل عليها حين يتعرض لهذه النفحات، وهذه المكاسب في الدارين، وصحبة القرآن له هدايةً وشفاعةً عَرَفَ أنه ذو حظ عظيم، ومنزلة كبرى؛ مما يجعله يتأمل كل لفظ في هذا الكتاب العزيز الذي يمدد بالشفاء، والرحمة، والخير العظيم.
- معرفة المعاني الظاهرة، وأسباب النزول، واستصحاب مؤلفات بعض مؤلفات العلماء في غريب القرآن، ومفرداته.
- الإمام بأصول العربية، ومعرفة مواقع الجملة، وأنواعها وإعراباتها، والأدوات المتصلة فيها وخصائص تلك الأدوات، وغيرها مما يتصل بالمعرفة اللغوية التي تسبق السؤال البلاغي.
- العمل بما جاء في القرآن من أوامر ونواهٍ، فإن هذا الأمر من أعظم ما يتأتى له كشف المكنون ومنح النفحات، واستجلاء المعاني، والحصول على الخيرية المطلقة.

5. مفهوم صناعة السؤال البلاغي

إذا كان التدبر لا يقوم إلا على معرفة المعاني التي تُطلب في كتاب الله ﷻ، فإن السؤال البلاغي المنشود طرحه على الآيات يأتي في المرحلة التي تعقب فهم المعاني؛ لذا لا يمكن أن يسأل المتأمل السؤال البلاغي، وهو لم يدرك المعاني بشكل عام، ولا يعرف القواعد الكلية للمسائل النحوية، فالسؤال البلاغي يقوم على البحث عن معنى المعنى، فلا يستعمل

الاستفهام الأولي (أين) و (ومتى) و (ماذا) فلا يسأل عن المحذوف ما هو، ولا عن المتقدم من الكلمات أيها، ولا عن مضامين المعاني ومفاهيم الآيات.

ومع كون تلك الأسئلة الأولية غير واردة في صناعة السؤال البلاغي إلا أنه لابد أن يدرك المتأمل الإجابة عن هذه الأسئلة وإجاباتها؛ لأنها مرحلة مبدئية مهمة، وقاعدة أساس في معرفة المعاني وفهم المراد، وهي المرحلة المتقدمة التي ستقود إلى مرحلة صناعة السؤال البلاغي.

إن صناعة السؤال البلاغي هي التي ترتقي نحو البحث عن التعليل والکیفية في البيان القرآني، فيهتم المتدبر بتوظيف الأدوات الاستفهامية الآتية: (لماذا) و (لم) و (كيف)، و (وما سبب)؛ إذ يتجه بتلك الأدوات نحو السر البلاغي في البيان القرآني، ولكي يدرك المتدبر كیفیات صناعة السؤال البلاغي، ويحيل الأمر التدبري من التأثر الروحي إلى التفكير العقلي الحاضر في الذهن، والمحسوس بأدوات الإدراك، فإن ثمة مفاتيح يدلف من خلالها إلى صناعة السؤال، منها على سبيل المثال - لا الحصر - المفاتيح الآتية:

- **التفرد:** حيث يثير اختيار اللفظة المفردة السؤال البلاغي لدى المتدبر، وهذا التفرد إما في الاختيار بين المترادفات أو التفرد في الوزن، أو غير ذلك من سمات التفرد.

- **التشابه والتمایز:** حيث يثير التشابه بين ورود الآيات المتشابهة في أكثر من موضع السؤال البلاغي لدى المتدبر، فينظر في التشابه بينها، والتمایز.

- **العدول في التراكيب:** حيث يثير التركيب القرآني السؤال لدى المتدبر، فينظر في علّة اختيار هذا التركيب والعدول فيه عن التركيب اللغوي السائد، أو العدول المقامي في مجيئه على غير مقتضى الظاهر.

- **المبنيات في التراكيب القرآنية:** حيث يثير المتدبر استعمال المبنيات - من أسماء الإشارة، أو الأسماء الموصولة، أو الضمائر، أو أدوات الاستفهام، أو الظروف، أو حروف المعاني من حروف الجر، أو حروف العطف أو غيرها - فينشأ السؤال البلاغي لدى المتدبر متأماً استعمالاتها في غير مقتضى الظاهر، أو التناوب⁽³⁾.

فهذه المفاتيح توصله إلى بناء السؤال البلاغي المنشود، وهذا السؤال هو المهم؛ إذ بطرح السؤال تحدث الإثارة للمعاني والمباني في القرآن، ومن خلاله يصبح المتدبر ذا مهارة عالية في الوقوف على الآيات والبحث عن الاستفهامات البلاغية التي تقوده إلى كشف الإعجاز البلاغي، مبتدئاً مرحلة البحث عن هذا السر البلاغي من خلال كتب أهل التفسير والبلاغة ومن له اهتمام بهذا الشأن، ومفاتيحه المعاني مع أساتذته، ومن له اهتمام بالشأن البلاغي التدبري.

وقد يقصر إدراكه أو بحثه عن معرفة السر المكنون لهذا الاختيار للفظ، فلا يحصل له الوصول إلى الإجابة عن سؤاله، وهذا لا يضبره، فقد أحسن من انتهى إلى ما بلغ به علمه، لكن هذه المسألة البحثية أكسبته صناعة السؤال البلاغي، وأكسبته مهارة استيقاف الآيات له، ولفت الانتباه حين القراءة لها، وهذا وحده مطلب عزيز، ومرتقى سام.

6. تطبيقات بيانية على مفاتيح صناعة السؤال البلاغي

في هذا المبحث سأقف مع المفاتيح المختارة لصناعة السؤال البلاغي من خلال تشوير الآيات ومفاتيحها ما فيها من أسرار بلاغية وجماليات بيانية، واستظهار للإعجاز القرآني:

6.1. التفرد

إن الحافظ لكتاب الله ﷺ أو القارئ له باستمرار تستوقفه مفردات القرآن التي جاءت متفردة في لفظها، أو في وزنها، أو في اختيارها من بين مرادفاتهما، وهذا ما يجعل المتدبر للآيات يستوقفه السؤال البلاغي: لماذا جاءت هذه الكلمة المتفردة في الموضوع من القرآن؟ وما السر البلاغي في اختيار هذا الوزن الصرفي لها؟ فمن الأمثلة على التفرد:

6.1.1. التفرد باللفظ في الوزن

فحين نتأمل عددًا ليس بالقليل من الألفاظ المتفردة في القرآن نجد أنها وردت على وزن متفرد، لم ترد على هذا الوزن بهذا اللفظ إلا في هذا الموضوع، فمما جاء من الأمثلة على هذا النوع في التفرد في الوزن واللفظ: لفظ (الكوثر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:1] وهنا نستطيع صناعة السؤال البلاغي الآتي: لماذا تفرد هذا التعبير عن الخير الكثير في هذا الموضوع القرآني بهذا اللفظ الذي جاء على صيغة المبالغة للكثرة على وزن (فوعل)؟

وحين نعود إلى معنى الكوثر نجد أنه:

اسم في اللغة للخير الكثير صيغ على زنة فوعل، وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالبًا نحو الكوكب، والجورب، والحوشب والدوسر، ولا تدل في الجوامد على غير مسماهما، ولما وقع هنا فيها مادة الكثرة كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى. (ابن عاشور، 1984، 572/30)

ومن هذا الخير المفرط في الكثرة النهر الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة. فإن ابن عباس لما فسر الكوثر في هذه الآية بالخير الكثير، قال له سعيد بن جبيرة: إن ناسًا يقولون: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير (ينظر ابن عاشور، 1984).

وهذا الاختيار للفظ المتفرد في ميزانه الصرفي لهذه الكلمة في القرآن الدال على الكثرة للعطاء، جاء مؤلفًا مع التفرد بالعطاء الكثير الذي اختصه الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ؛ مقابل ما يحتاجه النبي ﷺ من التطمين والوعد بالحفظ له ولدعوته التي يواجه بها الناس أجمعين، فمن سيواجه المشركين وغيرهم، ويكفر بأهنتهم، ويبطلها هو بحاجة إلى إزالة الخوف في مواجهة الصناديد وأهل الشر في الأرض كافة.

وكذلك ائتلف هذا الخير الكثير المتفرد في العطاء، مع التفرد في الوزن؛ جبرًا لخاطره، حين لمزه المشركون بأنه الأبر الذي لا ولد، وقد عيره المشركون بشيء لا يملك دفعه، فجاء هذا الفضل العظيم من الله ﷻ لنبيه إرضاء له، وتسليته، وإيناسًا لنفسه، وتسكينًا لها، وتطمينًا على مقابل اللفظ الذي عيره به المشركون (الأبتر)، يقول ابن عاشور (1984):

((أريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ وإزالة ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتَر، فقبول معنى الأبتَر بمعنى الكوثر، إبطالا لقولهم)) (573/30).

6. 1. 2. التفرد في اختيار الكلمة من بين نظيراتها

كما في ﷻ: «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» [يوسف: 85]، فنلاحظ هنا مجيء اللفظة المتفرد (تفتأ) واختيارها من بين نظيراتها من الأفعال الناقصة التي تدل على معناها مما جاء في مواضع أخرى من القرآن. وهذا التفرد مما يدعو المتأمل إلى صناعة السؤال البلاغي الآتي: لماذا تفرد هذا اللفظ (تفتأ) وانتخب من بين نظائره لهذا الموضع من القرآن؟

والفعل (تفتأ) من أخوات كان الناقصة، ومرادفاته: ظل، وما زال، وما انفك، وما برح، وغيرها، ومعناه هنا: كما - يقول ابن عباس: «لا تزال تذكر يوسف، ولا تفتر من حبه» (الطبري، 2002، 299/13)، وهذا التفرد جاء في مناسبة التفرد في السياق الداخلي النصي؛ حيث تناسب حسن الجوار وجمال الائتلاف بين تفرد (تفتأ) وغرابة القسم (تالله)، فالتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم، وفيها زيادة معنى، وهو التعجب، كما جاء عند الزمخشري (1998)، وفسره الطيبي بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع؛ لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه، ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة؛ لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم (ينظر الطيبي، ت. 743، ط. 2014). وابن أبي الإصبع (ت. 654هـ، ط. 1963) استشهد بهذه الآية في باب ائتلاف اللفظ مع المعنى، وجعل التناسب في هذه الآية بين تجاور الغريب فيها من البدء في القسم (تالله) ومجيء (تفتأ) ثم إتياعهما بـ (حرضاً):

فإنه ﷻ أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها، فبالنسبة إلى أخواتها، فإن (والله وبالله) أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من (تالله)؛ لما كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي قس بابه، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ وأعرف عند الكافة؛ ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة، وهي لفظة (حرض) ولما أراد غير ذلك قال في غير هذا الموضع: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» [الحل: 38] لما كانت جميع الألفاظ مستعملة، وعلى هذا فقس (ص. 194).

وكذلك التفرد في هذا اللفظ يتناسب مع السياق الخارجي الذي يمر به يعقوب ﷻ حيث إنه بلغ من حالة الحزن مبلغاً لم يصله من قبل في حزنه السابق، فقد اجتمع عليه فقد أبنائه الثلاثة؛ فجاءت الغرابة في الألفاظ الثلاثة المتجاورة (تالله، تفتأ، حرضاً)؛ لتكتمل جمالية الائتلاف بين هذه الفرائد في الاستعمال والحالة الشعورية التي يمر بها يعقوب ﷻ، إذ إن مشهد الحالة الشعورية ليعقوب ﷻ جعلت من يروه تثيرهم الدهشة على ما هو عليه من الهم والحزن الذي لم يمر به من قبل؛ حيث اجتمع عليه فقد ثلاثة من أبنائه؛ ف«المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك؛ بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف ﷻ» (ابن عاشور، 1984، 44/13) وبهذا، يكون هذا التفرد وهذا التجاور

الحسن بين التفرد والكلمات الغريبة، وتوجيه العلماء لها، وبيان أسرار جمالها، شافياً للسؤال البلاغي الذي صنعه مفتاح التفرد، وكانت إجابات العلماء في توجيه التفرد متسقة مع مثار السؤال البلاغي وبابه.

6. 2. التمايز والتشابه اللفظي

وفي هذا المفتاح يدرك القارئ الذي كرر الآيات ومَرَّ عليها مراراً، وجوه الشبه والاختلاف والتمايز بين الآيات التي عبرت عن معنى واحد، لكن تغايرت، واختلفت بعض التراكيب بين الموضعين أو المواضع التي وردت في القرآن، فيستوقفه السؤال البلاغي الذي يصنعه من خلال النظر في نظم هذه الآيات: لماذا جاء هذا التركيب مختلفاً عن ذلك التركيب في بعض ألفاظه؟ ما السر البلاغي خلف هذا التركيب المتشابه من جهة والتمايز من جهة أخرى؟ لماذا قدم هذه الكلمة هنا، وأخرها في الموضع الآخر؟ لماذا جاءت الزيادة في أحرف الكلمة، ولم تزد في الكلمة الأخرى المشابهة لها؟ لماذا نكّر في هذا الموضع من الآية، وعزّف في موضع آخر؟ إلى غير تلك الأسئلة مما يجده المتأمل في التشابه اللفظي في الآيات التي تثير لديه التساؤل، والرغبة في معرفة الأسرار خلف تلك التشابهات والتمايزات.

إن هذا التمايز نجده بين المفردات المتجاورة في الجملة الواحدة، أو التراكيب التي تعبر عن معنى واحد في آيات متفرقة من سور القرآن، سواء في سياقات القصة الواحدة المتكررة، أو في سياقات مختلفة للمعنى الواحد في سور مختلفة، فكل تعبير عن معنى واحد أو شخصية معينة أو سورة واحدة مع اختلاف التعبير عن تلك المعاني بألفاظ مقاربة متشابهة هو مفتاح للتشابه والتمايز في صناعة السؤال البلاغي، وهذا كثير في القرآن، وله أوجه عدة تحدد مسائل هذا التمايز في الجوانب اللغوية، مما يسهم الوقوف عليها في صناعة السؤال البلاغي في مفتاح التمايز، من ذلك⁽⁴⁾:

6. 2. 1. التشابه والتمايز في الزيادة، وله صور كثيرة، منها:

أ- التشابه والتمايز في الزيادة بين موضعين في زيادة حروف المباني

من ذلك قوله ﷻ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78] وقوله ﷻ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82] فنلاحظ هنا كلمة ﴿تَسْتَطِعْ﴾ وكلمة ﴿تَسْطِعْ﴾ بزيادة تاء في الأولى وحذفها في الأخرى.

فالسؤال البلاغي: ما سر التمايز بين اللفظين في بناء الكلمة؟ للعلماء في التوجيه لهذا الاختلاف وجهان:

وجه لفظي محمول على التفنن فقط، كما جاء عند ابن عاشور (1984) حيث يقول: «وتسطع مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع)، حذف تاء الاستفعال تخفيفاً؛ لقرّبها من مخرج الطاء. والمخالفة بينه وبين قوله ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ للتفنن؛ تجنباً لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالاً، وجيء بالثانية بالفعل المخفف؛ لأن التخفيف أولى به؛ لأنه إذا كرر ﴿تَسْتَطِعْ﴾ يحصل من تكريره ثقل» (15/ 16)، ووجه آخر يحمله أصحابه على السياق الخارجي، فيوائم بين زيادة المبني وزيادة المعنى، مع توظيف لكثافة المشاعر، وما يدور في نفس موسى ﷺ، وما مستوى الشحن النفسي والحيرة في ذهن موسى ﷻ؛ لما يرى من أمور مدهشة لم يطق الصبر عن طرح الأسئلة

مع تعهده بالصبر وعدم السؤال، ثم ما وصلت إليه نفسه من الهدوء وانكشاف الدهشة وزوال الحيرة حين نبأه الخضر عليه السلام عن كل موقف مر بهم، فهذا النزول في المستوى النفسي بين المقام الأول والمقام الثاني ناسبه تمايز المبني للاستطاعة بين الزيادة والحذف، يقول البقاعي (ت. 885هـ، ط. 1984): «ولما بان سر تلك القضايا، قال مقدراً للأمر: ﴿ذَلِكَ﴾ أي الشرح العظيم ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ يا موسى، وحذف تاء الاستطاعة هنا؛ لصيرورة ذلك - بعد كشف الغطاء - في حيز ما يحمل، فكان منكزه غير صابر» (123 / 12).

ب- التشابه بين موضعين في الزيادة في حروف المعاني

من ذلك قوله عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 72] وقوله عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 75] فحين نتأمل الآيتين نجد أن الآية الأخرى زاد في تركيب الجملة ﴿لَكَ﴾ فالسؤال هنا: لما اختلف تركيب الآيتين بزيادة الجار والمجرور في الآية الثانية؟

إننا حين نتأمل السياق التي جاءت به الآية الأخرى نجد أن تذكير من الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام للعهد الذي بينهما، لكن هذا التذكير لما أعاده الخضر عليه السلام مرة أخرى بعد أن ذكره في المرة الأولى كانت الحالة الشعورية لموسى عليه السلام قد زادت حيرة ودهشة مما رأى من الأمور العظيمة التي يستنفد معها الصبر، وكذلك زاد مستوى العتاب لدى الخضر عليه السلام على موسى عليه السلام في كونه لم يصبر عن السؤال الذي عاهده عليه، فلما كان الموضعان قد تمايزا في المستوى النفسي والشعوري كانت المغايرة في البيان مناسبة لهذا المستوى من المعنى، يقول الزمخشري: «(إن قلت: ما معنى زيادة لك؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية)» (الزمخشري، 1998، 3 / 601).

فاللام إذا جاءت في سياق المقول المعلوم يكون ذكرها «لزيادة تقوية الكلام وتبليغه إلى السامع؛ ولذلك سميت لام التبليغ، ألا ترى أن اللام لم يحتج لذكره في جوابه أول مرة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشد» (ابن عاشور، 1984، 5/16).

ج- التشابه والتمايز بين موضعين في زيادة الكلمة

في قوله عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: 109، 110] وقوله عليه السلام: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: 34، 35] يرد السؤال البلاغي: لماذا جاءت زيادة ﴿بِسِحْرِهِ﴾ في قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ولم ترد في سورة الأعراف؟ فحين نتأمل السياقين للتعبير القرآني والقول المحكي نجد أن القول المحكي في سورة الأعراف يعود إلى الملأ، في حين أن القول المحكي في سورة الشعراء يعود إلى فرعون، وهو في كلا الحالين جرى مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله، والمعنى يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور؛ فنقرهم

عنه بذلك، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن الحق، (ينظر الرازي، 1981) والجمع بين اختلاف القولين للموقف الواحد له أكثر من توجيه:

الأول: أن تحمل على «أن فرعون قاله لمن حوله، فأعادوه بلفظه للموافقة التامة، بحيث لم يكتفوا بقول: نعم، بل أعادوا كلام فرعون ليكون قولهم على تمام قوله» (ابن عاشور، 1984، 124/19).

الثاني: أن تحمل زيادة ﴿بِسُحْرِهِ﴾ في الشعراء على أن القول هنا صدر من قول فرعون الطاغية حين عبر عن موسى عليه السلام، وهو أحق عليه من الملائكة بجمعهم، وأعظمهم بغضاً له وكراهة لما جاء به موسى عليه السلام، فأكد بقوله: ﴿بِسُحْرِهِ﴾ طمعاً في صغورهم لقوله، والثبات على ذنبه الشنيع ومرتكبه ورجاء أن يعتقد الملائكة من قومه أن آية موسى عليه السلام سحر لا توقف فيها، فلم يقنع بقوله لملائته: إنه لساحر عليم، وأنه يريد إخراجهم من أرضهم حتى سجل على ذلك وأكده طمعاً في قبول باطله، بقوله: ﴿بِسُحْرِهِ﴾، ولما لم يكن حال الملائكة من قومه كحالهم فيما ذكر اكتفوا بقولهم لرسولهم وبعضهم لبعض: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، فهذا قول الملائكة، والذي ثبت في الشعراء قول فرعون، وزيادة ﴿بِسُحْرِهِ﴾، لتبين حال الملائكة من حال فرعون المتولي كبير الأمور، والتناسب بين، وكل في السورتين وارد على ما يجب، وقد وضح أن العكس غير مناسب والله أعلم (ينظر الغرناطي، ت. 708هـ، ط 2013).

6. 2. 2. التشابه والتمايز بين موضعين في التعريف والتنكير

حين ننظر في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126] وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35] نجد أن التعبير عن البلد متشابه؛ إذ إنه تعبير عن مكان واحد وهو مكة المكرمة، بيد أن اللفظين تمايزا بين التعريف والتنكير، فالسؤال البلاغي هنا: ما سر تمايز التعبيرين عن مكة بين التنكير تارة والتعريف تارة أخرى؟ وبالنظر في سياق الآيتين يتبين أكثر من توجيه:

- أ. إما أن يوجه على أن هذا الدعاء ورد من إبراهيم عليه السلام مرتين على وقتين مختلفين، ويكون توجيه النكرة في سورة البقرة على أن اسم الإشارة (هذا) يعود إلى الوادي الذي دعا لأهله حين أسكنهم فيه، وهو قوله: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37] أو إلى المكان الذي صار بلداً، ولذلك نكره فقال: ﴿هَذَا بَلَدًا﴾، وحين صار بلداً قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35]. وقال: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 1] (ينظر أبو حيان الأندلسي، ت. 745هـ، ط. 1993) أو يحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام «سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فلا يخافون، وفي الثاني: أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها، وهي الخوف، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمن، كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمناً» (الرازي، 1981، 134/19).
- ب. أو يكون التوجيه بالنظر إلى السياق النصي السابق للآيتين، حيث إن آية البقرة سبقها ذكر للبيت الحرام، «فتحتمل آية التنكير أن يكون قبلها معرفة محذوفة، أي: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، ويكون ﴿بَلَدًا﴾ النكرة

توطئة لما يجيء بعده، كما تقول: كان هذا اليوم يومًا حارًا، فتكون الإشارة إليه في الآيتين بعد كونه بلدًا، (أبو حيان الأندلسي، 1993، 554/1) فاسم الإشارة هنا لم يقصد منه تبعيته بما بعده، اكتفاءً بالواقع قبله في قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 125] وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد، فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبين جنسه، كالجاري في أسماء الإشارة، اكتفاءً بما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان، فانتصب ﴿بَلَدًا﴾ مفعولًا ثانيًا، و﴿أَمْنًا﴾ نعتًا له، واسم الإشارة مفعولًا أول غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم مقامه، ولو تعرف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بيانًا زائدًا على ما تحصل مما تقدم، بل كان يكون كالتركرار، وأما الثانية فلم يتقدمها أي ذكر للبيت، وهنا يكون البلد تابع بدل من اسم الإشارة، معرف بجنس ما يشار إليه، لذا لم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعًا له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه باسم جامد (ينظر الغرناطي، 2013).

6. 2. 3. التشابه والتمايز بين موضعين في إبدال كلمة مكان الأخرى

حين نتأمل قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60] وقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: 160]. نجد أن الآية الأولى في سورة البقرة جاء التعبير فيها عن خروج الماء بلفظ ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ أما في سورة الأعراف فقد جاء التعبير عن خروج الماء بلفظ ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، فالسؤال البلاغي هنا: لماذا مآيز في التعبير القرآني بين هاتين الآيتين، فعبّر بلفظ ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ تارة، ولفظ ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، تارة أخرى؟

والجواب -والله أعلم- أن الفعلين وإن اجتمعا في المعنى، فليسا على حد سواء، بل الانبجاس ابتداء الانفجار، وهو أخف من الانفجار، والانفجار بعد غاية له (ينظر القرطبي، ت. 671هـ، ط. 2007؛ وابن عطية، 2002).

وإذا تقرر هذا، فإن الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى ﷺ السقيا قال ﷻ: ﴿إِذْ أَسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ وأما الوارد في سورة البقرة فإنه طلب موسى ﷺ من ربه قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، فطلب بني إسرائيل ابتداء، فناسب الابتداء ابتداء الانفجار، وأما طلب موسى ﷺ فكان هو غاية طلبهم وتضرعهم؛ فكان هو غاية خروج الماء وهو الانفجار؛ حيث إنه واقع بعده ومرتب عليه، فناسب الابتداء الابتداء والغاية الغاية، فقبل جوابًا لطلبهم: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، وقيل إجابة لطلبه: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فكان هذا التناسب بين الائتلاف اللفظي والائتلاف المقامي لأحوال الداعين، إذ إن الانفجار هو الأكثف ناسب دعاء المقام الأعلى من البشر وهو مقام دعوة النبي، وأما الانبجاس الأقل، فقد ناسب مقام الأدنى منزلة من النبوة وهم قوم موسى ﷺ، وكذا ناسب حال الزمن ابتداء من دعوة قوم موسى ﷺ إلى دعوة موسى ﷺ، فجاء الترتيب في الدعوات متناسقًا مع الترتيب في مراحل التعبير عن خروج الماء، وفي

مقام استجابة الله ﷻ لدعاء نبيه ﷺ وقومه، وهذا مما يبين دقة ألفاظ القرآن وإعجازه البياني؛ حيث إن اختيار الألفاظ يأتي دقيقاً، مقصوداً، مضيئاً سرّاً من أسرار البيان، ومظهرًا الحكمة من الاختيار لتلك الألفاظ، والإعجاز المتناهي، والاتلاف المتفرد، وجاء على ما يجب، ولم يكن ليناسب العكس (ينظر الغرناطي، 2013).

6. 2. 4. التشابه والتمايز بين موضعين في الترتيب

يقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102] وفي سورة غافر: يقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: 62] فالمتدبر لهذين الموضعين من القرآن يجد أن آية سورة الأنعام تقدمت فيها جملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في حين تأخرت عنها في سورة غافر، فالسؤال البلاغي الذي يصنعه البحث عن سبب اختلاف الترتيب: ما السر في اختلاف ترتيب النظم بين الآيتين؟

إننا حين نتأمل السياق الداخلي للآيتين نجد أن الذي سبق آية الأنعام ذكر الآلهة التي جعلها المشركون لهم إلهًا، يقول ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ فكان الأنسب لمقابلة إبطال زعم المشركين وشركهم أن يقدم كلمة التوحيد الدالة على وحدانيته ﷻ:

فقدم ﷻ هنا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وعكس هناك، قال بعض المحققين: لأن هذه الآية جاءت بعد قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ فلما قال ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أتى بعده بما يدفع الشبهة، فقال ﷻ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وتلك جاءت بعد قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فكان الكلام على تثبيت خلق الناس وتقريره، لا على نفي الشريك عنه جل شأنه، كما كان في الآية الأولى؛ فكان تقديم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هناك أولى، والله تعالى أعلم بأسرار كلامه (الألوسي، ت. 1270هـ، ط. 1964، 244/7).

أما في سورة غافر فإن سياق الآية جاء بعد ذكر الساعة وأنها حق، مع إثبات أن أكثر الناس منكريها، وهو أنه ﷻ مبدأ كل شيء فكذا إعادته، وكذلك القادر ﷻ على استجابة الدعاء، فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم ولم يتقدم هنا ما تقدم في آية الأنعام، أتبع بالتنبيه على أنه ﷻ خالق كل شيء، فكان تقديم هذا التعريف هنا أنسب وأهم، وهو ما يدل على كمال قدرته ﷻ وإحاطته بكل شيء؛ فقدم قوله ﷻ: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (ينظر الغرناطي، 2013).

6. 2. 5. التمايز والتشابه في الفاصلة القرآنية

حين يتأمل المتدبر قوله ﷻ عن المنافقين: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 12، 13] يشد انتباهه الفاصلة القرآنية التي جاءت في نهاية كل تعقيب إلهي على جواب المنافقين حين طلب ترك الفساد، وكذلك الإيمان فجاءت الفاصلة القرآنية الأولى مع ادعائهم الصلاح ببيان الحكم عليهم بالفساد

وحصره عليهم، وختمت: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أما مع طلب الإيمان، وحكمهم على المؤمنين بالسفهاء فجاء التعقيب القرآني بأن السفه محصور عليهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهنا يتكوّن السؤال البلاغي من خلال البحث في التمايز بين هاتين الفاصلتين في النظم القرآني: ما سر التمايز بين هاتين الفاصلتين؟

حين نتأمل الفساد نجد أن معرفته لا تحتاج إلى مزيد من العلم، بل يعرف بأدنى تأمل، ونفاقهم وأعمالهم التي تفضي إلى الفساد أمر محسوس يدرك بالشعور (ينظر الرازي، 1981)، وهذا إيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة؛ لكن لا حس لهم حتى يدركوه (ينظر أبو السعود، ت. 982هـ، ط. 1971)، فالشعور راجع إلى معنى الإحساس وهو مأخوذ من الشعار، وهو ما يلي الجسد ويأشّره، فيدرك، ويحس به من غير فكر أو تدبر، وإذا تقرر أن الفساد أمر لم يدركوا الحس فيه، كما في الفاصلة، تبين جمالية التعبير عن إجمال الفساد الذي أثبتته المنافقون وادعوا الإصلاح، وأن الإصلاح الذي جاء به الله ﷺ شاملٌ للإصلاح الظاهر والباطن، إذ ليس الإصلاح في مكتسبات الأرض والمحافظة على الممتلكات الظاهرة فحسب، بل الإصلاح يشمل إصلاح الفساد الظاهر وإصلاح الباطن من ترك إظهار المعاصي على وجه الأرض — كما قاله ابن عباس وقتادة والسدي — وكذلك المحافظة على المجتمعات من الفساد الخلقي، وإظهار العفة، وصيانتها مما يفسده فساداً قد لا يراه المنافقون واقعاً ولا يحسون فيه؛ وهذا الفساد المجتمعي غير المادي هو أساس حقن الدماء وصيانة الأعراض وسكون الفتن، وهو مصدر الصلاح للأرض وأهلها.

وقد حمل بعض العلماء الفساد الذي ادعاه المنافقون إصلاحاً، إما على المعاصي التي فيها فساد المجتمعات، وإما على ادعاء المنافقين أن اتصاهم بالكفر ومخالطتهم إنما كان أجل مداراتهم والسلامة منهم، أو على أن فعلهم هذا الذي يعتقدونه إنه هو الصواب في تقوية دينهم وتطهير الأرض من الفساد. (ينظر الرازي، 1981)؛ لهذا كان النفي عنهم عن طريق الشعور.

أما الإيمان فإنهم لم يدعوا الإيمان كما هو الحال في الإصلاح، لأنهم يدركون حق الإدراك أن مصدر الإيمان إنما هو العلم بما جاء به الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ، وأن العلم به لا يكون إلا عن فكر وروية ونظر يحصله طالبه؛ لذا لم يكن لديهم مجال في التصريح بإنكار أصل الإيمان حتى لا يوصموا بالكفر، فعدّلوا إلى الذوات؛ هروباً من الحكم عليهم بالكفر، فربطوا الإيمان بالأشخاص، حتى يكون النقد لسلوك التابعين له، وليس لأصل الإيمان فقالوا: ﴿أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ولما كان الإنكار لديهم مقابل الإيمان، فلم تحمل إجابتهم مطلق الإيمان والاعتراف به جاءت الفاصلة القرآنية ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل أمر عقلي نظري، ومعرفة السفه لا يكفي في إدراكه والنهي عنه إلا قولة العلم، ولما في السفه — وهو الجهل — من تقابل مع العلم، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوطٌ بالتمييز بين الحق والباطل؛ وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال؛ ختمت الآية بنفي

العلم، فجاءت كل آية بما يناسب ذلك من الشعور والعلم (ينظر ابن عاشور، 1984؛ أبو السعود، 1971؛ البقاعي، 1984؛ الرازي، 1981؛ الغرنطي، 2013).

وبهذا، تتبين الفواصل القرآنية في أواخر الآيات، وأن ما يذكره بعض البلاغيين من رعاية الفواصل فحسب، ليس أمراً كافياً في توجيه جماليات الفواصل القرآنية؛ إذ فيها من الأسرار والعجائب ما يتصل بائتلافها مع مطالع السور وسياقات الآية الداخلية والخارجية، وكذلك سياقاتها البعدية، وأيضاً ما فيها من تناسق الفاصلة مع حسن جوارا الفواصل وتناسقها في السورة الواحدة.

6.3. العدول في التراكيب⁽⁵⁾

وهذا يتطلب إدراكاً عاماً للمسائل النحوية والقواعد الإعرابية؛ إذ لا يمكن أن يدرك القارئ العدول فيها إلا إذا عرف الأصل في التركيب النحوي، مثل: معرفة الجملة الفعلية ومواقعها ومتطلباتها، وكذلك الجملة الاسمية ومواقعها ومتطلباتها، وما فيها من المسائل المتعلقة بالتراكيب النحوية، من تقدير وتأخير، أو حذف وذكر، أو تعريف وتنكير، أو إطناب وإيجاز، أو حصر وغيرها، وما بين الجملة الخبرية والإنشائية وأبوابها المختلفة من سمات تتصل بكل فن من تلك الفنون وتختص به، ثم ما يتبع تلك الأركان للجملة من متعلقات ومبنيات لها معانيها الخاصة، وسياقاتها المعهودة التي يدرك المتدبر وجود آيات كثيرة خرجت عن هذا المقتضى اللغوي أو المقتضى الظاهر للمقام؛ مما يبعث في ذهنه صناعة سؤال: ما السر خلف هذا الخروج في الاستعمال القرآني؛ ليجد نفسه أمام نتائج مبهرة لدى علماء التفسير والبلاغة.

ولعلي أكتفي بمثال واحد حول الإسناد الخبري وأحوال المسند والمُسند إليه؛ فمن ذلك: قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] فإذا تأمل المتدبر هذه الآية وجد فيها فعلين: ﴿مَرِضْتُ﴾ و ﴿يَشْفِينِ﴾ ولكل فعل إسناد فاعل مختلف في الظاهر عن الآخر، مع أن الله ﷻ هو من يقدر المرض وكذلك الشفاء. فهذا مما يثير لدى المتأمل السؤال البلاغي: ما السر في نسبة إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه. مع علمه أن الأمر كله لله ﷻ؟

إن إبراهيم عليه السلام يعلم علم اليقين أن ما يحدث في هذا الكون هو من عند الله ﷻ، بل إن سياق هذا الموقف جاء لتقرير هذه الحقيقة العقديّة في رده على عبادة المشركين لألهتهم، لكنه أسند الفعل إلى نفسه، فما السر في ذلك؟ إنه حسن الأدب الذي يتمثله إبراهيم عليه السلام في كل خطابه لله ﷻ، وحديثه عن الله ﷻ، حيث راعى فيه الإسناد إلى الأسباب الظاهرة في مقام الأدب، فأسند إحداث المرض إلى ذاته؛ ولأنه المتسبب فيه (ينظر ابن عاشور، 1984؛ والقرطبي، 2007؛ والبقاعي، 1984).

ونلاحظ في هذه الآية كذلك تنويراً لعدة أسئلة في التركيب والإسناد الخبري، يدركها المتأمل، منها: لماذا عبر في هذه الآية بأسلوب الشرط، والجملة التي قبلها وبعدها باسم الموصول؟ ولم قدم المسند إليه ﴿فَهُوَ﴾؟ وكذلك لماذا أتى بـ ﴿فَهُوَ﴾ ولم يوردها في الآية التالية لها ﴿وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِيَنِي﴾ [الشعراء: 81]؟ ولم جعل فعل المرض ﴿مَرِضْتُ﴾ ماضياً

وفعل الشفاء ﴿يَشْفِين﴾ مضارعاً؟

أما تكرار اسم الموصول في المواضع الثلاثة مع أن مقتضى الظاهر أن تُعطف الصلتان على الصلة الأولى، فجاء للاهتمام بصاحب تلك الصلوات الثلاث؛ لأنها نعت عظيم لله ﷻ فحقيق أن يجعل مستقلاً بدلالته (ينظر ابن عاشور، 1984) أما هذه الآية فإن إبراهيم ﷺ عبده ﷻ شاكراً لأنعمه، فليس من حسن الأدب أن يعبر عن حال الصحة التي هو فيها بأسلوب يفترض فيه وقوع الشر وهو المرض، فليس من مقامات النبوة وحسن الأدب مع الله أن يقول: والذي يمرضني ويشفيني، بل علق ﷻ شرط المرض حين يقع بجواب الشفاء وحصره عليه ﷻ فاختار هذا الأسلوب أدباً وشكراً وحمداً وثناءً على إنعامه ﷻ، وإظهار شكره، «(إن) (إذا) تخلص الفعل بعدها للمستقبل، أي: إذا طرأ علي مرض» (ابن عاشور، 1984، 143/19). وكذلك هو في معرض الرد على المشركين، وذكر ما يتوحد الله ﷻ به من الأفعال، فلعله تجنب ذكر المرض مع اسم الموصول الذي يفيد ثبات الصفة في الموصوف؛ حتى لا يشتمز المشركون من ذكر الله ﷻ في جلب الأمراض لهم، فراعى مجازة الخصم هنا، مع ما جاء في أدب إبراهيم ﷻ.

وأما تقديم المسند إليه ﴿فَهُوَ يَشْفِين﴾ فإنه قدمه؛ لتخصيصه ﷻ بأنه متولي الشفاء دون غيره؛ «لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب، وليس الضمير ضمير فصل؛ لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف» (ابن عاشور، 1984، 143/19).

وأما إيراد ﴿فَهُوَ﴾ في هذه الآية فإنه أوردها كذلك في الآيات التي سبقتها عند حيث قال الله ﷻ حكاية عنه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ لأن المقام مقام حصر لهذه الأفعال على الله ﷻ؛ حيث يزعم المشركون أنها من أفعال الآلهة فجاء بقصر القلب؛ إذا لا يهدي، ولا يطعم، ولا يسقي، ولا يمرض، ولا يشفي سواه ﷻ؛ لذا لما أتى على ذكر الإحياء والإماتة لم يحتاج للحصر؛ بقوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾؛ «لأنهم لم يكونوا يزعمون أن الأصنام تميت، بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم. فأما الموت فهو من فعل الدهر والطبيعة إن كانوا دهرين، وإن كانوا يعلمون أن الخلق والإحياء والإماتة ليست من شئون الأصنام، وأنها من فعل الله ﷻ» (ابن عاشور، 1984، 143/19). وأما جعله فعل المرض ماضياً، وفعل الشفاء مضارعاً، فإن التعبير عن الهداية، والإطعام، والسقاية، الإماتة، والإحياء بزمان المضارع لهذه الأفعال؛ فيه دلالة على تجدها من عند الله ﷻ وأنه قادر ﷻ عليها في كل وقت، أما المرض فجاء بالماضي مع سبقه بأداة الشرط (إذا) كي يتخلص بعدها للمستقبل؛ فيصبح المرض أمراً طارئاً لا أصلاً في حياة الشاكر لربه، الذي يظن بالله ﷻ الخير دائماً، والله أعلم.

6.4. المبنيات في التراكيب القرآنية

دراسة المبنيات ومعانيها الخاصة بكل نوع، وتدبر المعنى والسياق التي وردت فيه، وما مدى موافقتها للظاهر أو مخالفته أمرٌ ذو بال في صناعة السؤال البلاغي، وتوجيه البناء التركيبي.

وحين نتأمل الآيات القرآنية نجد أن الجمل قلما تخلو من المبنيات سواء كانت حرفية أو اسمية أو فعلية، والذي يهمنا في هذا المبحث ليس تعداد المبنيات أو معرفة ما تختص به، فهي مبثوثة في تصانيف اللغويين والبلاغيين.

إنما يعنينا كيف تصبح تلك المبنيات مثاراً لصناعة السؤال البلاغي، وما مدى أهميتها في صناعة هذا السؤال؛ إذ إن انتخابها للموضع الذي جاءت فيه ليس أمراً تكميلياً، بل هو أمر أساس في الاعتبار المناسب، والمقتضى المنشود؛ لذا جعل السيوطي (ت. 911هـ، ط. 2012) معرفة معاني هذه الأدوات والأبنية من الأدوات التي يحتاجها المفسر، وبوب لها باباً مستقلاً، يقول: «وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف» (ص. 357). ثم قال:

اعلم أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة؛ لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها، كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24] فاستعملت (على) في جانب الحق، و(في) في جانب الضلال؛ لأن صاحب الحق كأنه مستعمل، يصرف نظره كيف شاء، وصاحب الباطل منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجه (ص. 357).

وسأقف على بعض المبنيات بإجمال مع بيان الأمور التي تصنع السؤال البلاغي في كل نوع من تلك المبنيات، منها:

6.4.1. الضمائر

الضمائر من الأسماء الجامدة المبنية التي وضعت لتدل على المتكلم أو المخاطب أو المتكلم، ولها ألفاظ متعددة، منها ما هو متصل، مثل: هاء الغائب، واو الجماعة، وياء المتكلمة، وغيرها، ومنها ما هو منفصل، مثل: أنا، وهو، وأنت، والتفصيل في أنواعها واختصاص كل نوع منها ليس هذا مقامه، ومن أهم خصائص الضمائر أنها تأتي للاختصار، فهي تقوم مقام الاسم الظاهر؛ لذا قال العلماء: إن قوله ﷻ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: 35] قامت هذه الآية -في ضمير (لَهُمْ)- مقام خمس وعشرين كلمة لو أتى بها مظهرة (ينظر السيوطي، 2012)، وهي التي جاءت في صدر الآية في تعداد الصفات: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وما تلاها من صفات.

والذي يعنينا من الضمائر في صناعة السؤال البلاغي أن ندرك أن الأصل في الضمير الاختصار، وأن لكل ضمير مرجعاً يعود إليه، وهذا المرجع هو أقرب مذكور، وأن دلالته على ما وضع له في التطابق اللغوي أو المقامي في الغيبة والخطاب والتكلم، وفي التذكير والتأنيث، وفي الأفراد والتثنية والجمع، ومع أهمية هذه الأصول في صناعة السؤال، وتسبب اختيار الضمير في المكان المناسب إلا أن النظم القرآني في تراكيب الضمائر تخرج إلى أحوال متعددة تجعل المتدبر

يتأملها، وتمنحه الفرصة في صناعة السؤال البلاغي، منها:

- قد يعدل النظم عن الظاهر إلى الضمير؟ أو يعدل عن الضمير إلى الظاهر. مثل قوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:1] حيث جاء الضمير بدءاً عن الاسم الظاهر في: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إذ لم يسبق للضمير مرجع يعود عليه في السياق الداخلي، وهذا ما يجعل المتدبر يصنع سؤالاً: لم بدأ بالضمير دون وجود مرجع له؟ وفي هذا ((تنويه بشأن القرآن الكريم، وإجلال لمحله بإضماره المؤذن بغاية نباهته، المغنية عن التصريح به، كأنه حاضر في جميع الأذهان، وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به، وتفخيم وقت إنزاله)) (أبو السعود، 1971، 557/5).
- ما يرد على أسلوب الالتفات، وهو العدول من ضمير الغائب إلى المخاطب، أو العدول من المخاطب إلى الغائب، أو من الغائب إلى المتكلم وما يشبهها من تلك الانتقالات والتفنن في النظم القرآني. من ذلك قوله ﷺ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:22] حيث تفنن في الخطاب، فانتقل من التكلم إلى الخطاب، إذ «الأصل: (وإليه أرجع)، فالتفت من التكلم إلى الخطاب ونكتته: أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه، وهو يريد نصح قومه؛ تلطفاً وإعلاماً أنه يريد لهم ما يريد لنفسه، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله ﷻ» (السيوطي، 2012، ص.649).
- ما يتنوع الخطاب بين دلالة العدد في الضمير والمخاطب إفراداً وتثنية وجمعاً، فقد يأتي خطاب الواحد بلفظ الجمع، أو خطاب الواحد بلفظ الاثنين، أو خطاب الاثنين بلفظ الواحد، أو خطاب الاثنين بلفظ الجمع، أو خطاب الجمع بلفظ الاثنين، أو خطاب الجمع بعد الواحد وعكسه، أو خطاب الاثنين بعد الواحد وعكسه، أو خطاب المعين والمراد غيره، أو عكسه، إلى غير ذلك من تنوع توجيه الضمائر إلى أصحابها. وهذا ما يجعل المتدبر يصنع السؤال: ما سر هذه الانتقالات؟ ومن الأمثلة على هذا التنوع قوله ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس:61] فيلاحظ المتأمل أن الضمير في ﴿تَكُونُ﴾ و ﴿تَتْلُو﴾ جاء على خطاب المفرد، ثم أتبع الخطاب بـ ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهنا يصنع السؤال: ما سر هذا العدول في الخطاب من الواحد إلى الجمع؟ يقول ابن الأنباري: «جمع في الفعل الثالث؛ ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ» (السيوطي، 2012، ص.548). ولعل اتحاد ضمير خطاب المفرد في الأول والثاني؛ لأن تلاوة القرآن جزء من الشأن الذي تكون فيه يا محمد، فعطف الخاص على العام؛ للاهتمام به، فإن التلاوة أهم شؤون الرسول ﷺ، وأما الفعل الثالث فهو وإن كان النبي ﷺ داخلاً في الخطاب إلا أنه عموم لأي عمل تعمله الأمة، ويكون تقديم الشأن يخصص عموم الخطاب في العمل (ينظر ابن عاشور، 1984).
- دلالة الضمير على الذات المتكلمة بين الجمع والإفراد، مثل: إيراد الحديث عن الذات بضمير الجمع، أو الجمع بضمير الإفراد. ما سر هذا الأمر الذي يخالف مقتضى الظاهر؟ مثل قوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:1]

حيث جاء افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنبؤه شأن النبي ﷺ، وهذا الاهتمام والبشارة الخير، والوعد من ملك الملوك الذي عطاؤه لا ينفد، وقوته لا تغلب ﷺ يناسبها المجيء بضمير العظمة (نا)، وهو مشعر بالامتنان بعطاء عظيم (ينظر ابن عاشور، 1984).

- أو العكس بإيراد الجمع بلفظ المفرد كما في قول الله ﷻ حكاية عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف: 51] وهنا الأنهار لا يمكن أن تجري في القصر من تحت فرعون وحده، والقصر فيه من الخدم والحاشية وغيرهم، مما يجعل المتأمل يسأل كيف عبر عن نفسه فقط وتناسى الآخرين حين أضاف الظرفية لنفسه؟ إن هذا ما يتسق مع المستكبرين الذين الجاحدين للنعم، الطاغين في تضخيم ذواتهم فينسبون الأشياء لأنفسهم، وغيرهم لا قيمة لهم، فجاء القول المحكي متسقاً مع حال فرعون، وجبروته، وإدعائه اختصاص النعم. واتساقاً كذلك مع حديث القرآن عن المستكبرين في القرآن وإضافة الممتلكات لأنفسهم، وإشعار المستمع أن هذا فضل خاص بهم.

- البحث عن مرجع الضمير، فحين يتدبر الآيات قد يجد خروجاً عن الأصل في المرجع، فالمرجع إما أن يكون ملفوظاً سابقاً مطابقاً للضمير إفراداً وتثنية، وهذا على الأصل، أو يكون متضمناً له، فقد لا يظهر من السابق لمخالفة الضمير لما قبله تذكيراً وتأنياً، أو يكون دالاً عليه بالالتزام؛ حيث لم يذكر أي مرجع ظاهراً قبل الضمير، أو متأخراً لفظاً لا رتبة، أو يدل على المرجع السياق فيضمّر، أو يعود على بعض ما تقدم، أو يعود على أحد المذكورين قبله وهو ليس الأقرب (ينظر السيوطي، 2012) إلى غير تلك المراجع التي تفتح للمتدبر البحث عن المرجع، فيجد نفسه قد صنع سؤالاً بلاغياً، يتطلع إلى معرفة أسرار، من ذلك قوله ﷻ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 62] فيتساءل المتأمل هنا: لماذا أعاد الضمير في ﴿يُرْضَوْهُ﴾ إلى واحد مع أن المتقدم على الضمير لفظ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؟ يجيب عن ذلك السيوطي بقوله: «(أراد (يرضوهما)، فأفرد؛ لأن الرسول ﷺ هو داعي العباد، والمخاطب لهما شفاهاً، ويلزم من رضاه رضا ربه ﷻ)» (السيوطي، 2012، ص. 450).

- النظر في تنوع إسناد التراكيب إلى الضمائر، واختلاف الإسناد حسب مراد المتكلم، وتوظيف سياقاته. مثل قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: 71] فنلاحظ هنا أن موسى ﷺ مع كونه راكباً في السفينة والغرق سيشملهم إلا أنه عبر بـ ﴿لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ حين أنكر على الخضر ﷺ خرق السفينة، فأسند الضمير إلى أهل السفينة. وهنا يتساءل المتدبر. ما سر هذا العدول نحو الأهل؟ إننا حين نتأمل هذا العدول عن ضمير الذات (لتغرقنا) إلى ضمير الغائب تبين من خلال سمو اهتمام موسى ﷺ بشأن الأمة ورعاية مصالحها، وتقديمها على رغبات النفس، واستبعاد إنكار الفعل الذي رآه من أجل ذاته وحفظ نفسه، وأن هذا الإنكار كان نابغاً من اهتمامه بمؤلاء، وهذا امتداد لسمو صفات الأنبياء التي سمى الله ﷻ بعضهم بأنه أمة.

- أهميته في تأكيد الكلام وقصر الكلام على ما بعده، والأسرار المتعلقة بهذا القصر والتأكيد. مثل قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] فما سر مجيء الضمير في ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؟ هذا هو ضمير الفصل الذي يدل على أسلوب القصر، وهو وإن كان الكلام يتسق بدونه في غير القرآن إلا أن له دلالة اقتضاء واعتبار مناسب من مجيئه، حيث أفاد التكرار لـ ﴿أُولَئِكَ﴾ ومجيء ضمير الفصل، والتعريف في ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى اختصاص هؤلاء بهذا الوصف العظيم الذي يختص بهم دون غيرهم، ولإزالة شبهة أن يشاركهم أحد في هذا الوصف الإيماني وهو الفلاح، يقول الزمخشري (1998):

«فانظر كيف كرّر الله ﷻ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصر مراتبهم، ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته، ولم تسبق به كلمته» (161/1).

6. 4. 2. أسماء الإشارة

إن من المبنيات التي تؤثر في بناء التركيب القرآني اسم الإشارة الذي يدل على شيء معين بواسطة اسم الإشارة، ومنها أسماء تشير إلى القريب، وهي ستة أسماء: هذا، هذه، هذا، هاتان، هؤلاء، هنا، وأسماء أخرى تشير إلى البعيد، وهي سبعة أسماء: ذلك، ذاك، تلك، هناك، ذانك، هنالك، أولئك.

والذي يعيننا في صناعة السؤال البلاغي أن ننظر في دلالة استعمالها، وما تشير إليه، ونقف على أهمية السؤال عن جمالية المشار إليه ومعرفة أسرار اختياره، والعدول إلى التعريف بالمسند إليه من الاسم الظاهر إلى اسم الإشارة، وما تحمله من استحضر للمعرف به في ذهن السامع، وما يصبو إليه المتكلم من دواعٍ متعددة في اختيار التعريف بالمسند إليه عن طريق اسم الإشارة، مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] لقصد التعظيم بقربه، وإشارة إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن قبل هذه الآية، وبُيِّنَت الإشارة بالاسم الواقع بعدها؛ تنويعاً بشأن القرآن (ينظر ابن عاشور، 1984م) كما نجد بُعداً آخر في جماليات الاستعمال، وهو وقوع البعيد موقع القريب، وكذلك عكسه، مثل يقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] حيث نجد أن القرآن تأتي الإشارة إليه في موطن باسم الإشارة الدال على القرب، وفي موضع آخر تأتي الإشارة لدلالة البعد، وهنا يصنع المتدبر السؤال: ما سر التعبير هنا عن القرآن بالإشارة الدالة على البعد؟ يجيب عن هذا البقاعي بقوله:

«هذا كتاب من جنس حروفكم التي قد فقمتم في التكلم بها سائر الخلق، فما عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله إلا لأنه كلام الله ﷻ أنتج ذلك كماله، فأشير إليه بأداة البعد ولام الكمال في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾

لعلّ مقداره؛ بجلالة آثاره؛ وبعد رتبته عن نيل المطرودين. ولما علم كماله أشار إلى تعظيمه بالتصريح بما ينتجه ويستلزمه ذلك التعظيم فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في شيء من معناه، ولا نظمه في نفس الأمر عند من تحقق بالنظر» (البقاعي، 1984، 79/1)

6. 4. 3. الأسماء الموصولة

وهو من الألفاظ المخصوصة التي تدل على معين بواسطة جملة أو شبهها، تذكر مباشرة بعدها، وتسمى صلة الموصول، وألفاظها الذي، التي، اللذان، اللتان، الذين، اللاتي، اللاتي، وهذه الأسماء تأتي بمقام (أل) في الأسماء المفردة، حيث تأتي الأسماء الموصولة يتوصل بها إلى وصف المعرفة بالجملة، فهي نعت للمعارف، وأما مَنْ (للعاقل)، وما (لغير العاقل) المهمتان، فمع كونهما يقومان مقام (الذي) إلا أنهما لا يكونان نعتاً للمعارف (ينظر أبو حيان الأندلسي، 1993) ومع هذا لا يصح إظهار منعوتهما، فتقول: الكتاب الذي قرأته مفيد، ولا يجوز أن تقول: الكتاب من قرأته مفيد؛ لأن (من) لا يوصف بها، بل تكون هي محل المنعوت (ينظر ابن الحاجب، ت. 646هـ، ط. 1989).

والمهم في تراكيب الاسم الموصول: البحث في سر العدول إلى الاسم الموصول، وجعله هو المعرف للمسند إليه، وترك الاسم الظاهر الذي يحل الاسم الموصول محله؛ لتخصيصه والدلالة عليه، مثل قوله ﷺ: ﴿وَرَأَوْنَاهُ الَّذِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: 23] فهنا يلفت انتباه المتدبر، لماذا لم يصرح باسم المرأة أو امرأة العزيز، وما السر في إقامة الاسم الموصول مقام الاسم الظاهر؟ وفي هذا إشارة إلى المراد المقصود من هذا العدول، فمما وجهه العلماء أنه «لم يصرح باسمها، ولا بامرأة العزيز؛ سترًا على الحُرْم، والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول: ربة البيت، وصاحبة البيت». (أبو حيان الأندلسي، 1993، 5/ 294) وكذلك فُسِّر العدول على إظهار معنى تمكّن المرأة في البيت التي نسبت إليها، وللفت الانتباه إلى أن المراودة جاء من صاحبة البيت، وما تؤذن به الصلة من قصد تقرير عصمة يوسف ﷺ؛ لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها (ينظر أبو حيان الأندلسي، 1993).

وكذلك تبعية الاسم الموصول حين يأتي بعد الاسم الظاهر أو اسم الإشارة، وما يصبو إليه المتكلم من بناء صلة الموصول الذي جاءت لتخصص هذا الاسم الموصول، وتحمل دلالات مقصودة، كما في قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هَرُّوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41] فما سر مجيئه بعد اسم الإشارة؟ جاء النظم البديع بتقديم الحصر ﴿إِنْ يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هَرُّوا﴾ ثم تلاها الاستفهام ﴿أَهَذَا﴾ الإنكاري الذي يفيد الاستهزاء والاستصغار، واتصل الاستفهام باسم الإشارة المستعمل في القرب للاحتقار والاستصغار، إذ أنكروا كونه رسولاً بهذا الاستصغار، وكذلك بإخراجهم الكلام في معرض التسليم والإقرار - وهم على غاية الجحود والإنكار سخريّة واستهزاء، ولو لم يستهزؤوا لقالوا: هذا زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا، لكنهم جاؤوا بصلة الموصول التي يبنون عليها سخريتهم، ويخرجون كلامهم على الإقرار والتسليم هزواً واستصغاراً، دون أن يكون لديهم المجال في نقاش نبوة محمد ﷺ أو التفكير في مناقشة

دعواه النبوة. (ينظر أبو حيان الأندلسي، 1993، 6/ 458؛ التحرير والتنوير، 1984، 32/19).

وكذلك انتخاب المبهم (من، وما) مكان الاسم الموصول المخصص، وما في اختيار (من) موضع (ما)، أو العكس. مثل قوله ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: 66] فالذي في ملك الله ﷻ الكون كله من العقلاء وغيرهم، فما السر في مجيء (من) الدالة على العقلاء دون (ما) في قوله ﷺ: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؟ حيث عبّر عن العقلاء المميزين مع دخول غيرهم في المعنى من غير العقلاء؛ ((ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مملكته فهم عبيد كلهم، وهو ﷻ، رهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق ألا يكون له نداً وشريكا)) (الزمخشري، 1998، 158/3).

ففي هذه الاختيارات تجعل المتدبر أمام صناعة سؤال بلاغي، يفتح له كشف أسرار تلك التراكيب في الأسماء الموصولة، والبحث عن الدواعي التي جعلت المتكلم يعرف المسند إليه أو المراد الحديث عنه عن طريق تراكيب الاسم الموصول.

6. 4. 4. أدوات الاستفهام

الاستفهام عبارة عن تركيب لغوي يستخدمه السائل لطلب فهم شيء له لم يتقدم له العلم به، عن طريق إحدى أدواته، منها: الهمزة، وهل، ومن، وما، ومتى، وأيان، وأين، وكيف، وكم، وأنى، وأي.

والذي يفتح المجال لصناعة السؤال البلاغي في بناء أسلوب الاستفهام في القرآن أن يدرك أن الأصل في السؤال جهالة السائل وعدم العلم بما يسأل عنه، وهذا هو السؤال الحقيقي، ولكون البحث في القرآن فإن هذا الأمر منتفٍ في حق الله ﷻ، فالله ﷻ له كمال الإحاطة والعلم بكل شيء؛ لذا سيجد المتأمل في الآيات التي يصدر فيها من الله ﷻ أنه أمام سؤال مجازي له دلالاته المتعددة، وسياقاته المختلفة، من التعجب، والوعيد، والإنكار، والتقدير، والنهي، والنفى، والتهكم، والاستبعاد، والتهويل، والتحقيق، والتكثير، والتمني، وغيرها، فيبحث عن سر كل سؤال يمر به، مثل قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87] فهذا النظم ظاهره الاستفهام، ومعناه: تقرير الخبر وهو كمال صدق الله ﷻ، ونفي المشابهة له في كمال صدقه، فهو استعمال جاء على معنى النفي، وتقديره: لا أحد أصدق من الله ﷻ؛ لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علتة الخوف والرجاء، أو سوء السجية، وهذه منفية في حق الله ﷻ، وتقدس أسمائه، والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان المخبر موافقا لما في قلبه وللأمر المخبر عنه في وجوده (ينظر ابن عطية، 2002).

وكذلك مما يتصل بالاستفهام النظر في جماليات التركيب من حيث تقديم تراكيب الجملة فالذي يلي حرف الاستفهام هو المسؤول عنه، كما في قوله ﷻ: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 62] حيث إن المسؤول

عنه والمنكر لدى السائل هو الاسم الفاعل هنا، وليس الفعل؛ إذ الفعل قد حصل، فقدم السؤال عن الفاعل، ولو كان السؤال عن الفعل لقال: (أفعلت هذا) وهذا ما قرره (ينظر الجرجاني، 1993).

6. 4. 5. حروف المعاني

الحروف تتألف من قسمين: القسم الأول: حروف المباني، وهي الحروف الهجائية التي تتألف منها الكلمات، ولا تحمل أي دلالة بذاتها سوى أنها تساهم في بناء اللفظة ثم الجملة.

أما القسم الآخر فهي حروف المعاني، وهي كل كلمة تدل على معنى في غيرها، وترتبط بين أجزاء الكلام، فتربط الأسماء بالأفعال، والأسماء بالأسماء، وتتركب من حرف أو أكثر من حروف المباني.

وحروف المعاني كثيرة: منها: حروف النصب للفعل المضارع: لن وأخواتها، وحروف الشرط: إن، وأخواتها، وحروف التحضيض: ألا، وأخواتها وحرف الردع: كلا، وحروف التوقع: قد، (تحقيق قبل الماضي، وتقليل قبل المضارع)، وحروف النفي: لن، وأخواتها، وكذلك حروف الجر: من وأخواتها، وحروف الاستثناء إلا وأخواتها، وحروف النداء الهمزة، يا، وأخواتها، والحروف المشبهة بالفعل إنَّ، وأخواتها، وحروف المفاجأة: إذا، إذ، وحروف التفضيل أما، إما، وحروف التنبيه ها، وأخواتها، وحروف النفي: لا، وأخواتها، وحروف العطف: الواو، وأخواتها، وحروف الجواب: نعم، وأخواتها، وحرف الاستفهام: هل، الهمزة، وحرف التفسير: أي، أن، وحرف الاستفتاح ألا، أما، وغيرها من الحروف التي تحمل معنى في غيرها.

وفي هذا البحث سأشير على نوعين من حروف المعاني، هما: حروف الجر، وحروف العطف.

6. 4. 5. 1. حروف الجر

هي الحروف التي تدخل على الأسماء فقط، فتعطيها حكم الجر (الخفض)، وقد سُميت بهذا الاسم لأنها تجرّ معنى الفعل الذي سبقها إلى الاسم الذي يليها، أو لأنها تجرّ الاسم الذي بعدها، أي تخفضه، وهي كثيرة، والذي يعيننا في صناعة السؤال البلاغي مع حروف الجر أن نعرف معاني كل حرف منها، وما يختص به، ثم نتأمل الآيات التي ورد فيها حرف الجر، إذ إن كثيراً من حروف الجر لها أكثر من معنى، فما المعنى المناسب لكل حرف جر في النظم القرآني؟

وكذلك يتساءل المتأمل: هل جاء على الاستعمال الأصلي الذي وضع له في اللغة، أم جاء نائباً عن حرف آخر، وما الذي ترتب عليه استعمال هذا الحرف في مقام الحرف الآخر من التضمنين وغيره، مثل قوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: 77] فالسؤال البلاغي هنا: لماذا جاء التركيب للفعل (وَنَصَرْنَاهُ) معدى بحرف الجر (من) مع كون حرف التعدية الذي يأتي مع النصرة هو (على)، إن هذا من باب التضمنين الذي يجعل الفعل يحمل معنيين: الأولى هو المعنى الظاهر وهو النصرة، والمعنى الآخر بما يناسب حرف التعدية وهو النجاة والمنعة؛ وهذا ضرب من ضروب الإيجاز في الآية. يقول ابن عاشور:

«وعدي ﴿وَنَصْرُنَا﴾ بحرف (من)؛ لتضمنه معنى المنع والحماية، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ مِنْكُمْ لَا تَنْصُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥]، وهو أبلغ من تعديته بـ (على)؛ لأنه يدل على نصر قوي، تحصل به المنعة والحماية، فلا يناله العدو بشيء، وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة» (ابن عاشور، 1984، 113/17).

كذلك ننظر في الحروف التي تسمى - في غير القرآن - زائدة ما السر البلاغي التي جاءت به، مثل قوله ﷺ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 3] وهنا يتأمل المتدبر والصانع للسؤال البلاغي ما سر مجيء ﴿مِنْ﴾ التي يستقيم الكلام في غير القرآن بدونها؟ فإذا تأمل السؤال الذي جاء بمعنى النفي؛ تبين له أن هذا النظم البديع جاء ليحمل معنى النفي مع التحدي، وهذا هو الأبلغ، حيث جاءت (من) بتوكيد هذا النفي، والتنصيص على الأمور المرادة (ينظر أبو السعود، 1971؛ والعثيمين، ت. 1421هـ، ط. 2016).

وكذلك في الجملة التي حذف منها حرف الجر. ما تقديره، وما السر في حذفه، وما المعنى الذي أكتسبه التركيب مع الحذف؟ مثل قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 66] فيلاحظ المتأمل أن الفعل ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ من الأفعال اللازمة التي لا تصل إلى المفعول بذاتها، بل لابد من تعديها بواسطة حرف الجر إلا أن الآية جاءت بدون حرف الجر. فما سر هذا الحذف؟ نلاحظ هنا أن الفعل ضَمَّنَ معنى (ابتدروا)؛ من أجل بيان مدى إسرعهم في الحرب (ينظر البقاعي، 1984) أو على وجه تعدي الفعل بطريقة الحذف والإيصال، وما يسمى بالنصب على نزع الخافض، إلى غير تلك الأسرار التي حين يتأملها المتدبر مع حروف الجر يجد فيها قدراً كبيراً من دلائل الإعجاز.

6. 4. 5. 2. حروف العطف

حروف العطف تتوسط بين التابع والمتبوع للربط في المعنى بينهما، حسب ما يريده المتكلم من معاني الربط والترتيب، وهي الواو، الفاء، ثم، أو، أم، لا، لكن، حتى، بل.

والذي يفتح المجال للسؤال البلاغي في حروف العطف النظر في استعمالاتها، ولم المتكلم اختار التشريك أو الترتيب التعاقبي، أو الترتيب المتراخي، مثل قوله ﷺ: في قصة موسى عليه السلام مع فتاه: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: 61] وقوله ﷺ بعدها: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63] والسؤال هنا: لماذا عطف بالفاء في الأولى ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ ثم تركه، وعطف الثانية بالواو في قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾، يقول الكرمانى: «لأن الفاء للتعقيب والعطف، وكان اتخاذ الحوت السبيل عقيب النسيان، فذكر بالفاء، وفي الآية الأخرى، لما حيل بينهما بقوله: ﴿وَمَا أُنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ زال معنى التعقيب، وبقي العطف المجرد، وحرفه الواو». (الكرمانى، ت. 500هـ، ط. 2010، ص. 257).

ولم عدل عن الكلام واستدرك عليه، أو أضرب عنه، مثل قوله ﷺ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: 5] هنا يلحظ المتأمل إعادة حرف الإضراب (بل) فما سر تكراره؟ حين نتأمل المعاني التي اشتمل عليها الإضراب نجد دعاوى المشركين في الحكم على النبي ﷺ سجل الله ﷻ الحالة الشعورية

التي يعيشونها في الحيرة في الحكم على النبي ﷺ وفي كونهم مترددين في الجزم عليه بحالة واحدة؛ نظراً لضعف حجته أمام صدق النبي ﷺ، وما آلمهم هذا الموقف الذي لم يستطيعوا أن ينتصروا فيه، فما كان منهم إلا إصدار الأحكام المتناقضة، يقول ابن عاشور: «وذلك مؤذن باضطرابهم، وهذا الاضطراب ناشئ عن ترددهم مما ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن، وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردد في حجته كما قيل: الباطل لجلج، أي ملتبس متردد فيه» (ابن عاشور، 1984، 16/17) فالجمال هنا جمع بين الحالة الشعورية التي ملئت حيرة واضطراباً وبين النص الذي يدل على تلك الحال عن طريق توظيف حرف العطف (بل).

وكذلك هل استعمل النظم القرآني حروف العطف فيما تختص به أو استعملها في مقام خصائص غيرها، أو معنى آخر؟ وإذا جاءت مشربة سمة غيرها من أخواتها. ما السر في هذا العدول؟ وهل المعنى الخاص بها يحمل معنى آخر؟ من ذلك قوله ﷻ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: 6] فيلاحظ المتأمل التنوع في حروف العطف بين (ثم) و (الواو)، فما سر مجيء حرف العطف (ثم) هنا؟ يجيب عن ذلك الزمخشري بقوله: «إن قلت: ما وجه قوله ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عدّها دالا على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق الفائق للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيره، إلا أن إحداها جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجربها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود» (الزمخشري، 1998، 289/5).

وكذلك ينظر المتدبر في سر ذكر العطف بين الجمل، وسر تركه، مما يتصل بمباحث الوصل والفصل؛ إذ البحث في مسائل الوصل والفصل من أدق المباحث البلاغية وأبرعها في بيان دلائل الإعجاز القرآني، وأنّ ما يتقنه «إلا الأعراب الخُلص، وإلا قوم طُبِعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة، فقد جاء عَنْ بعضهم أنه سُئِلَ عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل؛ ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة». (الجرجاني، 1993، ص. 222)

ومن أمثلته قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، فهذا الفصل في ترك العطف بقوله ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بعد جملة ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ من باب كمال الاتصال بين الجملتين؛ حيث اتحدت الجملتين اتحاداً تاماً في التعبير عن المعنى المراد، فكأنهما في قالب واحد، وسر هذا الفصل بين الجملتين: التوكيد وزيادة تقرير عظمة يوسف ﷺ في أنفسهن، وأن نفيه عن البشرية ليس استنقاصاً، بل رفعة إلى مصاف الملائكة، فهو دفع لتوهم عن طريق التأكيد المعنوي بين الجملتين، حيث إنه إذا كان ملكاً فلن يكون

بشراً، وهذا ما جعلهن يؤكدن هذا المعنى المراد عن طريق حصره في جنس الملائكة من باب التشبيه البليغ المؤكد (ينظر ابن عاشور، 1984).

هذا ما تيسر الوقوف عليه من النماذج التي تمنح المتأمل مهارة كيفية صناعة السؤال البلاغي على الآيات، التي من خلالها يحاول المتدبر أن يجتهد في صناعة مثل هذه الأسئلة التي تستوقفه مع الآيات الكريمة التي ملئت إعجازاً وبياناً.

7. الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخرًا. لقد اشتمل هذا البحث على تمهيد يبيّن الفرق بين المعاني الجمهورية العامة، والمعاني الإحسانية (معنى المعنى)؛ ومباحث، منها: أهمية السؤال البلاغي لدى البلاغيين، والمهيمات التي تُمهد لصناعة السؤال البلاغي، ومفهوم صناعة السؤال البلاغي، والمفاتيح المختارة، وهي التفرد، والتشابه، والتمايز، والعدول في التراكيب، والمبنيات في التراكيب القرآنية، والتدرّب على هذه المفاتيح من خلال التطبيقات البيانية على آيات مختارة.

وقد توصل البحث إلى نتائج منها:

- أثبت البحث أن التدبر الذهني العقلي المنشود هو الذي يعتمد على الإمام بعلوم العربية، وأساليبها، ومعرفة نظام الجملة العربية وما يتصل بها من أدوات وحروف تؤثر في بناء الجملة وتركيبها.
- بيّن البحث أن المتدبر مهما حاول الاجتهاد في التدبر فلا يمكن أن يصنع السؤال البلاغي الحقيقي حتى يكون التسبب اللغوي هو مفتاحه للتدبر، وأن السؤال البلاغي هو الذي يسأل عن معنى المعنى، وليس المعنى الأولي مع أهميته في سلمية التدبر.
- أكّد البحث أن العلم بالنظام اللغوي المثالي للجملة العربية وتركيبها، لا يُمكن المتدبر من صناعة السؤال البلاغي، حتى يستصحب الاستعمال الكلامي للغة، وما يطرأ على التركيب المثالي من عدول لغوي أو مقامي يخالف مقتضى الظاهر مما يندرج في مسائل علوم البلاغة التي يقتضيها الاعتبار المناسب، ويستدعيها السياق، بل إن هذا العدول أو التعالي على القاعدة في نظام الجملة العربية المثالية هو الأدعى في صناعة السؤال البلاغي، وهو مكن التفنن وإظهار أسرار النظم.
- أثبت البحث أن العبرة في التدبر هو صناعة السؤال المناسب للتثوير القرآني، وإن لم يجد الإجابة عنه.
- أثبت البحث أن صناعة السؤال البلاغي هي نوع من المهارة التي تحتاج إلى تدرّب على صناعة السؤال، وأن الإمام بهذه المفاتيح تُولّد لدى المتدبر القدرة على تثوير القرآن حين يقرأ القرآن ويتدبره، وتعطيه وقوفاً على الجمل مسوّغ، دون أن يكون الإحساس بالجمال والتعظيم للنص القرآن أمر روحي وقتي.

ويوصي الباحث بأن يتبنى عدد من الباحثين رصد الأسئلة البلاغية التي تفتح في أذهان المتدبرين مسائل بلاغية متعددة، من الممكن أن تحوي تلك الأسئلة المصنوعة مسائل البلاغة كلها، فيكون السؤال البلاغي ومفاتيحه هي البوابة التي يدلف إليها الدارس إلى علوم البلاغة القرآنية، وأبوابها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

(¹) اختار هذا المصطلح حمود توفيق، واستحسنه؛ نظرًا لارتباط المعنى مع مفهوم التدبر، وهو - زيادة على ما ورد من حديث حوله في المتن - يعني: المعنى الكلي للآية أو للتركيب القرآني الذي لا يتوصل إليه إلا بطول تدبر، وهو معنى قد لا يظهر من خلال المعنى الأولي الظاهر، والدلالة المطابقة بين اللفظ والمعنى، فيحتاج إلى تأويل، واستنباط وتأمل، وهذا المعنى الإحساني لا يصل إليه المتدبر إلا بما معه من قواعد سليمة وأدوات صحيحة من الفهم للتفسير، والنقل الصحيح المتوافق مع ما جاء في الكتاب والسنة، وامتلاكه التخريج على وجه من العربية مقبول، واستحسن حمود توفيق هذا المصطلح نظرًا لكونه يُمكن المتدبر من تحصيل هذه المعاني، وعن طريقه يكتمل إحسان الاستعداد للتلقي فقهاً وفهمًا، وذلك بالسعي الحثيث إلى امتلاك مهارات التلقي وأدواته الحسية والمعنوية، وكذلك الإشارة إلى أن هذا الضرب من المعنى كلما أحسنت في طلبه أحسن إليك في عطائه، وهذا مصداقًا لمعنى كون القرآن لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه (ينظر توفيق، 2022).

(²) وهذا ما يسميه العلماء أسلوب (الفنثلة): (فإن قلت لم كذا وكذا... قلت: كذا وكذا...).

(³) هذه مفاتيح تعين المتدبر على صناعة السؤال البلاغي، وتجعله يمسك بأدوات محسوسة يستطيع من خلالها أن يرتقي بتدبره إلى التدبر المنشود، أثرت الوقوف عليها دون بقية المفاتيح من أجل الوقوف على كيفية صناعة السؤال، ومراعاة لمقام طبيعة البحث الذي يقتضي عدم الإطالة، وللباحثين استحداث مفاتيح أخرى معينة على صناعة السؤال البلاغي.

(⁴) هذه المواضيع والأمثلة على التمايز والتشابه على سبيل التمثيل لا الحصر.

(⁵) لا شك في تداخل التراكيب هذه مع المبحث السابق، غير أن الحديث عن التركيب هنا يختص بالذي لا يرتبط بالتشابه اللفظي والتمايز بين أكثر من موضع في القرآن، إذ لا يلزم هنا وجود آية مشابهة.

مراجع البحث

الأزهري، محمد بن أحمد. (ت. 370هـ، ط. 1964). *تهديب اللغة* (عبد السلام محمد هارون، تحقيق). دار القومية العربية للطباعة، مصر.

الألوسي، شهاب الدين السيد محمود. (ت. 1270هـ، ط. 1964). *روح المعاني* (ط2) (محمود شكري الألوسي، تحقيق). دار إحياء التراث، بيروت.

الأندلسي، ابن عطية. (ت. 546هـ، ط. 2002). *المحرر الوجيز* (ط1) (عبد السلام عبد الشافي محمد، تحقيق).

- دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأندلسي، أبو حيان. (ت. 745هـ، ط. 1993). *البحر المحيط في التفسير* (ط1) (عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، تحقيق). دار الكتب العلمية، بيروت.
- البارت، عثمان عبد المولى. (2015). *أسئلة الإمام الزمخشري البيانية في تفسير البقرة: دراسة تحليلية تفسيرية* [رسالة ماجستير، جامعة العلوم الإسلامية العالمية]، عمان، الأردن.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (ت. 256هـ، ط. 1980)، *الجامع الصحيح* (ط1) (محب الدين الخطيب، تحقيق). طبعة المطبعة السلفية، القاهرة.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر. (ت. 885هـ، ط. 1984)، *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر. (ت. 691هـ، ط. 1998). *أنوار التنزيل وأسرار التأويل* (ط1) (محمد عبد الرحمن المرعشلي، تحقيق). دار إحياء التراث، بيروت.
- توفيق، محمود. (2022). *المعنى القرآني* (ط1). مكتبة وهبة، القاهرة.
- جدي، عبد العزيز. (2018). *افتراضات الزمخشري في الكشف، دراسة تطبيقية في علم المعاني* [رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية]، قسنطينة، الجزائر.
- الجرجاني، عبد القاهر. (ت. 471هـ، ط. 1993). *دلائل الإعجاز* (ط3) (محمود شاكر، تحقيق). دار المدني، جدة.
- ابن الحاجب، عثمان بن عمرو. (ت. 646هـ، ط. 1989). *الأمل في النحوية* (فخر الدين قدادة، تحقيق). دار عمار، الأردن.
- الرازي، محمد فخر الدين. (ت. 604هـ، ط. 1981). *مفاتيح الغيب* (ط1). دار الفكر، بيروت.
- الزركاني، عادل راضي. (2015). *الفنقلة عند الزمخشري بين الدلالة والحجاج*. مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، (19)، 1-23.
- <https://lark.uowasit.edu.iq/index.php/lark/article/view/990/859>
- الزركشي، بدر الدين. (ت. 745هـ، ط. 1984). *البرهان في علوم القرآن* (ط3) (محمد أبو الفضل إبراهيم، تحقيق). دار التراث، القاهرة.
- الزمخشري، جار الله. (ت. 538هـ، ط. 1998). *الكشاف* (ط1) (عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، تحقيق). مكتبة العبيكان، الرياض.
- الزهراني، صالحة. (2023). *الأسئلة البلاغية عند المفسرين إلى نهاية القرن السادس الهجري* [تحت الإعداد، رسالة

- دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية [].
- أبو السعود، محمد بن محمد، (ت. 982هـ، ط. 1971). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (المسمى بتفسير أبي السعود). مكتبة الرياض الحديثة، السعودية.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. (ت. 911هـ، ط. 2012). الإتيقان في علوم القرآن (ط1) (فواز أحمد زمرلي، تحقيق). دار الكتاب العربي، بيروت.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (ت. 790هـ، ط. 2012). الموافقات (ط1) (محمد محيي الدين عبد الحميد، تحقيق). المكتبة العصرية، بيروت.
- الطبراني، سليمان بن أحمد. (ت. 360هـ، ط. 1984). المعجم الكبير، (ط2) (حمدي عبد الحميد السلفي، تحقيق). مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- الطبري، محمد بن جرير. (ت. 310هـ، ط. 2002). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحقيق). دار هجر للطباعة والنشر، مصر.
- الطيبار، مساعد. (2007). مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ط2). دار ابن الجوزي، الرياض.
- الطبي، شرف الدين الحسين بن محمد. (ت. 743هـ، ط. 2014). فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطبي على الكشاف) (ط1) (إياد أحمد الغوج، وجميل بني عطا، تحقيق). جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات العربية.
- ابن عاشور، الطاهر. (ت. 1393هـ، ط. 1984م). تفسير التحرير والتنوير، مطبعة الدار التونسية للنشر، تونس.
- العبدلي، خلود. (2019). فنقات المفسرين، دراسة نظرية تطبيقية على سورة الفاتحة. مجلة العلوم الشرعية (جامعة القصيم)، 12 (3)، 1542-1601.
- العثيمين، محمد بن صالح. (ت. 1421، ط. 2016). تفسير القرآن الكريم (سورة فاطر) (ط1). مؤسسة ابن عثيمين، السعودية.
- عطا الله، نزار. (2017). فنقات الزمخشري البلاغية في سورة يوسف، مجلة البحوث والدراسات القرآنية (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)، 10، (16) 49-98. <https://search.emarefa.net/detail/BIM-776866>
- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير. (ت. 708هـ، ط. 2013م). ملاك التأويل (ط5) (سعيد الفلاح، تحقيق). دار الغرب الإسلامي، تونس.
- القرطبي، محمد بن أحمد. (ت. 671هـ، ط. 2007). الجامع لأحكام القرآن (ط1) (عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحقيق). مؤسسة الرسالة، بيروت.

الكرماني، محمود بن حمزة. (ت. 500هـ، ط. 2010م). البرهان في متشابه القرآن (ط2) (أحمد عز الدين خلف الله، تحقيق). دار صادر، بيروت.

المصري، ابن أبي الإصبع. (ت. 654هـ، ط. 1963). تحرير التحبير (حفني شرف، تحقيق). لجنة إحياء التراث، مصر.
ابن منظور، محمد بن مكرم. (ت. 711، ط. 2009). لسان العرب (ط3) (أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، تحقيق). دار إحياء التراث، بيروت.

- Abū al-Sa‘ūd, Muḥammad ibn Muḥammad, (t. 982h, Ṭ. 1971). Irshād al-‘aql al-salīm ilā mazāyā al-Kitāb al-Karīm (al-musammā bi-tafsīr Abī al-Sa‘ūd). Maktabat al-Riyāḍ al-ḥadīthah, al-Sa‘ūdīyah.
- Al-‘Abdalī, Khulūd. (2019). fīqlāt al-mufasssīrīn, dirāsah Nazarīyat taṭbīqīyah ‘alā Sūrat al-Fātiḥah. Majallat al-‘Ulūm al-shar‘īyah bi-Jāmi‘at al-Qaṣīm, 12 (3), 1542-1601.
- Al-Alūsī, Shihāb al-Dīn al-Sayyid Maḥmūd. (t. 1270h, Ṭ. 1964). Rūḥ al-ma‘ānī (ṭ2) (Maḥmūd Shukrī al-Alūsī, Taḥqīq.). Dār Iḥyā’ al-Turāth, Bayrūt.
- Al-Andalusī, Abū Ḥayyān. (t. 745h, Ṭ. 1993). al-Baḥr al-muḥīṭ fī al-tafsīr (Ṭ1) (‘Ādil Aḥmad ‘Abd al-Mawjūd, wa-‘Alī Muḥammad ‘Awad, taḥqīq.). Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt.
- Al-Andalusī, Ibn ‘Aṭīyah. (t. 546h, Ṭ. 2002). al-muḥarrir al-Wajīz (Ṭ1) (‘Abd al-Salām ‘Abd al-Shāfi Muḥammad, taḥqīq.). Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt.
- Al-Azharī, Muḥammad ibn Aḥmad. (t. 370h, Ṭ. 1964). Tahdhīb al-lughah (‘Abd al-Salām Muḥammad Hārūn, taḥqīq.). Dār al-Qawmīyah al-‘Arabīyah lil-Ṭibā‘ah, Miṣr.
- Albārāt, ‘Uthmān ‘Abd al-Mawlā. (2015). as’ilat al-Imām al-Zamakhsharī al-bayānīyah fī tafsīr al-Baqarah : dirāsah taḥlīlīyah tafsīrīyah [Risālat mājistīr, Jāmi‘at al-‘Ulūm al-Islāmīyah al-‘Ālamīyah], ‘Ammān, al-Urdun.
- Al-Bayḍāwī, ‘Abd Allāh ibn ‘Umar. (t. 691h, Ṭ. 1998). Anwār al-tanzīl wa-asrār al-ta’wīl (Ṭ1) (Muḥammad ‘Abd al-Raḥmān al-Mar‘ashlī, taḥqīq.). Dār Iḥyā’ al-Turāth, Bayrūt.
- al-Biqā‘ī, Ibrāhīm ibn ‘Umar. (t. 885h, Ṭ. 1984), naẓm al-Durar fī tanāsib al-āyāt wa-al-suwar. Dār al-Kitāb al-Islāmī, al-Qāhirah.
- Al-Bukhārī, Muḥammad ibn Ismā‘īl. (t. 256h, Ṭ. 1980), al-Jāmi‘ al-ṣaḥīḥ (Ṭ1) (Muḥibb al-Dīn al-Khaṭīb, taḥqīq.). Ṭab‘ah al-Maṭba‘ah al-Salafīyah, al-Qāhirah.
- Al-Gharnāṭī, Aḥmad ibn Ibrāhīm ibn al-Zubayr. (t. 708h, Ṭ. 2013m). Malāk al-ta’wīl (ṭ5) (Sa‘īd alflīlāhy, taḥqīq.). Dār al-Gharb al-Islāmī, Tūnis..
- Al-Jurjānī, ‘Abd al-Qāhir. (t. 471h, Ṭ. 1993). Dalā’il al-i‘jāz (ṭ3) (Maḥmūd Shākir, taḥqīq.). Dār al-madanī, Jiddah.
- Al-Kirmānī, Maḥmūd ibn Ḥamzah. (t. 500h, Ṭ. 2010m). al-burhān fī mutashābih al-Qur’ān (ṭ2) (Aḥmad ‘Izz al-Dīn Khalaf Allāh, Taḥqīq.). Dār Šādir, Bayrūt.
- Al-Miṣrī, Ibn Abī al-Iṣba‘. (t. 654h, Ṭ. 1963). taḥrīr al-Taḥbīr (Ḥifnī Muḥammad Sharaf, taḥqīq.). Lajnat Iḥyā’ al-Turāth, Miṣr.
- Al-Qurtubī, Muḥammad ibn Aḥmad. (t. 671h, Ṭ. 2007). al-Jāmi‘ li-aḥkām al-Qur’ān (Ṭ1) (‘Abd Allāh ibn ‘Abd al-Muḥsin al-Turkī, Taḥqīq.). Mu’assasat al-Risālah, Bayrūt.
- Al-Rāzī, Muḥammad Fakhr al-Dīn. (t. 604H, Ṭ. 1981). Mafātīḥ al-ghayb (Ṭ1). Dār al-Fikr, Bayrūt.
- Al-Shāṭibī, Ibrāhīm ibn Mūsā. (t. 790h, Ṭ. 2012). al-Muwāfaqāt (Ṭ1) (Muḥammad Muḥyī al-Dīn ‘Abd al-Ḥamīd, taḥqīq.). al-Maktabah al-‘Aṣrīyah, Bayrūt.
- Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān. (t. 911, Ṭ. 2012m). al-Itqān fī ‘ulūm al-Qur’ān (Ṭ1) (Fawwāz Aḥmad Zamarlī, Taḥqīq.). Dār al-Kitāb al-‘Arabī, Bayrūt.

- Al-Ṭabarānī, Sulaymān ibn Aḥmad. (t. 360h, Ṭ. 1984). al-Mu‘jam al-kabīr, (t2) (Ḥamdī ‘Abd al-Ḥamīd al-Salafī, taḥqīq.). Maktabat Ibn Taymīyah, al-Qāhirah.
- Al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. (t. 310h, Ṭ. 2002). Jāmi‘ al-Bayān ‘an Ta’wīl āy al-Qur’ān (‘Abd Allāh ibn ‘Abd al-Muḥsin al-Turkī, taḥqīq.). Dār Hajar lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr, Miṣr.
- Al-Ṭayyār, Musā‘id. (2007). Mafhūm al-tafsīr wa-al-ta’wīl wa-al-istinbāt wa-al-tadabbur wa-al-mufasssir (t2). Dār Ibn al-Jawzī, al-Riyāḍ.
- Al-Ṭībī, Sharaf al-Dīn al-Ḥusayn ibn Muḥammad. (t. 743h, Ṭ. 2014). Fattūḥ al-ghayb fī al-kashf ‘an qinā‘ al-rayb (Ḥāshiyat al-Ṭībī ‘alā al-Kashshāf) (Ṭ1) (Iyād Aḥmad al-Ghawj, wa-Jamīl Banī ‘Aṭā, taḥqīq.). Jā‘izat Dubayy al-Dawlīyah lil-Qur’ān al-Karīm, al-Imārāt al-‘Arabīyah.
- Al-‘Uthaymīn, Muḥammad ibn Ṣāliḥ. (t. 2001, Ṭ. 2016). tafsīr al-Qur’ān al-Karīm (Sūrat fāṭr) (Ṭ1). Mu‘assasat Ibn ‘Uthaymīn, al-Sa‘ūdīyah.
- Al-Zirkānī, ‘Ādil Rāḍī. (2015). al-fnqlh ‘inda al-Zamakhsharī bayna al-dalālah wa-al-ḥijāj. Majallat lārkh lil-falsafah wa-al-lisāniyāt wa-al-‘Ulūm al-ijtimā‘īyah, (19), 1-23.
- Al-Zahrānī, Ṣāliḥ. (2023). al-as‘ilah al-balāghīyah ‘inda al-mufasssīrīn ilā nihāyat al-qarn al-sādis al-Hijrī (taḥta al-i‘dād, Risālat duktūrāh, Jāmi‘at al-Imām Muḥammad ibn Sa‘ūd al-Islāmīyah, al-Riyāḍ, al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah)
- Al-Zamakhsharī, Jār Allāh. (t. 538h, Ṭ. 1998). al-Kashshāf (Ṭ1) (‘Ādil Aḥmad ‘Abd al-Mawjūd, wa-‘Alī Muḥammad ‘Awaḍ, Taḥqīq.). Maktabat al-‘Ubaykān, al-Riyāḍ.
- Al-Zarkashī, Badr al-Dīn. (t. 745h, Ṭ. 1984). al-burhān fī ‘ulūm al-Qur’ān (t3) (Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, taḥqīq.). Dār al-Turāth, al-Qāhirah.
- ‘Aṭā Allāh, Nizār. (2017). fnqulāt al-Zamakhsharī al-balāghīyah fī Sūrat Yūsuf, Majallat al-Buḥūth wa-al-Dirāsāt al-Qur’āniyah bi-Majma‘ al-Malik Fahd li-Ṭibā‘at al-Muṣḥaf al-Sharīf, 10, (16) 49-98.
- Ibn al-Ḥājib, ‘Uthmān ibn ‘Amr. (t. 646h, Ṭ. 1989). al-Amālī al-naḥwīyah (Fakhr al-Dīn Qadārah, taḥqīq.). Dār ‘Ammār, al-Urdun.
- Ibn ‘Āshūr, al-Ṭāhir. (t. 1393h, Ṭ. 1984m). tafsīr al-Taḥrīr wa-al-tanwīr, Maṭba‘at al-Dār al-Tūnisīyah lil-Nashr, Tūnis.
- Ibn manzūr, Muḥammad ibn Mukarram. (t. 711, Ṭ. 2009). Lisān al-‘Arab (Ṭ. 3) (Amīn Muḥammad ‘Abd al-Wahhāb, wa-Muḥammad al-Ṣādiq al-‘Ubaydī, taḥqīq.). Dār Iḥyā’ al-Turāth, Bayrūt.
- Jdey, ‘Abd al-‘Azīz. (2018). aftrādāt al-Zamakhsharī fī al-Kashshāf, dirāsah taṭbīqīyah fī ‘ilm al-ma‘ānī [Risālat duktūrāh, Jāmi‘at al-Amīr ‘Abd-al-Qādir lil-‘Ulūm al-Islāmīyah], Qusanṭīnah, al-Jazā‘ir.
- Tawfīq, Maḥmūd. (2022). al-ma‘nā al-Qur’ānī (Ṭ1). Maktabat Wahbah, al-Qāhirah.

معلومات عن الباحث

Dr. Homoud bin Ibrahim bin Abdullah Alosiali is an Assistant Professor of Rhetoric and Criticism in the Department of Arabic Language, College of Arabic Language and Social Studies, Qassim University, Saudi Arabia. Dr. Alosiali holds a Ph.D. degree in Rhetoric and Criticism from Umm Al-Qura University in 2021. His research interests include rhetorical studies, ancient rhetoric & critical studies, and the Rhetoric Discourse.

د.حمود بن إبراهيم بن عبد الله العصيلي، أستاذ مساعد في البلاغة والنقد في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغة العربية وآدابها، في جامعة القصيم (المملكة العربية السعودية). حاصل على درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد من جامعة أم القرى عام 1440هـ. تدور اهتماماته البحثية حول الدراسات البلاغة القرآنية، والدراسات البلاغية والنقدية القديمة، وبلاغة الخطاب في الدرس الحديث.

Email: hasaiely@qu.edu.sa



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

مدارات النص وعوالمه الممكنة بين رسالة ابن فضلان ورواية أكلة الموتى

سامية بنت عبدالله العُمري 

قسم اللغة العربية، كلية اللغات والترجمة، جامعة جدة، جدة، المملكة العربية السعودية

Abstract

The Text Orbits and its possible worlds between
Ibn Fadlan's Letter and Eaters of The Dead
Novel

This study is concerned with comparing the text of Ibn Fadlan and the novel Eaters of the Dead, written by Crichton, in terms of the manifestations of the Subject in each of them through its reference worlds and possible worlds. The study began from the text of the letter, as the original text, while revealing the dimensions of the novel Eaters of The dead that contributed to the development of conflicting topics with the topics of the text of the letter, and created various narrative programs, and yet it was able to preserve the structure of the original world of Ibn Fadlan's letter, by keeping the necessary relationships as they are, and restricting the changes to the essential characteristics.

keywords: message, Ibn Fadlan, a novel, Eaters of the Dead, orbits, possible worlds, a reference world.

الملخص

تعني هذه الدراسة بالمقارنة بين نص رسالة ابن فضلان، ورواية أكلة الموتى التي كتبها كرايتون، من حيث تحليلات الذات في كل منهما عبر عوالمها المرجعية وعوالمها الممكنة، وانطلقت الدراسة من نص الرسالة الذي نال الجزء الأكبر منها بوصفه النص الأصلي، مع الكشف عن أبعاد رواية أكلة الموتى التي أسهمت في تنمية مدارات متعارضة مع مدارات نص الرسالة، وقامت بخلق برامج سردية متنوعة على البرنامج السردية الأساسي، ومع ذلك استطاعت الحفاظ على بنية العالم الأصلي لرسالة ابن فضلان، بإبقاء العلاقات الضرورية كما هي، وحصر التغييرات في الخصائص الجوهرية، مما جعل عالمها المتخيل قابلاً لبلوغ عالم الرسالة، الأمر الذي ألبس على كثير من الباحثين فعدوها مخطوطة تابعة لرسالة ابن فضلان.

الكلمات المفتاحية: رسالة، ابن فضلان، رواية، أكلة الموتى، مدارات،

عوالم ممكنة، عالم مرجعي

الإحالة APA Citation:

العُمري، سامية. (2023). مدارات النص وعوالمه الممكنة بين رسالة ابن فضلان ورواية أكلة الموتى. مجلة العلوم العربية والإنسانية، 17، (2)، 71-108.

استلم في: 1445-02-24 / قبل في: 1445-03-11 / نُشر في: 1445-04-14

Received on: 09-09-2023/Accepted on: 26-09-2023/Published on: 29-10-2023



1. المقدمة

نالت رسالة ابن فضلان¹ قدرًا كبيرًا من اهتمام الباحثين، تجلّى في العدد الكبير من الدراسات التي قامت حولها. وتكمن أهميتها في كونها أول رحلة ترسم صورة صادقة ومفصلة عن بلاد الشمال في عصر لم يصل منه إلا القليل جدًّا من المعلومات عن تلك البلاد، فهي وثيقة أفادت الدارسين بالكثير من المعلومات الجغرافية، والتاريخية، والاقتصادية، كما قدمت وصفًا لملامح الحياة الاجتماعية في ذلك العالم، ولذلك تعد وثيقة "أنثروبولوجية هامة... تؤثّق لتاريخ الشعوب الصربية والروس" (قنديل، 2010، ص. 165).

وقد اختار ابن فضلان لرحلته وصف "رسالة" ليجعل مضمونها متّسّعًا لقراءات مختلفة فيما بعد؛ ليكون ذلك النص "رواية الرحلة" التي تتوازى من الناحية الشكلية و"رواية السيرة" أو "رواية التخيل التاريخي"، وهذا يعني استنادًا إلى ما قام به ابن فضلان، أنّ الرحلة بوصفها نصًّا مشبّعًا بالثقافة، والملاحظة، والوصف، والحوار، يمكن أن تكتب رسالة، أو رواية، أو تحول إلى فيلم، أو مسرحية، أو أي شيء يتّصل بالفن والأدب، فالرحلة في الأساس نوع يفتح على سياقات جغرافية، وأخرى تاريخية، وثالثة ثقافية، فضلًا عن سياقات الذات النازمة للمتن نفسه (التميمي، 2018). وقد أقبل العلماء على ترجمتها وطبعها، وحازت على اهتمام الباحثين من المستشرقين أمثال طوغان الذي قدم ترجمة ألمانية لها نشرها عام 1939، وكراشوكفسكي الذي استعان به أكاديمية العلوم السوفياتية في ترجمتها إلى الروسية (لعيبي، 2021)، كما استلهم كرايتون² على ضوءها روايته الفانتازية "أكلة الموتى" التي حولت فيما بعد إلى فلم بعنوان "المحارب الثالث عشر"³. وتأتي أهمية دراسة رحلة ابن فضلان في علاقتها برواية أكلة الموتى سيميائيًا في كونها نصًّا رحليًا بامتياز، تحكي فيه الذات الساردة تجربتها الخاصة الواقعية بكثير من الخيال الذي يمنح مسروداتها بعدًا يلتقي فيه العالم الفعلي بما يمكن أن تكون عليه عوالم النص التخيلية التي تمضي وتسير وفقًا لما ترغب فيه وتسعى إليه، ووفقًا لما لا ترغب فيه ولا تسعى إليه ذات سردية أخرى مغايرة لابن فضلان نفسه في رواية كرايتون. وبما أن الرحلة "تخلق سياقًا خاصًا من الوعي، يلج فيه الكاتب عوالم جديدة وينفتح على آفاق واسعة من اكتشاف الذات واكتشاف الآخر، وتأمل الثقافة والهوية والمرجعية" (صفوان، 2013، ص. 3)، فإن سيميائية الثقافة طبقًا لأمبرتو إيكو بما طرحه من مفاهيم إجرائية مثل مفهوم العوالم الممكنة وما يتعلق به من مفاهيم مثل مدارات النص من أنجح الطرق والوسائل المنهجية لمعالجة نص رسالة ابن فضلان بما هو نص رحلي تتجلى فيه الذات من خلال عوالم مرجعية يصادر عليها النص مسبقًا، وعوالم تخيلية ممكنة تتخلق أثناء فعل القراءة.

وقد انصرفت معظم الدراسات السابقة إلى تحليل البنية الاقتصادية (أحمد، 2022) أو البنية الجغرافية للرحلة (عرفان، 2019)، أو البنية العجائبية، وفي هذا الموضوع الأخير نجد أكثر الدراسات قد وقفت على بعض الحكايات العجيبة في

رحلة ابن فضلان بالدرس والتحليل من حيث الأحداث والشخصيات والفضاءات، أو من حيث إشكالية تلقي العجائي في الثقافة الإسلامية (علاوي، 2005)، أو من حيث المكونات الخطابية فيها (خولي، 2019).

وقد عنيت هذه الدراسة بتحليل المكونات الخطابية كالزمن، والراوي، والسرد، والوصف، والتقريب، والخطاب العجائي⁴. كما انصرف البعض الآخر إلى دراسة البنية السردية فيها من حيث تحليل بنية الزمان والمكان والشخصيات والحوار والوصف (باجاير، 2016)، أو تحليل بلاغة المكونات السردية من قدرة على الحجاج والمناظرة (الطبي، 2021)، وغيرها من الدراسات.

ومع وفرة الدراسات المشار إليها فلم تعثر الباحثة حتى الآن على دراسة سيميائية عنيت بالذات الساردة لابن فضلان بوصفها علامة نصية، فضلاً عن دراسة تتناول بنية العوالم الممكنة في رسالة ابن فضلان أو تقارن بين تحليلات الذوات في هذه العوالم في كل من الرسالة ورواية أكلة الموتى كما في ورقتنا هذه. وإن كان ثمة دراسة قارنت بين النصين فقد انشغلت بتتبع صور الآخر وتحولاتها، والتحويلات الأجناسية الكبرى للنص الرئيس من خلال النظر إليه في علاقته بالرواية وكذلك في علاقتهما الاثنتين بالفيلم السينمائي الشهير "المحارب الثالث عشر" الذي أنتج حول هذه الرواية، وتحليل القضايا الأيديولوجية فيها وقضايا الآخر وقضايا ما بعد الاستعمار (العدواني، 2017)⁵. وحتى الدراسات التي عنيت بتحليل الذوات انصرفت إلى تحليل بنية الوعي (قداح، 2014)، بعيداً عن تحليل البرامج السردية وتحولات الذات فيها عبر عوالمها المرجعية والممكنة.

وستقارن هذه الدراسة بين نص الرسالة الأصلي الذي كتبه ابن فضلان ورواية أكلة الموتى الذي كتبه كرايتون، من حيث تحليلات الذات في كل منهما عبر عوالمها المرجعية والممكنة؛ وستنطلق من نص الرسالة الذي سينال الجزء الأكبر منها بوصفه النص الأصلي، ولن تغفل رواية أكلة الموتى التي أسهمت في تنمية مدارات متعارضة مع مدارات نص الرسالة، وقامت بخلق برامج سردية متنوعة على البرنامج السردية الأساسي، أسهمت بدورها في خلق العديد من السمات الجوهرية التي يلزمها بناء أي عالم ممكن. أضف إلى ذلك أن رواية أكلة الموتى قد أحدثت لغطاً كبيراً حولها، من حيث المسائل المصادقية التي يلجأ إليها القارئ في قبول عالم على أنه حقيقي أو متخيل.

وقد أوهنا كرايتون بأن روايته ما هي إلا مخطوطة حقيقية كتبها ابن فضلان بنفسه، معتقدين أنها الجزء المفقود من النص، فقد لجأ إلى "حيلة روائية مدهشة وهي أنه يكتب مقدمة تعريفية شبه جادة عن ابن فضلان، ويعدد فيها مصادره بطريقة جد غامضة توحي بأنه في صميم عمل تاريخي، كما يضع في ثنايا نصه الكثير من الهوامش التي تشرح طقساً أو تقليداً إسلامياً، مما يمنح القراءة بعداً جديداً يسعى عامداً إلى طمس الحدود بين المتخيل والواقعي. هذه الحيلة الجميلة، لكن الخطرة" كما يقول شاكر لعبي "تسعى إلى اندغام لا فكك منه بين الحقيقة والخيال، والإيحاء للقراء بأنهم في صلب واقعة تاريخية لم يفعل هو إلا نقلها إليهم". وقد انطلت هذه الحيلة على الدكتور حيدر غيبة الذي قام بترجمة عمل كرايتون

إلى العربية "ومنحنا فرصة الاطلاع عليها معتقداً أنه يترجم وثيقة تاريخية" (ابن فضلان، 2003، ص. 23، 24)⁶، وهذا ما دعاه إلى إقحام نص كرايتون في نص ابن فضلان معيذاً ترتيب مسار الرحلة ليوائم بينهما، وليحافظ على انسجام النص، ويوفق بين النسختين العربية لابن فضلان والإنكليزية لكرايتون (ابن فضلان، 2003).

وأخيراً كيف يمكن أن تجيب نظرية العوالم الممكنة عن السؤال الجوهرى للبحث، وهو: هل بقيت هوية ابن فضلان كما هي في رواية أكلة الموتى أم تمثل بهوية مختلفة تماماً كما يدعي بعض الدارسين، أم أنه مجرد فرد فائض في عالم حكائي ممكن؟ والسؤال الثاني: كيف يمكن لنظرية العوالم الممكنة أن تفسر اضطراب الباحثين أمام قبول نص كرايتون فيما إذا كان مخطوطة حقيقية أم من نسج خياله. وللإجابة عن هذه الأسئلة لابد من تمهيد لتوضيح مفهوم العوالم الممكنة والمدار وإشكالاتها التطبيقية وعلاقة كل منهما بالآخر قبل الخوض في دراسة تحليلتهما في رسالة ابن فضلان أو رواية أكلة الموتى. وسنفرد بمبحثين مستقلين لكل من رسالة ابن فضلان والرواية الأجنبية، نتناول في كل مبحث النقاط الثلاث التالية: مدارات النص، وعالمه المرجعي، وعوالمه الممكنة، مما يسهل على القارئ عملية المقارنة بين النصين، والخروج بنتائج واضحة. ويجدر التنبيه إلى أن البحث سيتوسل ببعض الرموز السيميائية المتبعة في الجداول أو الرسومات الإيضاحية، كعلامة الزائد التي تعني إثبات الخاصية، وعلامة الناقص التي تعني نفيها.

2. تمهيد

1.2. مفهوم العوالم الممكنة

نشأ في الأوساط الفلسفية متمثلاً عند أفلاطون في فكرة عالم المثل؛ إذ يمكن عن طريقه إدراك الموجودات في عالمنا الواقعي بوصفها تجسيداً وتمثيلاً له. تطور المفهوم بعد ذلك في المنطق الجوهري على يد أرسطو في تصوره للموجودات من حيث هي ممكنة الوجود أو ممتنعة، أو مستحيلة، أو واجبة (عبد الرحمن، 1993)، كما تطور على يد الغزالي ولاينز في تصورها عن لا محدودية العوالم الممكنة (عبد الرحمن، 1989؛ لوبوميردوليزيل، 2006)، ثم انتقل إلى الحقول العلمية الفيزيائية مرتبطاً بفكرة وجود أكوان موازية لكوننا الحالي، كما نشأ في النظرية المنطقية والدلالية مقتصرًا على أن العوالم الممكنة مجموعة من العوالم المحتملة والافتراضية التي توجد بموازاة العالم الواقعي الحقيقي، والعلاقات بينها وبين العالم الواقعي يُنظر إليها من خلال قوانين الصدق والكذب والإحالة والحقيقية أو في ضوء معطيات علم المنطق الجوهري (حمداوي، 2016). وقد قام العالم السيميائي أمبرتو إيكو بتجريد هذا المفهوم من أصوله الفلسفية والأنطولوجية، وأدخله إلى حقل سيميائية الثقافة ليصبح بعد ذلك من أكثر الأدوات حضوراً وفعالية في عملية تأويل النصوص وتفسيرها.

ويشرح طه عبد الرحمن (2002، ص. 136) أهم المسائل التي تعالجها نظرية العوالم الممكنة وهي مسألة وضع الذوات فيها "فهل الذوات تتغير بتغير العوالم (نظرية بلانتينكا Plantinga)، أم أن العوالم تتغير مع ثبوت الذوات (نظرية كرييك kripke)، أم أن للذوات نظائر هي التي تتغير بتغير العوالم الممكنة (نظرية لويس lewis)".

وعلى هذا، فإن الذات في أي نص هي محور نظرية العوالم الممكنة، وتُحدد هويتها من خلال الخصائص والسمات التي تكتسبها في عالم معين، وقد تتغير هذه السمات فتتغير الذات دون أن يتغير العالم الذي تنتمي إليه، أو قد يتغير العالم دون أن تتغير سماتها فتبقى كما هي. ولذلك يرى كريك أنه "قد يُتصور وجود ذوات أخرى بهاته العوالم غير الذوات التي تسكن هذا العالم، فقد توجد ذوات لا توجد فيه، وقد يتصور أن ذوات هذا العالم تنقلب إلى غيرها بانقلاب العالم إلى غيره، ولا تكون هي هي بعينها إلا في هذا العالم ليس غير" (عبد الرحمن، 2002، ص. 137).

والفرق بين العوالم الممكنة في النظريات الدلالية والمنطقية السابقة وبينها عند إيكو، هو أنها في النظريات السابقة عوالم فارغة و"مجردة وخالية من أية بنية"، بمعنى أنها تسند إلى الأفراد خصائص وسمات، لكنها بدون أي سمة تعاقبية قادرة على جعل هذه الخصائص متغيرة ومتحولة، بينما عوالمه هو مؤتثة من أفراد ومن خصائص أو أفعال تميزهم، فهي عوالم "حاملة" كما يسميها؛ لأنها تسمي الأفراد وتبني خصائصهم أو أفعالهم بصورة متعاقبة. وما يكون مسؤولاً عن هذه التعاقبية وسمة التحول في الخصائص المنسوبة لأفراد الحكاية هو عملية بناء التوقعات وتخطيطها من قبل القارئ الذي لا يقوم بتعرفه على خصائص الأفراد فحسب، بل يقوم إلى جانب ذلك بعملية توقع لما يمكن أن يستمر من تلك الخصائص والأحداث أو يختفي في كل حالة من حالات الحكاية المتعاقبة (إيكو، 1984/1996).

وبما أن إيكو قد خلص المفهوم من حملاته الفلسفية بإدخاله في صلب سيميائية الثقافة الحديثة، فإنه يجعل تعيين خصائص بعض الأفراد يرجع إلى العالم المرجعي/ عالم خبرة القارئ، وهو مختلف من قارئ إلى آخر بحسب ثقافته التي ينتمي إليها. أما تحديد خصائص فرد لا ينتمي لعالمنا الواقعي مثل الذئب الناطقة على سبيل المثال، فيرجع إلى عالم الحكاية نفسه وهو عالم غرائبي، حيث للذئب خاصية التكلم.

ومن خلال حديثه عن عملية بناء الاستدلالات والتوقعات بوصفها تجسيداً مسبقاً لعوالم ممكنة، يشرح إيكو كيف أن القارئ إذ يبني هذه التوقعات التي من شأن النص أن يثبت صحتها أو زيفها "يضطلع بموقف قضوي (يظن، يرغب، يود، يأمل، يعتقد) فيما خص التحول اللاحق للأشياء. وهو إذ ينجز ذلك الأمر فإنه يشكل مجرى من الأحداث ممكنًا، أو حالة من الأمور ممكنة... فالقارئ يجازف بأن يطرح فرضيات حول بني عوالم"، وينتهي إيكو من كل ذلك إلى الإقرار بأن "العوالم الممكنة" أبنية ثقافية"، بمعنى أن الأفراد فيها مبنيين من خلال إضافة خاصيات " (إيكو، 1984/1996، ص. 170).

يقرر إيكو، إذن، أن مجموع المواقف القضائية التي يتبناها القارئ يتشكل وفقًا لسلسلة من الاعتقادات والظنون، وهي أساس تشكيل أي عالم ممكن في أي نص حكاوي. وثبات صحتها أو زيفها مرهون بما يقره النص أو ينفيه. وقد لا يرسل النص تأكيدات حول حالة الحكاية النهائية، إنما يرتقي قارئاً نموذجياً، يكون على قدر كبير من التعاضد (التعاون) بحيث يؤتي له أن يصطنع لنفسه حكاياته وحده.

وفي عملية التبيين الدلالي يخضع تعيين خاصيات الأفراد بوصفهم علامات نصية في أي عالم حكاكي لسلسلة من الإكراهات اللسانية، فلا يمكن تفعيل كل الخصائص الدلالية التي تحملها العلامة. وللحد من لا تناهي التأويل يرى إيكو أن القارئ لا يفعل من خصائص العلامة الدلالية إلا ما يحتاجه النص، ويترك الباقي في حالة من الخدر إلى أن يقترح النص تنشيطها (إيكو، 1984/1996). وكل تأويل لابد أن يتم وفق غاية ما، وداخل كون خطابي ومن خلال خصائص بعينها، ولابد من وضع رابط يجمع بين تداعيات أي علامة، هذا الرابط يتحدد من خلال غايات المؤول النفعية (إيكو، 1992/2004).

وعلى هذا، فإن نظرية العوالم الممكنة تعين القارئ على أن يمنح الأفراد الخصائص التي يتطلبها بناء عالم النص الممكن، وليس كل الخصائص التي قد تتيحها الموسوعة. وعليه فإن إيكو يميز بين خصائص ضرورية جدية بالاعتبار في أي عالم، وأخرى عرضية تبدل من عالم لآخر، وأن هذه الدلالات أو الخاصيات "لا تصير ضرورية أو عرضية تقريباً إلا بالنسبة للمدار الحكائي" (إيكو، 1984/1996، ص. 178، 184).

ويستخدم إيكو مصطلح "ضرورية" للدلالة على تلك الخاصيات التي تنشأ من العلاقات بين أفراد الحكاية. فهي ضرورية من حيث أهميتها البالغة في تعيين هوية الأفراد في النصوص الحكائية وليس في عالمنا الواقعي، إذ إن تعيين هوية الفرد في العالم الواقعي لا يقتضي دخوله في علاقة مع فرد آخر كما في عالم الحكاية. وهذه الطريقة تعين القارئ على تحديد الفائضين في العوالم الحكائية الأخرى، فالفائض، في نظر إيكو (1984/1996) هو فرد يحتفظ بالعلاقات الضرورية مع غيره من الأفراد في عالم ممكن ما، ولكنه يختلف عنهم بالخاصيات الجوهرية فقط. ولذلك يرى إيكو "أن مسألة الهوية الحقّة عبر العوالم هو أن يحدد شيء على أنه ثابت عبر حالات من الأشياء متعاقبة" (ص. 188).

إذن تعد نظرية العوالم الممكنة نظرية قادرة على قياس الحدود والمسافات بين العالم المرجعي والعوالم الحكائية، فيمكننا انطلاقاً من عالمنا المرجعي الخاص بنا، ويرمز له إيكو بـ (و.) تصور أي عالم آخر (ون1) أو (ون2) ...، وذلك بقياس الاختلافات البنوية بين الأفراد وخصائصهم أيهما (أقل - أغنى - أميز..)، كما أنه بناء على قيمنا وتقاليدنا وعاداتنا التي اكتسبناها سابقاً يمكننا الحكم على العوالم الأخرى وتقويمها (إيكو، 1984/1996).

2.2. مفهوم المدار

يعود هذا المصطلح إلى السيميائي الإيطالي أمبرتو إيكو، ويعني به "الفكرة الأساسية التي يدور حولها نص ما، ويمكن الكشف عنه من خلال بعض الكلمات المكررة، أو الكلمات المفتاحية في النص أو من خلال العناوين، أو من خلال الأسئلة التي يثيرها النص" (إيكو، 1984/1996، ص. 118) وهو بهذا التعريف يلتقي مع مصطلح ثيمة أو موضوعة، Theme، والسبب الذي جعل إيكو يفضل على مصطلح الثيمة هو أن "كلمة ثيمة أو موضوعة توشتك أن تتخذ معاني أخرى، على سبيل المثال فإن كلمة ثيمة لدى توما تشفسكي تدنو كثيراً من المفهوم Fable أي الحكاية"،

بينما يرى إيكو (1984/1996، ص. 113) أن "المدار أداة ما وراء نصية، وترسيمة افتراضية يقترحها القارئ، فتكون الحكاية جزءاً من مضمون النص، وبالتالي يكون المدار أداة تداولية، بينما الثيمة بنية دلالية". فإذا كان إيكو يرى أن الثيمة وفقاً لاستخدامات الشكلايين الروس لها مرتبطة بالنص ومضمونه، فإنه يرى أن المدار يقوم بما تقوم به الثيمة من تنظيم مضمون النص وحصر الدلالات، بالإضافة إلى كونه منوطاً بالقارئ، إذ يجعله مسؤولاً عن عملية ضبط القراءة وتصحيح مسار التأويل؛ وهو ما يسوقه إلى القول بأن تعيين القارئ للمدار يعني التقدم بفرضية حول انتظام معين يعتري المسلك النصي مما يحقق معه انسجام النص وتماسكه، فهو كما يقول يندرج في باب الاستدلال أو فيما يدعوه بيرس "قياس احتمالي" (نقلاً عن إيكو، 1984/1996).

وينطلق الباحث المغربي عبد اللطيف محفوظ (2008) من المسلمة السابقة نفسها في التفريق بين الثيمة والمدار، ولكنه يضيف بأن المدار يسبق فعل الإنتاج نفسه، فهو الأسئلة التي واجهت المؤلف قبل أن يشرع في التأليف أو الغرض الذي من أجله كتب النص. ويضيف أيضاً بأن هذا المدار الذي يرتبط بأغراض تأليف النص يختلف عن مدارات النص والمدارات السردية التي تظهر في النص وقد تجسد وظهر للعيان، ويطلق عليه "المدار السياقي" لنشأته ضمن سياقات التأليف الثقافية والأيدولوجية التي سبقت ظهور النص.

ويرى إيكو أن تعيين القارئ للمدار وتحديدده يساعده على التعرف إلى الخصائص والسمات الدلالية التي ينبغي تفعيلها واستبعاد ما لا حاجة للنص به؛ مما يتحقق معه انسجام النص وتماسكه، أو ما يطلق عليه غريماس النظر Isotope فإذا كان النظر يعني عند غريماس التماسك والانسجام النصي، فإن إيكو يقرر بأن "المدارات تعني شيئاً آخر، إذ هي ترتبط بمبادرة القارئ وفرضياته، فتحقيق النظر أو التشاكل مرهون بتعيين المدار" (إيكو، 1984/1996، ص. 118).

ومن كل ما سبق يمكن حصر وظائف المدار في رفع الالتباس الدلالي من خلال تعيين الخاصيات الضرورية، والجوهرية لكل فرد، ومن ثم توجيه القارئ في بناء العوالم الممكنة للأفراد، وتحديد مساراتها وتنوعها وتحولاتها.

3. مدارات رسالة ابن فضلان وعوالمها الممكنة

1.3. المدارات السياقية لرسالة ابن فضلان

تعد هذه المدارات بمثابة الأسئلة الكبرى التي ينبنى عليها النص فهي البنية العميقة الأساسية التي من خلالها تتشكل جميع البنى الأخرى فيه. ويمكن الكشف عنها كما أشرنا سابقاً من خلال فحص السياقات الثقافية والأيدولوجية التي يحيل إليها النص، ومن ثم استنتاج الأسئلة التي أثّرت في ذهن الكاتبين والأغراض التي حثتهما على الكتابة. وهذه المدارات السياقية أو الأغراض التأليفية سينبني عليها نوع الجنس الأدبي كما ستحدد وفقها الموضوعات الأساسية وطبيعة الشخصيات والأدوار الموكلة إليها والبرامج السردية، والعوالم المرجعية والممكنة.

تتأسس رسالة ابن فضلان الأصلية على تداخل العجائبي بالرحلي في قالب سردي يتخذ من السيرة الذاتية قالباً أدبياً. بينما نجد أن رواية أكلة الموتى هي جنس أدبي محدد وواضح المعالم، فهي ليست إلا حكاية عجابية اتخذت من سيرة ابن فضلان عالماً مرجعياً لها يتلخص دوره في الإيهام بالواقع. ولذلك فإن أول ما يبرز إلى السطح هو غلبة الواقعية على التخيلية في الأولى، وتخيلية الثانية. وإذا كان ابن فضلان كاتباً فعلياً ومؤلفاً ضمناً وسارداً لمسروياته في رسالته، فإنه لا يشكل إلا سارداً تخيلياً في أكلة الموتى، وعلى هذا الأساس ستختلف المدارات السياقية الكبرى (أغراض التأليف) الموجهة للحكي في كلا النصين، كما ستختلف الأدوار العاملة المسندة إلى ابن فضلان بوصفه ذاتاً فاعلة، لها موضوع محدد تسعى إلى الاتصال به أو الانفصال عنه. فالمؤلف الضمني في رسالة ابن فضلان يرغب بإيصال رسالة الإسلام والخليفة العباسي، بينما يرغب مؤلف رواية أكلة الموتى بإيصال فكرته عن العرب من خلال مقارنتهم بالشمالين وبطولاتهم الحربية. ووفقاً للمدار الغالب على النص تتفرع المدارات الصغرى التي تظل موجهة من هذه المدارات، وكذلك فإن الشخصيات مهما بلغت مرجعيتها التاريخية أو الاجتماعية أو الأسطورية يظل تحديد خصائصها مستنداً إلى هذه المدارات.

في رسالة ابن فضلان نجد أن نص الرحلة يبنى وفقاً لطلب فعلي من الأمير المقتدر بالله (المرسل) موجه إلى ابن فضلان وصحبه لتلبية رغبة ملك الصقالبة "أملش بن بطوار" في تعليمه أمور الفقه وشرائع الإسلام، وتوجيه المال لمساعدته في بناء مسجد ومنبر يقيم عليه الدعوة، وحصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له. وبهذا يتكون المدار الغالب على النص من سياقين أيديولوجيين: الأول سياق ديني يتمثل في الرحيل لتعليم أمور الدين، والثاني سياق سياسي ينقسم بدوره إلى سياقين؛ سياسي حربي، إذ يوجه جزء من المال لبناء الحصن ضد الأعداء، وسياسي ديني، حيث يوجه الجزء الآخر من المال لبناء منبر للدعوة، ونشر الإسلام، وبهذا يتم تأكيد الانحياز والتبعية الدينية للخلافة العباسية.

تنطلق الرحلة من بغداد إلى خوارزم ومنها إلى الترك، ثم إلى الصقالبة، وتنتهي المهمة هنا ويتحقق الغرض من تأليف الرسالة الظاهر للقارئ، والذي صرح به ابن فضلان بوصفه مؤلفاً ضمناً لنصه. ولكنه يواصل رحلته إلى روسيا، ثم الخزر، وهذا الامتداد غير المبرر للرحلة من قبل ابن فضلان - بدلاً من العودة إلى بغداد - يفضي بنا إلى الاعتقاد بأن الغرض من كتابة نص الرحلة أساساً لم يكن لإيضاح دور رسالة الخليفة بقدر ما كان رغبة في السيطرة على مجرى الحكي، وفرض استمراره في بقية الرحلة بوصفه السارد القادر وحده على إتمام السرد أو إيقافه.

وهنا يمكن القول بأن الرسالة تتأسس على مدارين سياقيين؛ أحدهما تنفيذ أمر الخليفة بإيصال رسالته لملك الصقالبة، والثاني امتلاك زمام السرد وفرض السلطة والقوة. ويغلب المدار الأخير على الأول، مما يفضي إلى تحول في البنى السردية الفاعلة؛ إذ يتحول ابن فضلان من مجرد مرسل إلى مرسل يتحكم بزمام الأمور كلها. وتبدو السلطة واضحة في كلا المدارين؛ إذ يستمد ابن فضلان قوة خطابه من قوة الخلافة في ذلك الوقت، فعاصمة الدولة العباسية في تلك الأثناء

كانت على درجة عالية من السيطرة والقوة والمنعة، ولهذه القوة والهيمنة أثرها في جعل خطاب ابن فضلان مسكوناً بهاجس التفوق الديني، والعرقي، والعقلي، والحضاري. وهذا ما دعا محقق الرسالة إلى وصف النظرة التي تميز بها ابن فضلان للحضارات الأخرى بأنها نظرة فوقية (ابن فضلان، 1959)؛ ولهذا يرى بعض الباحثين أن وصف ابن فضلان لعقائد الأمم الأخرى ليس تعبيراً عن ولعه بالغريب، بقدر ما كان تعبيراً عن موقف استعلائي مشروع في ظل التفوق الديني والسياسي لدولة العباسيين، وعن إيمانه بعالمية رسالته الإسلامية، وعلوها على سائر العقائد الأخرى (العظمة، 1991).

وإذا كانت هذه النظرة الفوقية صادرة من ابن فضلان نظرًا للموقع المتفوق الذي ينظر منه، نجد الممالك الأخرى تعزز من تلك النظرة؛ حين تطلب من الخليفة العباسي أن يمد لهم يد العون ليس لضعفهم، بل لاعتقادهم بأن قوتهم لن تكتمل إلا بمعاونة خليفة بغداد (ابن فضلان، 1959).

ولا يكتفي نص ابن فضلان بفرض رؤيته الدينية والسياسية، أو رسم صعود المجتمع العربي وهيمنته دينيًا وسياسيًا إبان سيطرة الخلافة العباسية، بل يمضي إلى إثبات تفوقه على المستوى العلمي الطبي. فيشير سامي الدهان إلى هذا السياق الذي نشأ فيه النص، فيقول: "وقد حمل الوفد فيما حمل "أدوية" كان ملك الصقالبه طلبها من نذير الخرمي، وهذه شهادة أخرى على تقدم المملكة العباسية، وغنى حضارتها، ووفرة الأدوية عندها، وفقدانها في بلاد البلغار آنذاك" (ابن فضلان، 1959، ص. 25).

ووفقًا لحدّ المدار المهيمن في إثبات السلطة نجد أن البرنامج السردى لا يبدأ من إرسال الخليفة العباسي لابن فضلان بل يسبقه تمهيد يوضح فيه ابن فضلان السبب الذي من أجله كانت البعثة، وهو إرسال ملك الصقالبه لرجل من عنده يستنجد ضد أعدائه من الخزر، ويطلب منه بعض المال والرجال. وهو مشهد يظهر فيه ضعف ملك الصقالبه الأعجمي في مقابل قوة الخليفة العربي، على عكس ما سارت عليه رواية أكلة الموتى - كما سنرى لاحقًا - وهذه التعارضات الأيديولوجية العميقة لا تكتفي بالظهور في الوضع البدئي للقص، بل تستمر في تضاعيف الرحلة وحتى خاتمتها.

2.3. المدارات النصية والسردية

يمكن رسم بقية المدارات التي سرد من خلالها ابن فضلان رحلته إلى مدارات نصية كبرى وأخرى نصية فرعية، وهي مسؤولة عن تأنيث المقاطع السردية وملئها بالمسردات والحكايات، لكنها ليست مترتبة في الظهور، بل قد تظهر ضمن أكثر من مقطع سردي واحد. ويمكن حصرها ضمن الجدول الآتي:

جدول 1: المدارات النصية السردية الكبرى والفرعية في رسالة ابن فضلان

المدار النصي الأكبر							
وصف الرحلة							
المدارات النصية الفرعية							
وصف	وصف	وصف	وصف	وصف	وصف	وصف	وصف
الطبيعة الجغرافية	المناخ	الهيئة البشرية	عادات وتقاليد الأمم الأخرى	عجائب الأمم الأخرى	أخلاقهم	أحوالهم الاقتصادية	أحوالهم الدينية

ويمكن أن تتفرع مدارات أصغر فأصغر كلما مضينا في قراءة الرسالة، ومن الأمثلة على ذلك تفرع مدار وصف العادات وتقاليد الأمم الأخرى إلى مدار وصف اللباس، ومدار وصف المأكّل والمشرب، ومدار وصف عادات الزواج وهكذا.

أما المدارات السردية، فتتفرع وفقاً لطبيعة السرد إلى مدارين رئيسين؛ مدار السرد الواقعي لأحداث الرحلة الذي يتفرع بدوره بدءاً من الخروج من بغداد ثم الوصول إلى خوارزم، ثم الباشغرد، ومدار السرد العجائبي؛ إذ ينحرف السرد عن مجراه عندما يصل ابن فضلان إلى بلاد البلغار ثم الروس والخزر، فيتخذ منحى عجائبياً، كسرده لحادثة الغمامتين اللتين تقتتلان، وحادثة الرجل من يأجوج ومأجوج، وطقوس الموت العجيبة، ومدار السرد العجائبي يأتي بعد مدار السرد الواقعي ويتخلله، كما هو موضح في الجدول الآتي:

جدول 2 : مدارات السرد الرئيسية لرسالة ابن فضلان، المدار الواقعي والمدار العجائبي

المدارات السردية						
مدار س 1						
السرد الواقعي لأحداث الرحلة						
بغداد	خوارزم	الباشغرد	البلغار	اتل	الروس	الخزر
مدار س 2						
السرد العجائبي لأحداث الرحلة						
البلغار				الروس		

وبهذا تنتظم هذه المدارات السياقية لرسالة ابن فضلان برامجهما السردية على النحو الآتي:

جدول 3: البرامج السردية للمدارات السياقية في رسالة ابن فضلان

فرض سلطة الخلافة الإسلامية على باقي الأمم			
مدار ق 1		مدار ق 2	
(ضعف الممالك الأخرى)		(تفوق الخلافة العباسية وهيمنتها)	
البرنامج السردى 1:		البرنامج السردى 2:	
المرسل:	ملك الصقالبة.	المرسل:	الخليفة
المرسل:	رجل مسلم من الخزر يجيد العربية.	المرسل:	ابن فضلان
الموضوع:	لقاء الخليفة وإقناعه بإرسال وفد إليه (لتعليمه أحكام الدين - دعمه سياسيًا - ومساعدته طبيًا)	الموضوع:	لقاء ملك الصقالبة (نشر الدين - الدعم السياسي - المساعدة الطبية)
المساعد:	لا يوجد	المساعد:	تكوين نذير الحرمي
المعارض:	لا يوجد	المعارض:	ملك الترك.

يعمل البرنامج السردى الأول كوضع بدئي للقص وتمهيد وسبب للقيام بالرحلة، فلا يوجد مساعدون أو معارضون ولا عقبات، فهو بمثابة الإيعاز والتحريك للرحلة.

3.3. العالم المرجعي للرحلة

يتحدد هذا العالم بالخلفية المرجعية للنص، والسياقات التي تضررها أو التي تحيل إليها مباشرة. فنص ابن فضلان يستند إلى خلفية مرجعية تاريخية، ومعظم أسماء الأعلام التي وردت فيه لها مرجعية تاريخية ثابتة، كالمقتدر بالله، وأملش بن يلقطار، وسوسن الروسي ونذير الحرمي، وابن الفرات⁷، وغيرها من الأسماء التي وردت في فاتحة الرسالة" (ابن فضلان،

(1959)، فهو في مجمله نص واقعي يتكئ على الواقع بصورة كبيرة، ولا يحتل العنصر العجائبي إلا جزءاً يسيراً في خاتمته، كما أنه لا يتجاوز العجائبي إلى الخرافة. فيتعجب ابن فضلان من حمرة الشمس وطول الليل ومن سمك الجليد وشدة البرد في بلاد الترك، ومن طقوس دفن الأموات في بلاد الروس. وهي أمور واقعية، ولكنها مقارنة بالبيئة العربية التي اعتادها تعد عجيبة وغريبة. فهو في مجمله نص مبني على الوقائع والمشاهدات التي يسجلها ابن فضلان متوقعاً من قرائه تصديقه في كل ما يخبر عنه، ولذلك حاكمه القراء وفقاً لهذا التصور، فنجد ياقوت الحموي قد صادر على بعض النصوص فيه "ونقده وخالفه في بعض المواضع، وأخذ عليه أشياء وكذبه في أشياء" (ابن فضلان، 1959، ص. 34). فلو كانت هذه النصوص من نسج خيال المؤلف وإبداعه لكان ياقوت قد علق قراءاته المصدقية ومضى في قراءته دون أن يصحح أو يكذب، ولكن لشدة واقعية ابن فضلان في القص والسرّد نجد القراء يقفون عند نصوصه متفحصين ومقارنين بين ما يرد فيها من معلومات وما يوجد حقيقة على أرض الواقع. فيقول ياقوت معلقاً على ما نقله ابن فضلان من وصف الرجل من يأجوج ومأجوج: "هذا وأمثاله هو الذي قدمت البراءة منه، ولم أضمن صحته". كما يعلق على وصفه سماكة الجليد في نهر إتل في بلاد الخزر، فيقول: "وهذا كذب منه، فإن الذي يجمد خمسة أبار وهذا ما يكون نادراً، فأما العادة فهو شبران أو ثلاثة، شاهدته وسألت عنه أهل تلك البلاد، ولعله ظن أن النهر يجمد كله وليس الأمر كذلك" (الحموي، 1977، 88/1)، فعوالم النص التخيلية لا تتعارض كثيراً مع العالم الواقعي. وكونها تنتمي إلى أدب الرحلة فهي تعامل كما تعامل النصوص الواقعية، بالإضافة إلى عدها مصدرًا من مصادر الكتابة التاريخية في العصر الإسلامي التي يستقي منها المؤرخون المعلومات والحقائق من المشاهد الحية والتصوير المباشر (المطيري، 2021).

أما عن السياق التاريخي الذي نشأ فيه النص سنجد أن زمن إنتاج النص كان في خلافة المقتدر بالله. وقد تأثرت خلافته بظروف وعناصر مختلفة، فقد وصل إلى الحكم في جو مليء بالمؤامرات والنزاعات وبدا خلعه أو بقاؤه رهنا بذلك (التنوشي ت. 384، ط. 1995، الشالجي، 1995؛ ابن الجوزي، ت. 597، ط. 1992)، فتدهورت الأوضاع السياسية في عصره (ابن الجوزي؛ الطبري، ت. 310هـ، ط. 1967، إبراهيم، 1967).

وقد تركت هذه الاضطرابات آثاراً سلبية على الأوضاع المالية والاقتصادية للدولة، فقد أنفقت الدولة الكثير من الأموال على حرب القرامطة الذين أكثروا من القتل والسلب، كما تركت هذه الاضطرابات السياسية والاقتصادية أثراً سلبياً على مقام الخليفة، حيث كثر شغب الجند والعامة وتجرؤوا على الخليفة بالشتيم علانية، وطالبوا بتنحيته ليقعد مكانه من يحسن أن يسوس ويدبر (الذهبي، ت. 784، ط. 1993؛ التدمري، 1993).

وبالرغم من أن الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها الخلافة العباسية أيام المقتدر بالله وهي الفترة التي كتب فيها النص؛ تعبر عن نهاية الدولة العباسية وضعفها وتفككها (ذياب، 2003)؛ إلا إن العالم الذي يحيل إليه النص يعكس واقعاً مختلفاً. والعالم المرجعي للنص -وفقاً للسيميائيات الحديثة- مرهون بالإشارات النصية الواردة فيه، ولا يتوجب على

القارئ أن يعود إلى تلك السياقات التاريخية خارج النص ليفهم هذا العالم، بل عليه أن يلتزم بحدود علامات النص وإشاراته. ومن أول الإشارات المؤسسة لهذا العالم تلك النبرة الواثقة بقوة الدولة العباسية وعزتها، ووفقاً لهذا العالم تتأسس مدارات النص، ويصوغ ابن فضلان تصوراتّه عن بقية العوالم الممكنة في النص.

4.3. عوالم رحلة ابن فضلان الممكنة

من المدارات السياقية الكبرى في النص ترسم العوالم الممكنة وتتأثت وفقاً لها، فوفقاً للمدارات السياقية، (ضعف الممالك الأخرى، عظمة الخلافة العباسية وقوتها) تبني تصورات ابن فضلان عن هذه الممالك، كما تبني تصورات هذه الممالك عن دولة الخلافة. وتتداخل العوالم الممكنة التي يبينها كل مجتمع عن الآخر، وأخيراً وفق هذه العوالم مجتمعة يبيّن القارئ -وهو العنصر الأهم في العملية السردية كلها -تصوراته عن ابن فضلان ويرسم عالمه الممكن الذي قد يستمر في قراءته لرواية أكلة الموتى أو ينتقض.

1.4.3 عالم الشخصيات

1.1.4.3 العالم الممكن لملك الصقالبة من منظور ابن فضلان

من منطلق هيمنة الخلافة العباسية وقوتها سياسياً واقتصادياً ودينياً وعلمياً يبدأ السارد ابن فضلان في إسناد أهم خاصية لملك الصقالبة الذي سيلتقيه. فهو في نظره بحاجة إلى مساعدة الخليفة، دينياً، فهو إذن جاهل بأمور الدين، وبطلبه أدوية منهم، فهو إذاً متأخر علمياً وطبيّاً، وهو إلى جانب ذلك كله يطلب منهم مالا يتمكن خلاله من بناء حصن ضد الأعداء. فهو يتعرض لاعتداءات من ملك الخزر ولا يستطيع الدفاع عن نفسه إلا بمساعدة العباسيين، كما أن عليه ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر (ابن فضلان، 1959).

وحين يصل ابن فضلان إلى مملكة الصقالبة يفاجأ بأنها مملكة واسعة وأموالها جمّة، وخراجها كثير. وهنا يتحطم العالم الممكن الذي رسمه عن ملك الصقالبة فيما يتعلق بوضعه الاقتصادي وعوز مجتمعه وفقره. إذ يخاطبه ابن فضلان متعجباً من طلبه المال: "وسألته يوماً وقلت له: مملكتك واسعة، وأموالك جمّة وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبيني حصناً بمال من عنده لا مقدار له؟ فقال: رأيت دولة الإسلام مقبلة، وأموالهم يؤخذ من حلها، فالتمسست ذلك لهذه العلة، ولو أني أردت أن أبني حصناً من أموال من فضة أو ذهب ما تعذر ذلك علي. وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين. فسألته ذلك" (ابن فضلان، 1959، ص. 146).

فإذا كان هذا الخطاب يقوض جزءاً من العالم الممكن الذي رسمه ابن فضلان عن ملوك العجم، إلا أنه من جانب آخر يعزز من عظمة صورة الخلافة في نظر الأعاجم، فبالرغم من كثرة أمواله إلا أنه مازال بأمرٍ الحاجة إلى مال المسلمين العرب لاعتقاده بأن البركة لن تحل بدونه، وأن مال العباسيين وليس ماله هو ما سينجيه من أعدائه. كما يفاجأ ابن فضلان بحنكته السياسية في تزويجه ابنته الثانية للملك الذي من تحته "أسكل" خوفاً من اعتداء ملك الخزر مرة ثانية

واغتصابها كما فعل بأختها. ويفاجأ أيضاً بقوته وهيبته بين قومه، وهي صورة على النقيض مما أوحى به مقدمة الحكاية من استنجاهه بالخليفة. ويستشهد على ذلك بالأحداث التي دارت بينه وبين قوم "سواز" الذين أمرهم بالرحيل معه إلى نهر "جاوشيز"، وهو نهر صعب العبور لعلو مياهه وبلوغها إلى الترقوة. فافترقوا فرقتين، فرقة أجابته إلى ما يريد وهم تحت قيادة صهره "أسكل"، وفرقة امتنعت تحت قيادة ختنه "ويرغ". وبعث إليهم بخطاب يذكر فيه أنه يستمد قوته بما منّ الله عليه من الإسلام وبدولة أمير المؤمنين، "فخافوا ناحيته، فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر جاوشيز" (ابن فضلان، 1959، ص.141).

وبهذا يمكن رسم العالم الممكن ون 1 الذي أسنده ابن فضلان لملك الصقالبة ومملكته، والعالم الفعلي ون 2 الذي تحصل عليه وفق الخصائص الجوهرية في كليهما كما يتضح من الجدول التالي:

جدول 4: الخصائص الجوهرية للعالم الممكن والعالم الفعلي في رسالة ابن فضلان

الخصائص الجوهرية				
تدهور الوضع الاقتصادي	الضعف السياسي	تأخر علمي / طبي	الضعف الديني	ون 1
+	+	+	+	
-	-	+	+	ون 2

ويعود ابن فضلان إلى إسناد خصائص عرضية كثيرة لملك الصقالبة، وهي عرضية في علاقتها بالمدارات السياقية الكبرى لنص الرسالة، ولكنها تعد جوهرية في علاقتها بالمدارات النصية لوصف الرحلة، أو المدار السردى المسؤول عن الوصف الواقعي للأحداث. فبقية الخصائص التي يسندها ابن فضلان لملك الصقالبة تأتي ضمن وصفه لأحوال البلاد والناس، وطرق المعيشة، كوصفه لطريقة استقباله لهم، وطريقة جلوسه في قبه "على سرير مغشّى بالديباج الرومي" (ابن فضلان، 1959، ص.113)، وطريقة أكله وأكل من حوله من المائدة وطريقة ركوبه، أو طريقة احترام الناس له إذا اجتاز السوق، أو إذا دخلوا إليه لسؤاله حاجة (ابن فضلان، 1959).

وفي المدار السردى الذي كان ينتظم مجرى الأحداث الواقعية وتنقلات الرحلة تبرز بعض السمات التي تتسم بأنها عرضية بالنسبة للمدارات السياقية السابقة، لكنها تعد سمات جوهرية في تنمية هذا المدار السردى، إذ يتوقف ابن فضلان أثناء سرده لتنقلات الرحلة ليسرد أحداث قصة اختفاء المال الذي وجهه الخليفة مع أحمد بن موسى. فيصف بعد ذلك لقاءه بملك الصقالبة وليس معه المال الذي كان ينتظره، فيقول: "فانصرف من بين يديه مذعوراً مغموماً، وكان رجلاً له

منظر وهيبة، بدين، عريض كأنما يتكلم من خابية". فهذه السمات: "له منظر وهيبة - بدين - عريض - كأنما يتكلم من خابية"، لا تعد سمات جوهرية في تنمية المدار السياقي حول ضعف ملوك العجم، أو هيمنة الخلافة العباسية، بل هي على النقيض من ذلك، وليس لها أهمية إلا من جهة تنمية مدار سرد أحداث قصة اختفاء المال، وهو مدار فرعي عن المدار السردى الأكبر سرد الأحداث الواقعية للرحلة، والذي سيأتي شرحه بالتفصيل في الفقرة التالية.

وإذا كانت السمات الشكلية مثل البدانة، وعرض الجسد التي تميز بها ملك الصقالبة غير ذات أهمية هنا في تنمية مدار "هيمنة الخلافة العباسية وقوتها"، وتقتصر أهميتها على المنظر المهيب الذي انطبع في مخيلة ابن فضلان وهو يتلقى فَرْعًا خبر انكشاف موافقة الخليفة على المال الذي لم يحضروه له؛ فإنها تعود إلى الظهور في سياق مختلف لتنمية هذا المدار نفسه، فتتحول إلى سمات جوهرية هنا في علاقتها بهذا المدار، ففي سرد ابن فضلان لملايسات قراءة كتاب الخليفة عليه يقول: "وأخرجت كتاب الخليفة. وقلت له: لا يجوز أن تجلس والكتاب يقرأ، فقام على قدميه". فيشرح كيف وجه إليه الأمر بالقيام، وكيف قام الملك وامتلأ لأمره، وفي غضون ذلك يشير إلى أهم سمات الملك في هذا السياق؛ بدانته الشديدة وعرضه، لأهميتهما هنا في إيضاح مدى الهيبة التي يتمتع بها الخليفة بالرغم من المسافات الشاسعة بينه وبينهم، حيث يقف له الملك احترامًا، ويتحامل على نفسه بالرغم من بدانته الشديدة. "فقلت له لا تجلس والكتاب يقرأ، فقام على قدميه هو ومن حضر من أهل مملكته، وهو رجل بدين بطين جدًّا" (ابن فضلان، 1959، ص. 114).

2.1.4.3. العالم الممكن لابن فضلان من منظور ملك الصقالبة

يتوقف ابن فضلان بالسرد المتسارع في بداية الرحلة عند دخولهم إلى بخارى ليحكي قصة تأخر أحمد بن موسى الخوارزمي في بغداد بعد خروجهم منها، ومعه الأربعة آلاف دينار التي طلبها ملك الصقالبة، وقد وعدهم بملاقاتهم في خوارزم، ولم يتمكن من الوفاء بوعده إذ ترئّص به الفضل بن موسى الأنصاري في طريقه واعتقله، فلم يستطع اللحاق بهم. وحينها اقترح ابن فضلان على صحبه أن ينتظروا ببخارى حتى يوافيهم أحمد بن موسى؛ لأهمية حضوره بما يحمله من المال وهو غرض الرحلة، ولكن صحبه رفضوا البقاء خوفا من دخول الشتاء، ومن ثم صعوبة اجتياز أرض الترك، فأجابوه بقولهم: "إن أقمنا هجم الشتاء علينا وفاتنا الدخول، وأحمد بن موسى إذا وافنا لحق بنا" (ابن فضلان، 1959، ص. 78).

ثم يعود إلى ذكر هذه الحادثة لأهميتها في تحويل العالم الممكن الذي سبق أن بناه ملك الصقالبة عنهم، فيقول مكرراً الحدث نفسه بصياغة أخرى، بعد أن اجتازوا خراسان وبخارا وخوارزم ووصلوا إلى الجرجانية عازمين على المضي إلى الترك: "فلما كان في اليوم الذي عزمنا فيه على المسير قلت لهم: يا قوم معكم غلام الملك وقد وقف على أمركم كله، ومعكم كتب السلطان، ولا شك أن فيها ذكر توجيه أربعة آلاف دينار المسيية له. وتصيرون إلى ملك أعجمي فيطالبكم بذلك، فقالوا: لا نخش ذلك فإنه غير مطالب لنا. فحذرهم، فقلت: أنا أعلم أنه يطالبكم، فلم يقبلوا" (ابن فضلان، 1959، ص. 88).

ترسم من خلال هذا النص إمكانيتان سرديتان؛ الأولى (ويبينها ابن فضلان من خلال تصويره للأحداث) أن يطالبهم ملك الصقالبة بالمال لعلمه بأن الخليفة أمر بإنفاذه إليه بسبب وجود رسوله وعلامه معهم (عبد الله بن باشتو الحزري) ووقوفه على ما جرى بينهم وبين الخليفة من اتفاقيات. والإمكانية الثانية -ويبينها رفاقه في الرحلة- أن الملك لن يطالبهم بشيء. فيعيد ابن فضلان سرد الحدث بطريقة مختلفة مستخدماً أسلوب الحوار والحجاج والإقناع (الطبي، 2021)، ولكن رفاقه رفضوا الإصغاء إليه.

ومع مضي السرد تثبت الإمكانية الأولى وتبطل الثانية وتحقق توقعات ابن فضلان، وبسبب هذه الحادثة يتقوض العالم الممكن الذي رسمه عنهم ملك الصقالبة من أنهم قوم في غاية الهيبة والشرف، يفون بوعدهم، ولا يخونون الأمانة. ينهض بهذا العالم المدار السياقي السابق "تفوق الدولة العباسية سياسياً ودينياً..."، وتأتي هذه الهيبة والاحترام الكبير الذي يكنه ملك الصقالبة لدولة الإسلام والخلافة في تصريحه لابن فضلان بقوله: "تعلم أن الخليفة أطل الله بقاءه لو بعث بجيش يقدر علي؟ قلت: "لا"، قال: "فأمير خراسان؟" قلت: "لا"، قال: "أليس لبعد المسافة وكثرة ما بيننا من قبائل الكفار؟، قلت: "بلى"، قال: "قل له (الترجمان) فوالله إني لمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، ويبيني وبينه البلدان الشاسعة" (ابن فضلان، 1959، ص. 122).

فيخترق المدار السردى "حادثة اختفاء المال" انسجام العالم السابق وتماسكه، ويحرف السرد عن مساره لتتلاحق الأحداث على نحو غير متوقع كالاتي:

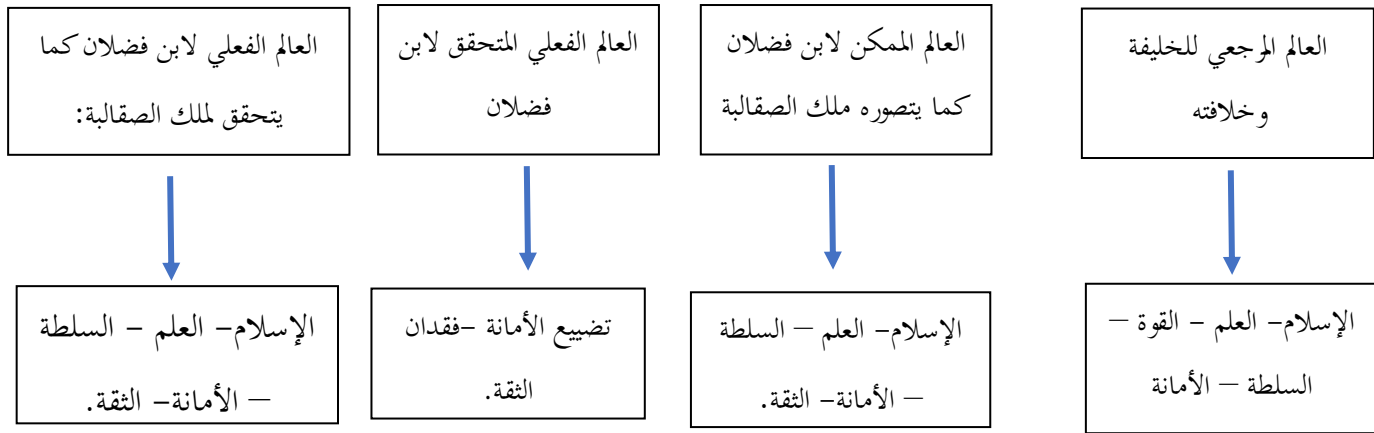
- تأخر أحمد بن فضل الخوارزمي في بغداد خمسة أيام بعد رحيل الوفد والوعد باللاحاق بهم في خراسان.
- الخطة التي عمد إليها الخليفة المقتدر بأمر نصر بن أحمد والي خراسان بتسلّم أرض "أرثخشمين" من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات، وتسليمها إلى أحمد بن موسى الخوارزمي، وابن الفرات كان وزيراً للخليفة المقتدر، وكان خائناً له وسبباً في الفتن والقلاقل في تلك الفترة. وهذه الأرض من أراضيها التي صادرها منه (الطبري، 1967).
- وصول الخبر السابق لابن الفرات الذي رفض أن ينصاع لأمر الخليفة فأعمل الحيلة في أمر أحمد بن موسى إلى أن اعتقله في طريقه إلى مرو (ابن فضلان، 1959). ومن ثم ما نتج عن ذلك من فقدان الأرض التي كان من المقرر أن تكون مصدرًا للمال الموجه لملك الصقالبة ومصدرًا للنفقة على البعثة.

والخصائص الجوهرية لابن فضلان التي تتكفل برسم عالمه الممكن في نظر ملك الصقالبة؛ تسهم في تنمية المدار السياقي قوة الخلافة العباسية، وهي بمثابة خصائص ثابتة لا تتحول، بالرغم من تحول العوالم التي يحل فيها ابن فضلان؛ وذلك لأن العالم المرجعي الذي يصوغ من خلاله ملك الصقالبة تصويره عن ابن فضلان يدور حول عظمة الخلافة العباسية، وكونهم أقرب الناس لنسب الرسول، وعدم تفريطهم في الأمانة، والاعتقاد بأن التبرك بهم وبأي شيء يأتي من

جهتهم يعود عليهم بالخير ويمنع عنهم الشر. وابن فضلان رسول الخليفة، فهو إذن رجل يثق به الخليفة، ومن ثمّ سيكون العالم الممكن عن ابن فضلان مطابقاً للعالم المرجعي السابق.

ولذلك حين يختفي مال الخليفة يرتسم عالم ممكن عن ابن فضلان تخرجه من العالم السابق، فيتوقع القارئ كما يتوقع ابن فضلان نفسه أن الملك سيظن أنه خائن وغير جدير بثقة الخليفة، وبالتالي لا يصلح أن يكون إماماً ومعلماً للمسلمين أمور دينهم، ولن يكون مقبولاً بينهم. لكن كل تلك السمات تتقوض وتبقى السمات الجوهرية لابن فضلان المستمدة من المرجعية الدينية للخلافة العباسية ثابتة لا تتزعزع.

جدول 5: السمات الجوهرية الثابتة المستمدة من المرجعية الدينية للخلافة العباسية في رسالة ابن فضلان



وينقل إلينا ابن فضلان هذا العالم المتصور عنه من جهته بعد سرده لملايسات قراءة كتاب الخليفة عليه، فيرسم لنا تمثله لأول سمة ثابتة، وهي السلطة التي يتمتع بها بفضل العالم المرجعي المؤثث من قبل الملك عن منعة الدولة العباسية وسلطتها، فيشرح كيف أمره بالرد على سلام أمير المؤمنين وكيف يطيعه دون تردد، ويستمر في وصف سلطته على الملك، إذ يقول: "ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس، وهو قائم، ثم أمرته بالجلوس فجلس" (ابن فضلان، 1959، ص. 114، 115-117). فهي سلطة تنبع من احترام هذا المجتمع للخليفة ومبعوثه ابن فضلان.

وفي سياق مختلف يرسم ابن فضلان وجهها من وجوه هذه السلطة تختلف عن النوع السابق، وهي السلطة الدينية، فيشير إلى أنه نهي ملك الصقالبة عن التسمي باسم الملك، وتذرع بحجة أن الخليفة بالرغم من منصبه الأكبر والذي لم يبلغه أحد في حينه لم يتسم بهذا الاسم، وأن عليه أن يتواضع كما تواضع الخليفة من قبله. فيطيعه ملك الصقالبة إلى ما يراه صائباً، ويتسمى باسم الخليفة، بعد أن يتأكد أن الخليفة يسمح بذلك.

وبعد اكتشاف الملك فقدان المال وشرح ابن فضلان له سبب تعذر جمعه، وما كان من حيلة وكيل ابن الفرات النصراني في القبض على أحمد بن موسى، وتأخير وصولها، وخوفهم من ضياع الوقت وقدم الشتاء قبل أن يبلغوا أراضي الترك؛ يقوم بإقصاء كل من كانوا مع ابن فضلان في رحلته، ويوجه خطابه وعتابه له وحده بحجة أنه عربي بينما رفاقه

عجم. فيميزه عن البقية بكون الخليفة قد وثق به هو، فنصَّبه تولي أمر الوفادة. إذ يقول: "فقال للترجمان: "قل له أنا لا أعرف هؤلاء، إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم⁸. ولو علم الأستاذ (الخليفة) -أيده الله- أنهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتى تحفظ علي وتقرأ كتابي، وتسمع جوابي، ولست أطلب غيرك بدرهم" (ابن فضلان، ص. 119، 120). فسمه "الثقة" بقيادته لم تتغير، بل على العكس، فقد خولته لأن يطالبه بالمال فهو أهل لإحضاره، بالرغم من صعوبة تحقيق ذلك. وكان إقصاؤه لرفاق ابن فضلان، وعدم ثقته بهم؛ لأنهم -كما يعتقد- من العجم وبالتالي فلن يهتمهم أن تهتز صورة الخليفة أو تتغير عند ملك الصقالبة كما يهتم لذلك ابن فضلان.

ويسرد ابن فضلان حادثة تدل على ثبات ثقة الملك فيه وفيما يصدر عنه من أوامر فقهية أو أحكام شرعية، فيقول: "وكان مؤذنه يثني الإقامة إذا أذن، فقلت له: "إن مولاك أمير المؤمنين يفرد الإقامة في داره، فقال للمؤذن: "اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه" (ابن فضلان، ص. 120).

وبالرغم من تحطم توقعات الملك عن وفاء الوفد بحادثة فقدانهم المال، واهتزاز ثقته بابن فضلان، وعدم رغبته بقبول أي حكم شرعي يصدر عنه لبرهة من الوقت، حيث يتهمهم صراحة بقوله: "وأنتم تأكلون خبزه (أي الخليفة) وتلبسون ثيابه، وترونه في كل وقت، خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلي، إلى قوم ضعفي، وخنتم المسلمين!، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئي من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه". فبالرغم من هذا الموقف، يتراجع ملك الصقالبة عن تصورات تلك، ويعود إلى بناء العالم السابق عن ابن فضلان، ويثبت هذا العالم حتى نهاية الرسالة، حيث يقول: "فكان بعد هذا القول يؤثري ويقربني، ويباعد أصحابي، ويسميني "أبا بكر الصديق" (ابن فضلان، 1959، ص. 122).

2.4.3. عالم قارئ

1.2.4.3. العالم الممكن لابن فضلان من منظور القارئ

يبدأ القارئ في إسناد الخصائص الجوهرية والضرورية لابن فضلان وفقاً للمدارات السابقة، ووفقاً للصورة التي يستنتجها من العوالم السابقة للشخصيات عن بعضها البعض، ومزوداً بالخلفية الثقافية التي كتب النص وفقاً لها. فمن المدارات النصية ترسم العوالم الواقعية للنص، والتي تتعارض مع تصورات ابن فضلان عن الطبيعة والطقس وعادات الزواج والمأكل والملبس في بلاده. ويتميز بالإخلاص في وصف معالم كل بلاد يمرون بها، وهذا الإخلاص منشؤه طغيان البعد الواقعي على التخيلي في الرحلة. فيصف ساعات النهار الطويلة وحرارة الشمس ويدي الاستغراب الشديد من كل هذه المعالم المناخية والبيئية (ابن فضلان، 1959)، والتي يصحبها اختلاف في طريقة الحياة كالمأكل والملبس، وطريقة بناء البيوت، ووسائل التنقل وسط الثلوج، وفوق الأنهار المجردة من الصقيع (ابن فضلان 1959).

تتأسس خصائص ابن فضلان الجوهرية من خلال تمييزه عن الآخرين. وكما أشرنا سابقاً يفرض المدار السياقي الكبير هيمنته على باقي مدارات النص، ويوجهها في رسم عوالم النص الممكنة. فمن المدار السياقي الكبير (هيمنة الخلافة العباسية) تتحدد أهم سمة من سمات ابن فضلان، وهي الإحساس بالتمايز والاختلاف والتفوق على غيره من الأجناس والشعوب الأخرى. فيرصد القارئ سلسلة من الاختلافات الدينية والعرقية والاجتماعية التي تسهم مجتمعة في بناء عالمه الممكن عن ابن فضلان، وتظهر أهم سمة فيما ينقله ابن فضلان في حديثه السابق عن ملك الصقالبة الذي يخاطبه بقوله معرضاً بأصحابه: "إنما أعرفك أنت، ذلك أن هؤلاء عجم" (ابن فضلان، 1959، ص. 119). فهذا الإحساس بتفوق العرق العربي هو ما يجعله يصف الجرجانية بأنهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً، وأن لغتهم أشبه شيء بصياح الزراير، ونقيق الضفادع (ابن فضلان، 1959)، ويستمر هذا الإحساس بالتمايز العرقي ليس في اللغة فحسب بل في البنية الجسدية، فيقول عن الروس: "فلم أر أتم أبدأً منهم كأهم النخل، شقر حمر" (ابن فضلان، 1959، ص. 149)، كما تصور الاختلافات الدينية ضعف عقول العجم/ غير المسلمين وتفوق العرب/ المسلمين بالاهتداء إلى الله بالعقل والفطرة، حيث يصف أحد رجال الترك الذين التقى بهم في رحلته حين سمعه يقرأ القرآن بضعف القدرة على التفكير في عظمة الله عز وجل وتنزهه عن صفات البشر. فيصفهم بالحميز الضالة في عدم اهتدائهم إلى الله. كما يزدري طريقة معيشتهم في عدم اغتسالهم من الجنابة أو استنجائهم من البول والغائط (ابن فضلان، 1959).

فيبدو ابن فضلان في ذلك كله غاية في الواقعية وحكيماً وعاقلاً، وفوق كل ذلك متميزاً برجاحة عقله وصلابة دينه ومعتقداته. ولكن عندما يصل إلى بلاد البلغار، ينحرف السرد عن مجراه فيتخذ منحى عجائبيّاً كما أشرنا سابقاً، فيخترق المدار السردى العجائبي تماسك نص الرسالة، ويحرفها عن هدفها وغرضها الأساسي، فتظهر بعض السمات المختلفة لابن فضلان والتي تتناقض مع السمات السابقة كتصديقه بما يشاع من خرافات وعجائب في أرض البلغار والروس. كحادثة اقتتال الغمامتين التي يسكنهما مؤمني الجن وكفارهم، وادعائه معاينة الحدث (ابن فضلان، 1959)، أو تصديقه ما رواه عليه تكين من قصة الرجل من يأجوج ومأجوج والذي كما يحدثه الملك بأن "له رأس كأكبر ما يكون من القدور، وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر" (ابن فضلان، 1959، ص. 137)، فترسم صفات جوهرية جديدة متنافية مع الصفات الجوهرية السابقة المثبتة في العوالم السابقة كما في الجدول أدناه:

جدول 6: المدار السردى العجائبي في الرسالة وما أحدثه من صفات جوهرية جديدة تنافت مع الصفات المثبتة في العوالم السابقة

المدار النصي (الوصف الواقعي)	المدار السردى (السرد العجائبي)
عالم ممكن 1	عالم ممكن 2
ابن فضلان: عالم فقيه وحكيم وعاقل	مؤمن بالخرافات والأساطير

ولكن بالعودة إلى العالم المرجعي لابن فضلان بوصفه "مسلمًا"، وهي سمة مخدرة في النص يعود القارئ إلى تفعيلها وتنشيطها بوصفها سمة دالة على خلفية دينية ضرورية لتأويل اعتقادات ابن فضلان، وبناء اتساق النص؛ سنجد أن عالم الجن والمردة ليس عالماً أسطوريًا أو خرافيًا، بل على العكس من ذلك، هو عالم واقعي مواز لعالمنا، وعلى الدرجة نفسها من الواقعية. و"العقيدة التي تعتقدها أي أمة هي التي تحدد شخصيتها وسلوكها" كما تحدد "علاقة الإنسان ببقية المخلوقات... فعالم الجن يشكل أحد روافد العقيدة الإسلامية التي يترتب على إنكار أحد مقوماتها الكفر والعياذ بالله. وقد أخبرنا القرآن الكريم عن عالم الجن في آيات كثيرة قرنت بينه وبين الإنسان في كثير من المواضع" (عبيدات، 1999، ص.هـ، ز). والإطار الذي ورد فيه تصوير ابن فضلان لعالمهم لم يكن خاليًا من روافد تلك العقيدة وترسباتها، فكان اقتتال الغمامتين -وهو اقتتال بين مشركي الجن ومؤمنهم- يدور في هذا الفلك الديني ولا يخرج عنه. وهم في هذا الإطار الديني "نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم قدرة على التشكل، يأكلون ويشربون ويتناكحون، ولهم ذرية، محاسبون على أعمالهم في الآخرة" (عبيدات، 1999، ص. 8، 9). قال ابن تيمية (ت. 728هـ، ط. 1987): "والجن يتصورون في صور الإنس والبهائم، فيتصورون في صور الحيات والعقارب وغيرها (...). وفي صور بني آدم" (ص. 32).

كما ورد حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يتطابق فيه وصف ابن فضلان لحرب الجن الذين تقاتلوا في السماء وكأنهم غمامتين مع وصف ابن مسعود لهم بقطع السحاب وما صدر عنهم من ضوضاء، في الحديث الذي يصف فيه لقاء الرسول لهم، فيقول: "فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرها، وسمعت لغطًا وغمغمًا... ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب" (البيهقي، ت. 458هـ، ط. 1969، 15/2).

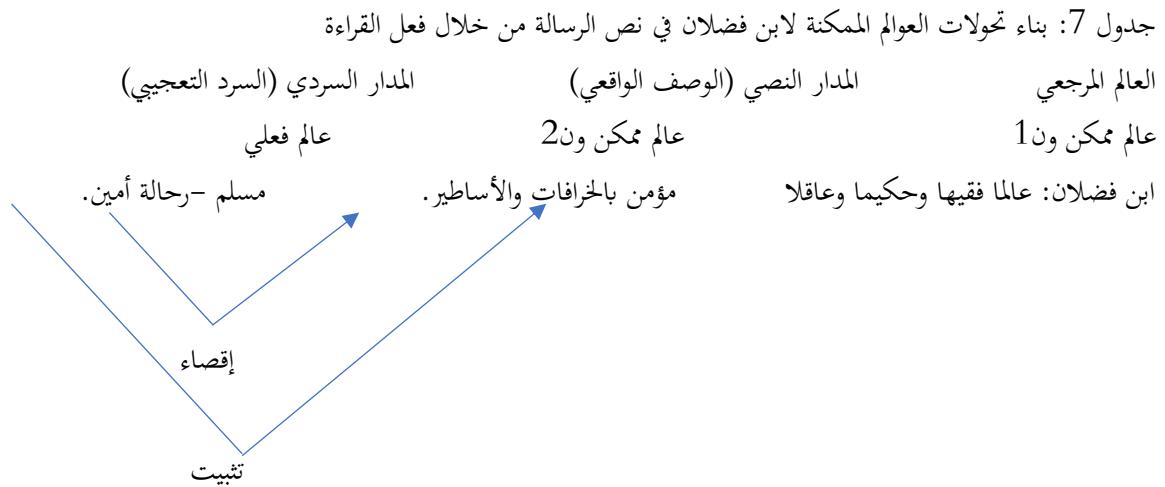
يقوم هذا العالم المرجعي إذن بإخراج سرد ابن فضلان لهذه الحادثة من السرد العجائبي إلى الواقعي، وإعادته لمجرى الأحداث الطبيعي في النص. فبناء على قارئ نموذجي⁹ متوافق مع اللغة التي كتب بها النص سيبدو هذا العالم منسجمًا مع ما قبله وما بعده، وستبدو سمة ابن فضلان السابقة في كونه عالمًا فقيهاً وعاقلاً وحكيماً ثابتة لا تتحول بتحول هذه العوالم.

وينطبق هذا على عالم يأجوج ومأجوج الذي يبدو أيضًا عالمًا واقعيًا وموازياً لعالمنا الواقعي. والأدلة على وجوده من القرآن والسنة متواترة. كما أن ابن فضلان لم ينقل لنا ما يعتقدونه، بل نقل لنا ما كان يسرد له حول رجل منهم. وهذا ما يعيد إليه السمة الجوهرية السابقة في كونه رحالة، ومن أهم سمات الرحالة أن يكون ناقلًا أمينًا لكل ما يشاهد ويسمع في رحلته. وهو لم يخبرنا أنه وقع على هذا الحدث وشاهده ولكنه سمع ما يقال عنه¹⁰، وبهذا تقوم أهم سمتين لابن فضلان مستمدة من العالم المرجعي للنص وللقارئ، وهي (إسلامه، وتصديقه لكل ما جاء في القرآن والسنة، وأمانته

في نقل كل ما يسمع في رحلته) في نقض السمة التي تولدت عن المدار السردي العجائبي وإقصائها، وإعادة تثبيت السمات المتولدة عن المدار النصي الواقعي.

كما تحضر بعض العادات الغريبة للروس لتكثيف مدار السرد العجائبي، فتحضر شخصية ملك الموت، وهي عجوز وكاهنة ضخمة ومكفهرة، ويتحدد دورها في إحراق الجوّاري ودفنهن مع أسيادهن. فيقول واصفاً طقوس الروسية في دفن الأموات: "ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا. وهي وليت خياطته وإصلاحه، وهي تقتل الجوّاري" (ابن فضلان، ص. 158، 161)، وتقف مسرودات ابن فضلان العجائبية عند حدود طقوس الشعوب المختلفة واعتقاداتهم، ولا تتجاوز العجائبية إلى سرد الخرافات والأساطير حول المخلوقات الخارقة للطبيعة كما في رواية أكلة الموتى.

ويمكن بناء تحولات العوالم الممكنة لابن فضلان في نص الرسالة كما تتجلى من خلال فعل القراءة كالاتي:



4. مدارات رواية أكلة الموتى وعوالمها الممكنة

1.4. مدارات رواية أكلة الموتى

من العالم الممكن ون 2 السابق لابن فضلان، وخاصة حادثة ملك الموت، تنشأ رواية أكلة الموتى. وتبدأ في سرد البطولات والأساطير عن شعوب الشمال من الإسكندنافيين. فمن الروس وعاداتهم الغريبة في إحراق الجوّاري مع مولاها يبدأ تكثيف السرد الخرافي في أكلة الموتى، فيتكئ على هذه القصة والعجوز ملك الموت (كرايتون، 1976/1999)، ثم ينتقل إلى نسج الخرافات حول شعب الويندول الذي لا يظهر إلا مع الضباب لتكثيف الرعب والخيال، والتي تختلط خصائصه البشرية بالذئاب. فهو عالم متخيل أسطوري لا صلة له بأي خلفية مرجعية تاريخية أو دينية واقعية. ويظهر ابن

فضلان بمظهر الخائف والمصدق لكل هذ الخرافات والأساطير والذي عاين بنفسه وعاش كل تلك الأحداث الخارقة للطبيعة.

ويحتفظ كاتب الرواية بالمدارات النصية نفسها التي اهتمت بها الرسالة، كوصف عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها أو وصف الممالك التي يمرون بها وغيرها من المدارات النصية السابقة في الرسالة، ومع ذلك نجد أن الرواية تطفح بعوالم أسطورية خارقة للعادة على عكس الرسالة. والسبب في بناء هذه العوالم المتخيلة الأسطورية هو أن المدار السردى الغالب على رواية أكلة الموتى هو مدار العجائبي، وهو يتجلى بدءاً من العنوان "أكلة الموتى"، وهو ناتج عن المدار السياقي الأكبر للرواية، فالعالم الممكن الجديد الذي يشرع في بنائه السارد حول ابن فضلان هو نتاج لهذين المدارين معاً، كما سنرى.

وعلى عكس المدار السياقي الذي دفع كاتب رسالة ابن فضلان أن يكتب رسالته نجد أن المدار السياقي في رواية أكلة الموتى ناشئاً عن نظرة دونية للعرب وللإسلام، تصور مدى عجزهم عن السيطرة وفقدانهم للسلطة التي كانوا يتمتعون بها في نص الرسالة، ومنحها لقبائل شمال اسكندنافيا المحاربين/ (الفايكنج). ففي الرسالة الأصلية يتبنى ابن فضلان المهمة بنفسه وبكل طوعية دون أي إكراه أو قسر من أحد (مهيوبي، 2022)، بينما نجده في رواية أكلة الموتى مجبراً على الرحيل، ومبدئياً استياءه الشديد من تكليفه بمهمة رحلة لم يختارها إلى اسكندنافيا، وضعفه وعدم قدرته على إنجاز مهمته الأساسية وهي الرحلة إلى بلاد الصقالبة وتسليم ملك الصقالبة رسالة الخليفة (كرايتون، 1976/1999).

ويرسم مؤلف أكلة الموتى كرايتون هذا الضعف الذي ينتاب ابن فضلان من جهتين؛ من جهة قلة علمه وإدراكه بمسارات الرحلة، وجغرافيتها، ومن جهة فقدانه السلطة والسيطرة على مجرى الحكى. فيصف أولاً جهله بمسار الرحلة فيقول على لسان ابن فضلان نفسه بوصفه السارد: "سألت هرغر عن هذا المكان فقال لي: "هذه هي مدينة البلغار في مملكة الصقالبة، وذلك هو قصر يلطور ملك الصقالبة. أجبت: هذا هو الملك ذاته الذي أرسلت إليه لأقابلة كممثل لخلفتي". فهو يجهل حتى أنه وصل لغرضه من الرحلة فضلاً عن تحكمه بها؛ فيصور عجزه الشديد عن القدرة على الانعطاف بالرحلة، وإقناع الشماليين ليسمحوا له بالتوقف لإنجاز مهمته الأساسية وإكمال رحلته معهم، فهو بالرغم من وصوله إلى غرضه يفقده بكل حسرة. "وبكثير من التوسلات طلبت أن أنزل إلى الشاطئ لأقوم بالمهمة التي كلفني بها خلفتي، كما طلبت ذلك أيضاً بكثير من مظاهر الغضب حتى درجة الوقاحة. لكن رجال الشمال لم يعيرونني أي انتباه". ثم يستمر في تصوير المشهد ويجسد حالة ضعف ابن فضلان وتجريده من أي حول أو قوة: "وهكذا أبحرت سفينة الشماليين بجانب مدينة البلغار وقرية من الشاطئ إلى حد كنت أسمع فيه صياح التجار وثغاء الغنم. ومع ذلك كنت بلا حول ولا قوة سوى مشاهدة ذلك المنظر بعيني" (كرايتون، 1976/1999، ص. 44).

ولا يكتفي كرايتون بسلب الخلافة العباسية من سلطتها السياسية ومنحها لمقاتلي الشمال، بل يمتد هذا السلب إلى المستوى الديني أيضاً، وذلك في تجريده ابن فضلان الفقيه الداعية من تقواه، "بأن جعله تارة يتغنى بالقرآن في مكان غاص بالسكاري حتى فقدان الوعي"، مع مترجمه الذي "نفض بترجمة الآيات إلى الروسية وقد كان يترنح سكرانا"، وتارة في ممارسته الرذيلة مع نساء لا يحلّين له، وتبريره ذلك الفعل بمسايرته لاعتقاد الأكرية ممن يحيطون به، أو في شربه للخمر، وشكره لله على شرها باعتبارها غير محرمة ولا مكروهة (إبراهيم، 2010).

وتتفرع في الرواية مدارات سردية تنهض على تعزيز هذا المدار السياقي، فتننتج حكايات فرعية عن الحكاية الأصلية يسند الكاتب من خلالها خصائص جوهرية جديدة تتناقض مع خصائصه السابقة في متن الرسالة. فإذا كان كرايتون يثبت الحكاية الأصلية في إرسال الخليفة المقتدر لابن فضلان إجابة لملك الصقالبة في طلبه، إلا أنه يقحم فيها بعض الأفراد الجدد كالتاجر وزوجته التي يقع ابن فضلان في فتنتها فيتخلى عن شرفه وعفته لأجلها، فيشتكي التاجر للخليفة الذي يكلفه بالمهمة عقاباً له ونفيًا (كرايتون، 1976/1999). وبهذا تتشكل خصائص جديدة منافية لما عرفناه عن ابن فضلان من نزاهة وشرف وأخلاق.

تقوم إذن الأغراض التأليفية لنص رواية أكلة الموتى بتشكيل مدارات الرواية السياقية لتتمحور حول الحديث عن ضعف العرب في القتال والدين والسلطة، واهتزاز قيمهم وأخلاقياتهم في مقابل تفوق حضارة قبائل الفايكنج الشماليين، وقوة معتقداتهم، وما يتمتعون به من سلطة وهيمنة على بقية الشعوب. وهو ما قاد الكاتب إلى تشكيل عالم ممكن جديد يكون فيه ابن فضلان فرداً جديداً وسط أفراد من عالم مختلف يتعلم منهم لغتهم اللاتينية ويشاركهم معتقداتهم ويصدق كل خرافاتهم ويؤمن بها، "لتبدأ الذات الإسلامية برحلة استلاب جردت فيها من مرتكزات هويتها، وقابلة لإعادة التشكيل والتحول إلى ذات شمالية ينتصر فيها للحضارة الفايكنجية الوثنية على الحضارة العربية الإسلامية" (قداح، 2014، ص 81).

بالإضافة إلى التعارضات الأيديولوجية الكبرى الناتجة عن المدارات السياقية المتناقضة لكل من الرسالة والرواية نجد أن المدارات السردية تتناقض هي أيضاً؛ فبناء على هذه الأطروحة الفكرية/ الأغراض التأليفية لكرايتون المشكلة لمدار الرواية السياقي؛ تتشكل مدارات الرواية السردية لتنتج عالماً خارقاً لأبطال الفايكنج يختلف عن مدار السرد الواقعي الذي سبق أن شاهدناه في نص الرسالة الأصلي والذي يتقلص فيه البعد العجائبي. فنجد أن مدار السرد الغالب في رواية أكلة الموتى على النقيض من نص الرسالة هو المدار العجائبي، والخرافي، والبطولي، وليس الواقعي. وإذا كان السرد في الرواية يدور حول إبراز العنصر الخرافي وعرض البطولات الحربية؛ سيتعارض دور ابن فضلان كشيخ وعالم مسلم وفقه مع الدور الجديد الذي أسنده له كرايتون. وستتحول السلطة والدين إلى مدارات فرعية وصغرى عكس البنية التي سارت عليها

رسالة ابن فضلان. وبناء عليه تتغير البرامج السردية وتُبنى عوالم ممكنة مختلفة تتحدد وفقاً لها الخصائص الضرورية والجوهرية المسؤولة عن رسم هوية ابن فضلان الجديدة.

2.4. العالم المرجعي لرواية أكلة الموتى

يعد نص الرسالة عالماً مرجعياً يستند إليه كاتب رواية أكلة الموتى، لكنه ينتقي منه ما يوافق مدارات الرواية السياقية، ويوسع مداراتها السردية. وقد جاءت خاصية الحمافة التي أسندتها إحدى الشخصيات الأعجمية في نص الرسالة إلى العرب، خاصية عرضية وهامشية جداً بالنسبة لمدار نص الرسالة السياقي (إثبات تفوق الحضارة العربية العباسية) بل متناقضة معه، وذلك في تعليق أحد الروسيين على دفن الموتى عند العرب والمسلمين: "أنتم معشر العرب حمقى" (ابن فضلان، ص. 164)، كما لم تؤثر على سمات ابن فضلان الجوهرية الثابتة في رجحان عقله واعتزازه بنفسه، نجد أن كرايتون ينتقي هذه السمة لتصبح في روايته سمة جوهرية للعرب ولابن فضلان الذي يمثلهم من وجهة نظره لتغذية مدار روايته السياقي، فيكررها كثيراً فيقول: "أنتم العرب أغبياء أكثر مما يتصور". ويقول: "لا أريد أن أسمع أسئلة من أحق" أي من عربي، وغيرها من نصوص صريحة في السخرية القوية من العرب" (ابن فضلان، 2003، ص. 25).

كما يبنى العالم المرجعي للرواية أيضاً وفقاً للمدارات السياقية الغالبة، فإذا كانت هذه المدارات كلها تدور حول تخلف العرب وضعفهم في القتال في مقابل شجاعة قبائل دول شمال إسكندنافيا (الفايكنج) وإثبات تفرد حضارتهم، فإن العالم المرجعي سيستند إلى المسرودات التاريخية حول شعب الفايكنج وقوتهم وعاداتهم. ومن ذلك تقديس شعوب الشمال الوثنيين للرقم ثلاثة عشر في الرواية التي استقاها كرايتون من قصة "العشاء الأخير" وهي من مروياتهم الأسطورية، وتروي هذه القصة ما حدث لآلهة النوردين الإثني عشر عندما تسلل إله الشر والأذى إلى مآدبتهم، ليصبح العضو الثالث عشر، ثم بالخديعة والمكر تسبب في قتل أحد آلهتهم، وما نتج عن ذلك من تشاؤمهم من هذا الرقم (المرهج، 2021). أما قصة شعب الويندول أو وحوش الضباب واستدعاء ملك الشمال بيولف لتخليصهم منها وتمكنه من قتل التنين في طريقه (المرهج، 2021)، وقتل أم الويندول، ثم موته بعد ذلك، والتي شكلت البنية الأساسية لرواية كرايتون؛ هي في الأصل ملحمة شعرية إنجليزية قديمة تعود إلى حدود عام 975م، أو 1025م. شاعرها مجهول الهوية، وتدور أحداثها في إحدى المدن الإسكندنافية (المرهج، 2021).

كما تعتمد رواية كرايتون على ما قرأه حول ثقافة الفايكنج ومعتقداتهم الدينية الوثنية ووحشيتهم في القتال التي تميزوا بها. فهم كما يصفهم: "يعتبرون كل واحد منهم مساوياً لثلاثة أو أربعة مقاتلين دفعة واحدة" (كرايتون، 1999/1976، ص. 112). و"الفايكنج في حقيقتهم التاريخية هم تلك الشعوب التي جاءت من إسكندنافيا ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر، وتتألف من ثلاث بلدان (الدنمارك والنرويج والسويد) ... ولطالما كانوا سيئي السمعة حيث شُبهت وحشيتهم غير المبررة بوحشية الغزاة والقراصنة في العصور الوسطى، ولم يكن هناك تفسير لطبيعتهم هذه فقد قاموا

بغازاتٍ مخيفةٍ لفتراتٍ طويلةٍ من الزمن، ... مؤسسين بذلك مملكة كيفان روس على نهر فولجا". وقد سيطروا على شمال أوروبا وأجزاء من الأمريكيتين، وكانت أكثر غاراتهم في الضباب. ومن هذه الحقيقة التاريخية استمد كرايتون أسطوره حول وحوش الضباب، ومن نهر الفولجا تبدأ قصة ابن فضلان المتخيلة معهم.

وبالإضافة إلى وصفهم بالوثنيين والبرابرة والمتوحشين وهي أوصاف مطابقة لما عرف عنهم في التاريخ، يشير كرايتون إلى الأسباب الكامنة وراء قوتهم؛ السبب الأول: رغبتهم في إحلال السلام (كرايتون، 1976/1999)، وهي صفة متناقضة مع ما عرف عنهم في التاريخ من وحشية. والسبب الثاني فكرتهم عن السماء والجنة، ففي "هذه الجنة، والتي هي بالنسبة إليهم قاعة كبيرة، يتقاتل فيها المحاربون من الفجر حتى الغسق. وأولئك الذين يموتون يعودون فيحيون ليشاركوا جميعاً في وليمة كبرى في المساء فيها ما لا ينتهي من الطعام والشراب". وهي مطابقة لمعتقداتهم في الحقيقة حول إلههم أودن وجنته التي وعدوا للمحاربين. ويعلق كرايتون نفسه في الهامش على ما أورده في المتن، فيقول: "تشير بعض المراجع اللاهوتية إلى أن الإسكندنافيين لم يكونوا مبدعي هذه الفكرة، ولكن هذه الفكرة هي مفهوم كنتي أو سلتي، ومهما كانت الحقيقة فمن المعقول والمنطقي جداً أن يكون رفاق ابن فضلان قد تبناوا هذا المفهوم لأن الإسكندنافيين كانوا على صلة بالكنتيين لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاماً". (كرايتون، 1976/1999، ص. 112). فيستعين بهذه المراجع التاريخية وما تشتمل عليه من حقائق تاريخية ليبني أبطال عالم روايته المتخيل. فتتضاءل قوة العباسيين وسيطرتهم على الشعوب الأخرى أمام قوة الإسكندنافيين وسيطرتهم.

3.4 العوالم الممكنة في رواية أكلة الموتى

يبني العالم الممكن الجديد لابن فضلان في الرواية وفقاً للعلاقات الضرورية والخصائص الجوهرية التي يسند لها المؤلف. وتتحدد الخصائص الضرورية وفقاً لعلاقة الفرد ببقية أفراد الحكاية والتي تتحدد تبعاً لها البرامج السردية كما أشرنا سابقاً، بينما تتحدد الخصائص الجوهرية وفقاً للمدارات المهيمنة على السرد.

يتحدد البرنامج السرد في نص الرسالة إذن وفقاً لعلاقة ابن فضلان بالخليفة العباسي وملك الصقالبة، فابن فضلان في علاقته بالخليفة العباسي (المرسل 2)، وفي علاقته بأملش بن يلطوار (المرسل 1)؛ يمثل المبعوث والمسؤول عن الوفد. أما عن علاقة بقية الأفراد به فتتمثل في جانبين؛ معاونين له: عبد الله بن باشتو الخزري مبعوث ملك الصقالبة، والوفد الذي أرسله الخليفة ليعين ابن فضلان في رحلته، وهم: سوسن الروسي وهو من بلاد الروس، أما الثاني بارس الصقلي، أما الثالث فهو تكين التركي. وكل واحد منهم يعمل كترجمان ملم بلغة أهل البلاد التي يسمرون بها، أو دليل جغرافي (مهيوبي، 2022)، ومعارضين، وهم: وكيل ابن الفرات الذي كان عائداً دون حصولهم على المال، وأترك بن القطغان وقواده وأهمهم طرخان الأعمى والأعرج والأشل الذي اقترح ألا يتركهم ويشق كل واحد منهم إلى نصفين، لاعتقاده أنهم

جاؤوا ليستجيشوا بجيش ملك الخرز ضدهم، والباشغارد الذين خاف ابن فضلان أن يهاجموهم في الماء -فوضع طليعة في مقدمة السفن معهم سلاح حمايتهم منهم (ابن فضلان، 1959).

وهذه العلاقة بين ابن فضلان والمرسل في نص الرسالة لا تختفي في نص الرواية لكنها فقط تتراجع لتعمل في الخلفية بوصفها محدداً لا غنى عنه في التعريف بابن فضلان. فالسبب في عدم تحلي كرايتون عنها إذن هو أنها ضرورية في تمييز ابن فضلان في كل العوالم الممكنة. فهو في رواية أكلة الموتى مازال مبعوث الخليفة، وما زال الرحالة الراغب في إيصال رسالة الخليفة وإجابة طلب ملك الصقالبة، ومازال صديقاً لمعاونه (تكين وسوسن وغيرهم). فيحتفظ كرايتون بهذا البرنامج السردى الأساسى، والعلاقات الضرورية بين أفرادها، لئلا يفقد ابن فضلان هويته الأساسية في العالم المتخيل الأسطوري الجديد، ويظل القارئ دائماً مشدوداً إلى النص الأصلي بوصفه الخلفية المرجعية الأساسية لفهم نص الرواية المضاف. ولهذا سنجد أن عالم ابن فضلان الجديد في الرواية الإنجليزية مازال قابلاً لبلوغ العالم الأول في الرسالة وقادراً على الالتحاق به، وإن كان ابن فضلان يبدو على النقيض مما كان عليه هناك، حيث يجبر على ترك أصدقائه، وترك رسالته ومهمته الأساسية لحمل رسالة أخرى ومهمة أخرى لا تخصه في شيء، وبالتالي الدخول في برامج سردية مختلفة، وإسناد خصائص جوهرية جديدة تتناقض مع الخصائص الجوهرية السابقة له في نص الرسالة.

فإذا كانت العلاقات الضرورية المكونة للحدود الأساسية لهوية ابن فضلان لم تتغير (رحالة - مبعوث الخليفة - مرسل للملك الصقالبة - فقيهاً ومعلماً لهم)، سنجد في المقابل أن أكثر الخصائص الجوهرية قد تغيرت تماماً، مما جعل جزءاً كبيراً من هوية ابن فضلان في النص التكميلي محل جدل وخلاف بين الباحثين. فبسبب تغير المدار السياقي في رواية أكلة الموتى، ومن ثم المدار السردى، والبرامج السردية المصاحبة له، يجد ابن فضلان نفسه وسط عالم جديد من أفراد جدد وبسمات جوهرية جديدة.

ينطلق البرنامج السردى في نص الرسالة كما هو شأن أي برنامج سردي آخر من التحريك أو الإيعاز والمعرفة والقدرة والإنجاز. يتولد التحريك والإيعاز نتيجة وجود ابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخرز (ابن فضلان، 1959)، ورغبة الأخير أن يتحرر من أعدائه بتمكين قوته السياسية والدينية والتي يستمدّها من قوة الخليفة العباسي ومكانته الدينية. وتتحقق الكفاءة والمعرفة في امتلاك ابن فضلان لمقومات الداعية المسلم والكفاء لإنجاز المهمة الموكلة بها على خير وجه، والحصول على مترجمين لكافة لغات البلاد الأعجمية التي سيمرون بها. كما تتحقق القدرة في وجود معاونين له سواء أكانوا مترجمين كما قلنا أو مدلين للطريق يلتقيهم أثناء رحلته ينصحونه بطرق الركوب الصحيحة، والوقاية من الشتاء. وفي وجود المعارضين كذلك الذين ينجحون في إعاقة ابن فضلان عن إتمام جزء من مهمته بقطع الطريق للوصول إلى المال المقدر لبناء السور والمسجد. ويتحقق الإنجاز في بدء ابن فضلان بتنفيذ الغرض من الرحلة والاتصال بموضوعه الأساس من تعليم أبناء مملكة الصقالبة أمور دينهم¹¹.

وينتهي هذا البرنامج السردى عند وصول ابن فضلان إلى ملك الصقالبة والاتصال بموضوعه، لكن كرايتون يرجئ هذا الاتصال بإقحام نص روايته في النص الأصلي قبل وصول ابن فضلان لملك الصقالبة، ويقيه منفصلاً عن موضوعه الأساسي، ويخلق له موضوعاً جديداً وبرنامجاً سردياً مختلفاً دون المساس بالبرنامج السردى الأساسي للرسالة أو تحريفه. فتبدأ رواية أكلة الموتى بالرحلة إلى اسكندنافيا، وتمثل النص الكامل المضاف على رسالة ابن فضلان الأصلية.

ويسير كرايتون في الوضع التمهيدى لبرنامج روايته السردى (الملحق) وفقاً للوضع التمهيدى للبرنامج السردى الأساسي لنص الرسالة. فكما شاهدنا سابقاً كيف كان المحرك الأول للرحلة هو رسالة من ملك الصقالبة يستنجد فيها بالخليفة العباسى ضد أعدائه من الخزر؛ نجد أن برنامج الرواية السردى يبدأ هو أيضاً بالوضع التمهيدى للأحداث، ويتحدد فيه المحفز الأساسي لتحريك الفاعلين وتحديد موضوعاتهم؛ فيبدأ من رسالة موجهة من "وولف غار" ابن "روث غار" أحد ملوك الشمال العظام، إلى "بيولف" زعيم مملكة اسكندنافيا المنتظر، يخبره فيها بوقوع أمر جلل يستدعى قدمه معه وتقديم المساعدة لإنقاذ مملكته من الزوال ويطلب عدداً من المحاربين (كرايتون، 1976/1999).

وإذا كان التركيز في الرسالة على طلب أملش بن يلطور المال للتحصن من الأعداء وفقه لتعلم أمور الدين؛ فإن التركيز في الرواية سيكون على طلب روث غار عدداً من المحاربين. فينعطف السرد في رواية أكلة الموتى ليبدأ ابن فضلان بمهمة جديدة ومختلفة، فلم يعد أحد يعبأ إن كان مبعوث الخليفة أو لا، كما لم تعد مهمته الأساسية إرسال رسالة الخليفة. بل ولد عالم جديد حيث ابن فضلان أصبح ينظر إليه على أنه مبعوث الآلهة وفقاً لمعتقدات أهل الشمال، والشخص المكلف بإنجاز المهمة وإنفاذها بالالتحاق بالمحاربين وتحقيق الرمزىة الدينية في المحارب صاحب الرقم ثلاثة عشر المقدس في الطقوس الوثنية لشعب الفايكنج. فهذا الانعطاف في المدار السردى للرواية ينتج عنه برنامج سردى يختلف اختلافاً جذرياً عن البرنامج السردى الأساسي للرسالة، كما تختلف معه الخصائص الجوهرية لابن فضلان؛ فينبى له الكاتب عالماً ممكنًا جديداً غير مقبول عند القارئ العربى المسلم الغيور على دينه ومعتقداته كما سنرى. فالسبب إذن في خلق عالم جديد مناقض للعالم السابق لابن فضلان هو تغير الخصائص الجوهرية المسندة له في عالم الرواية الجديد، من خلال تصعيد المدار السردى الخرافى/البطولى على الواقعى، والذي يتناقض مع مدارات الرسالة السياقية السابقة.

فإذا كانت شخصية ملك الموت في نص الرسالة عجوز وكاهنة، يتلخص دورها في إحراق الزوجات مع أسيادهن الميتين ودفنهن والغناء والشرب لهن (ابن فضلان، 1959)، وليس لها أي دور سوى تمثيل حكاية فرعية تغذى مدار العجائبية الفرعى عن مدار السرد الواقعى الأكبر؛ فإنها في نص الرواية تشكل دوراً أساسياً ضمن المدار السردى العجائبي الأكبر؛ يتمثل في امتلاك المعرفة التي تمكن المحاربين من إنجاز مهمتهم؛ إذ يستدعيها بيولف بوصفها المرأة الحكيمة التي تستمد الحكمة والمعرفة من الآلهة لتقرر عدد المحاربين المطلوب للانتصار في الحرب، فتتوصل بالاستعانة ببعض الطقوس والتعاويد الوثنية إلى أن العدد لا بد أن يكون ثلاثة عشر، على أن يكون المحارب الثالث عشر رجلاً من غير الشماليين،

فيقع الاختيار على ابن فضلان (كرايتون، 1976/1999)، ويبدأ ابن فضلان بالاتصال بموضوعه الجديد الذي يجهل كل شيء عنه وهو مواجهة وحوش الويندل غير البشريين والذين لا يأتون إلا مع الضباب، فافداً لأي معرفة أو خبرة قتالية أو قوة بدنية تؤهله لإنجاز مهمة ليست له في الأساس.

ويتراجع ابن فضلان من كونه البطل الأساسي إلى شخصية هامشية يقتصر دورها على سرد الأحداث، التي لم تعد تدور حوله بوصفه بطلاً فردياً بل حول الآخر بوصفه بطلاً جماعياً مكوناً من بيولف وجماعته من المحاربين الشجعان. فيقتصر دور ابن فضلان على سرد بطولاتهم الحربية بدءاً من اللقاء بين بيولف والملك ولتبرغ روث غار وشعبه الذي تضرر من الويندل، ثم المواجهات بين المحاربين وشعب الويندل، واللقاء بين بيولف والقرم والأخذ بنصائحه بوصفه مساعداً، وخططهم الحربية كالذهاب إلى كهف أم الويندل، والقضاء على أمهم، وخوض المعركة الأخيرة. وينتهي البرنامج السردى للرواية بإنجاز ابن فضلان لمهمة الشماليين والاتصال بموضوعهم، وهو (تحقيق نبوءة الكاهنة) ملكة الموت في القضاء على الويندل بالعدد المكون من المحاربين الثلاثة عشر، بينما يبقى منفصلاً عن موضوعه الأساس (إيصال رسالة الخليفة).

هكذا يتراجع العالم الممكن ون1 الذي كان مهيمناً في نص الرسالة ليفسح المجال للعالم الممكن ون2 الذي سبق أن شاهدناه لا يحتل إلا جزءاً صغيراً من نص الرسالة يعمل فيها العالم الواقعي لابن فضلان متمثلاً في مرجعيته التاريخية الدينية على إقصائه وتمكين ون1؛ نجده الآن في الرواية متراجعاً للخلف ليسيطر ون2 خالقاً عالماً جديداً لابن فضلان غير معهود ولا مسبوق من العجائب والأساطير والبطولات الحربية.

وفي تحول المدار السردى لنص الرسالة الأصلي من السرد الواقعي للمشاهدات والأحداث إلى السرد العجائبي والبطولات في نص الرواية الجديد؛ نجد أن التركيز لم يعد على السمات الجوهرية السابقة المعروفة لابن فضلان، وهي سمة العلم والفقه ورجاح العقل والاعتزاز بالثقافة العربية والدين الإسلامي وحاضرة الخلافة العباسية. أصبح السرد يدور حول المحاربين وبطولاتهم وأساطيرهم، وعاداتهم في معاقرة الخمر وممارسة الرذيلة، وحول شعب الويندل العجيب والخارق للطبيعة. وبهذا يتحول التركيز على السمات السابقة إلى سمات تتوافق مع هذا المدار السردى، ليتخلى ابن فضلان عن الحديث حول ثقافته ودينه وحضارته بصفتهما الأفضل بين الثقافات -والتي لم يعد لها مكان في أكلة الموتى- إلى الحديث عن ثقافة وحضارة أفضل وهي ثقافة المحاربين أبطال الشمال الأشداء. ويتحول هو إلى شخصية مختلفة تماماً، فتغدو سمات مثل، قابلية أو عدم قابلية تصديق أي خرافة، الخوف والجبن أو الشجاعة، القوة البدنية وتحمل صعوبات الرحلة أو الضعف، القدرة على الحرب والمواجهة أو الخنوع؛ سمات حاضرة بقوة في هذا المدار السردى الجديد. كذلك فإن هذا المدار السردى الذي يتحدث عن ثقافة محاربي الشمال في الحرب يستدعي الحديث حول طقوسهم قبل الحرب وبعدها من معاقرة للخمر وممارسة للرذيلة، مما يمنح ابن فضلان سمات جوهرية متوافقة تماماً مع هذا المدار الجديد ومتناقضة

مع مدارات الرسالة الأصلي، فيتحول إلى رجل جبان مسكون بالرعب من شعب الويندل، ساذج ومصدق لكل خرافة، متقلداً بثقافة أهل الشمال من الوثنيين ومتشبهاً بالمحاربين، عاجزاً ومتعثراً في بلوغ عالمهم المثالي وتنقصه القوة البدنية ليكون واحداً منهم (كرايتون، 1976/1999). وهي سمات تتوافق أيضاً مع المدار السياقي الأكبر للرواية الذي تملّيه أغراض أيديولوجية كامنة، تتعارض مع أغراض التأليف في نص الرسالة.

ويمكن رسم تحولات المدارات في كل من نص الرسالة ونص الرواية كما يأتي:

جدول 8: التحولات المدارية في كل من نص الرسالة ونص الرواية

الرسالة	الرواية
المدار السياقي ضعف الممالك الأخرى (تفوق الخلافة العباسية وسيطرتهم على باقي الأمم)	المدار السياقي ضعف الممالك الأخرى (تفوق مملكة شمال اسكندنافيا وسيطرتهم على باقي الأمم)
المدارات النصية وصف الرحلة	المدارات النصية وصف الرحلة
المدارات السردية السرد الواقعي يتغلب على العجائبي	المدارات السردية السرد العجائبي يتغلب على الواقعي
العالم المرجعي ابن فضلان رحالة (واقعي) عصر الدولة العباسية في زمن المقتدر	العالم المرجعي ابن فضلان رحالة (مصدق بالخرافات) عصر محاربي دول شمال اسكندنافيا

ويمكن تتبع تحولات العوالم الممكنة (العلاقات الضرورية والخصائص الجوهرية لابن فضلان في كل من نص الرسالة والرواية كما يلي:

جدول 9: تحولات العوالم الممكنة من خلال العلاقات الضرورية لابن فضلان في كل من نص الرسالة والرواية

العلاقات الضرورية	العالم الممكن لابن فضلان في نص الرسالة	العالم الممكن لابن فضلان في نص الرواية
ابن فضلان البطل ع الخليفة (مرسل من)	+	+
ابن فضلان البطل ع ملك الصقالبة (مرسل إلى)	+	+
ابن فضلان ع الترجمان	+	+
ابن فضلان ع تكين - بارس - سوسن - عبد الله الخزري (دليل + ترجمة)	+	+
ابن فضلان ع ملكة الموت (إحراق الجوّاري - لاسلطة)	+	-
ابن فضلان ع ملكة الموت (عرافة - سلطنة)	=	+
بيولف + أصدقاؤه (البطل) ع راغنار (مرسل)	-	+
بيولف + أصدقاؤه (البطل) ع (مرسل إلى)	-	+
ابن فضلان ع بيولف (مساعد - أداة سحرية)	-	+
ابن فضلان ع المحاربين (مساعد - أداة سحرية)	-	+
ابن فضلان + بيولف + أصدقاؤه ع الويندول (معيق)	-	+

بهذا تعد العلاقات الضرورية الأربعة الأولى ثابتة في كل العوالم الممكنة، فتحافظ على ثبات هويته الأساسية كرحالة لم يفقد موضوعه الأساس، مما يحافظ أيضا على تماسك السرد، ولكن العلاقات الثلاثة الأخيرة فائضة على نص الرسالة الأصلي مما يجعل العالم الممكن لابن فضلان في الرواية أغنى وأميز من حيث الخصائص والعلاقات الضرورية مع غيره من أفراد الحكاية، ولكنه فرد جديد وفائض على نص الرسالة الأساسي من حيث الخصائص الجوهرية التي تتناقض مع خصائصه الجوهرية السابقة كما في الجدول الآتي:

جدول 10: العلاقات الفائضة في رواية أكلة الموتى عن نص الرسالة الأصلي لابن فضلان

الخصائص الجوهرية لابن فضلان	العالم الممكن لابن فضلان في نص الرسالة	العالم الممكن لابن فضلان في نص الرواية
رحالة	+	+
مسلم	+	+

عالم فقه	+	+
رجاحة العقل والحكمة	+	-
القوة البدنية	+	-
ملتزم بمعتقداته	+	-
ممارسة الرذيلة	-	+
شرب الخمر	-	+
مصدق بالخرافات والأساطير	-	+
الجبن الشديد	-	+

يدرك القارئ من النظر إلى هذا الجدول الحيلة التي لجأ إليها كرايتون في الحفاظ على بنية العالم الأصلي للرسالة بإبقاء العلاقات الضرورية كما هي، وحصر التغييرات في الخصائص الجوهرية، مما يجعل عالمه المتخيل قابلاً لبلوغ عالم الرسالة الأصلي، ولكن الخصائص الجوهرية التي أضافها لم تكن زائدة فحسب، بل تناقضت بشدة مع الخصائص الجوهرية المعهودة في عالم الرسالة، بالإضافة إلى إضافة أفراد جدد وعلاقات ضرورية جديدة ومختلفة عبر برامج سردية مقحمة في السرد كما رأينا، مما جعل لكل من العالمين بنية سردية ليست مختلفة فحسب، بل متناقضة ومتعارضة مع الأخرى. ولذلك كان من المستحيل أن تعد رواية أكلة الموتى مخطوطة تابعة ومكملة للرسالة، والدليل على ذلك: اضطراب مواقف الباحثين كما رأينا من فكرة تقبل نص أكلة الموتى على أنه نص مخطوط لابن فضلان وتكملة للرحلة، فإذا نجح كرايتون في خداع بعضهم، فإنه لم ينجح في إقناع أكثر الباحثين الذين ظلوا مشككين في شرعية المخطوط.

5. الخاتمة

لقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- ارتكزت رسالة ابن فضلان على تداخل السرد الرحلي بالعجائبي في قالب السيرة الذاتية الأدبي فغلبت الواقعية على التخيلية فيها، أما رواية أكلة الموتى فهي رواية عجائبية انطلقت من سيرة ابن فضلان لذلك غلبت فيها التخيلية على الواقعية.
- اختلفت المدارات السياقية الكبرى الموجهة للنص بين رسالة ابن فضلان التي يتمثل فيها كاتباً فعلياً ومؤلفاً ضمناً وسارداً، ورواية أكلة الموتى التي لا يظهر فيها ابن فضلان إلا سارداً تخيلياً، ووفقاً لاختلاف المدار السياقي الأساسي لكلا العملين تتفرع المدارات الصغرى التي تحدد بدورها خصائص الشخصيات.

- العالم المرجعي في رسالة ابن فضلان يستند على مرجعية تاريخية ثابتة، وعليه وردت أسماء الأعلام ذات المرجعية التاريخية الحقيقية، مما يشير إلى أنه في مجمله نص واقعي ولا يحتل العجائبي منه إلا جزءاً يسيراً في خاتمته، أما العالم المرجعي للرواية فيستند على عالم الرسالة ولكنه ينعطف بالمدار السردى للرواية مما ينتج عنه برامج سردية تختلف اختلافاً جذرياً عن البرنامج السردى الأساسى للرسالة، كما تختلف معه الخصائص الجوهرية لابن فضلان؛ فينبى له الكاتب عالماً ممكناً جديداً مناقضاً للعالم السابق له من خلال تصعيد المدار السردى الخرافى/البطولى على الواقعي، والذي يتناقض مع مدارات الرسالة السياقية السابقة، ونتيجة لذلك تغيير الخصائص الجوهرية المسندة له في عالم الرواية الجديد.
- استطاعت رواية أكلة الموتى الحفاظ على بنية العالم الأصلي لرسالة ابن فضلان، بإبقاء العلاقات الضرورية كما هي، وحصر التغييرات في الخصائص الجوهرية، مما يجعل عالمة التخيل قابلاً لبلوغ عالم الرسالة الأصلي، ولكن الخصائص الجوهرية التي أضافها لم تكن زائدة فحسب، بل تناقضت بشدة مع الخصائص الجوهرية المعهودة في عالم الرسالة، مما أدى إلى إضافة أفراد جدد وعلاقات ضرورية جديدة ومختلفة عبر برامج سردية مقحمة في السرد، فأصبح لكل من العالمين بنية سردية ليست مختلفة فحسب، بل متعارضة مع الأخرى.

الهوامش

- ¹ أحمد بن فضلان بن العباس، توفي سنة 309هـ، وكان مولدًا للقائد العسكري العباسي محمد بن سلمان الذي قاد نهاية القرن التاسع، وبداية القرن العاشر الميلاديين حملات عسكرية امتدت من مصر في الغرب إلى حدود الصين في الشرق (ينظر كحالة 1993، ص. 220؛ حسن، 2017، ص. 23).
- ² جون ميكائيل كرايتون المولود عام 1942، روائي وسينمائي أمريكي. أنهى دراسته في جامعة هارفارد، ثم تنقل بين الدراسات الأنثروبولوجية والبيولوجية. له العديد من الأفلام السينمائية والروايات الخيالية والمستمدة من مادة تاريخية (ابن فضلان، 2003، ص. 22).
- ³ قام المخرج جون ماكينزنان عام 1999م بكتابة سيناريو هذا الفيلم، وهو مستوحى من رواية أكلة الموتى. وقد شارك كرايتون نفسه في إنتاجه.
- ⁴ من أمثلة هذه الدراسات دراسة خولي (2019): بنية الخطاب في الرحلة السفارية، رحلة ابن فضلان نموذجاً.
- ⁵ وتعد دراسة المهرج (2021): ارتحالات رحلة ابن فضلان وتحولاتها، رحلة المحارب الثالث عشر نحو سقف العالم - من أبرز الدراسات التي شغلت بتتبع صور الآخر وتجلياته في رحلة ابن فضلان دراسة تناول فيها الباحث العلاقة بين رحلة ابن فضلان ورواية أكلة الموتى، والفلم السينمائي الغربي والعربي، ولم تخرج عن دراسة صورة الآخر العربي أو الغربي.
- ⁶ كما انطلت هذه الحيلة على باحثين آخرين، منهم عبد الله إبراهيم (ابن فضلان، 2003، مقدمة المحقق). وقد وقع في الوهم نفسه الباحث أحمد البقالي (ينظر المهرج، 2021).

- ⁷ سوسن الروسي هو سوسن الحاجب غلام المكتفي، وكان ممن أسهم في تأسيس خلافة المقتدر كما ذكر ذلك الصولي (ت. 336هـ، ط. 1999) في كتابه: قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي ... ينظر قائمة المراجع.
- ⁸ ترى الباحثة رؤى قدامح أن "تكليفه بأن يكون ممثلًا للخليفة ولدولة المسلمين دليل على أن ابن فضلان -المنتمي للموالي- قد دخل في العقد الاجتماعي لدولة العرب والمسلمين" (قدامح، 2014، ص. 88). وبالرغم من أن ابن فضلان لم يكن عربيًا، بل مولى لمحمد بن سليمان فاتح مصر، ثم لأُمير المؤمنين، كما جاء عن ياقوت الحموي (ابن فضلان، مقدمة المحقق، ص. 38)، إلا أننا نعتقد بخلاف ذلك نظرًا لعدة أسباب؛ منها تسميته أحمد بن فضلان وهي تسمية عربية لا لبس فيها، وعدم إتقانه أي لغة غير العربية، وإثبات عربيته في هذه الرسالة حيث وصف ملك الصقالبة من معه بالأعاجم، ولم يصفه بذلك، ولم ينكر ابن فضلان هذه النسبة.
- ⁹ هو القارئ الذي يرجع إلى الكفايات الموسوعية الثقافية التي يرجع إليها المؤلف نفسه، لذلك فكل مؤلف يستشف "قارئًا نموذجيًا" جديرًا بتأويل نصه بالطريقة التي يراها المؤلف نفسه ملائمة (إيكو، 1984/1996، ص. 68).
- ¹⁰ وترى إحدى الباحثات أن الراوي ابن فضلان "بلجوه إلى استعمال (الهو) اختزل الطريق على المتلقي الذي يخيل له أن الراوي نفسه صدق الحكاية، ... منتقلًا من حكاية لأخرى مختزلًا كل المسافات من حكاية الرجل العملاق إلى حكاية يأجوج ومأجوج، مبيّنًا تصور الآخر لهذه الأقوام الذي كان على النقيض من التصور الإسلامي" (علاوي، 2005، ص. 198).
- ¹¹ ومن الأمثلة على ذلك أيضًا، يقول ابن فضلان (1959): "فإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده. فعرفت الملك أن هذا غير جائز، وعرفته كيف المواريث، حتى فهمها" (ص. 132). ويقول: "ورأينا فيهم أهل بيت يكونون من خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم، يعرفون بالبرنجار، وقد بنوا لهم مسجدًا من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعلمت جماعة ما يصلون به. ولقد أسلم على يدي رجل يقال له طالوت، فأسميته عبد الله" (ص. 135).

المراجع العربية

- إبراهيم، عبد الله. (2010). من هم شعوب الفايكنج، المركزية الإسلامية، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء.
- أحمد، لمى. (2022). شذرات مهمة عن رحلة ابن فضلان، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، 1، 165-199.
- إيكو، أمبرتو. (1996). القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، (أنطوان أبو زيد، ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت. (العمل الأصلي نُشر 1984)
- إيكو، أمبرتو. (2004). التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، (سعيد بنكراد، ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت. (العمل الأصلي نُشر 1992)
- باجابر، نوير. (2016). رحلة ابن فضلان دراسة في البنية والدلالة. مجلة الآداب واللغات، 4، 11-38.
- البيهقي، أبو بكر. (دلائل النبوة، (عبد الرحمن محمد عثمان، تحقيق). دار النصر للطباعة، المدينة المنورة.

التميمي، فاضل. (2018، يناير 1). حين تكون الرحلة سرًا روائيًا، موقع الناقد العراقي. <https://www.alnaked-aliraqi.net/article/49583.php>

التنوخى، الحسين. (ت. 384، ط. 1995). نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، (عبود الشالجي، تحقيق)، دار صادر،

بيروت.

ابن تيمية، تقي الدين. (ت. 728هـ، ط. 1987). *إيضاح الدلالة في عموم الرسالة*، (محمد شاكر، تحقيق.)، مكتبة التوعية الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

ابن الجوزي، عبد الرحمن. (ت. 597، ط. 1992). *المنتظم*، دار الكتب العلمية، بيروت.

حسن، زكي محمد. (2017). *الرحالة المسلمون العرب في العصور الوسطى*، (2) مؤسسة الهداوي، القاهرة.

هداوي، جميل. (2016). *العوالم الممكنة بين النظرية والتطبيق، قصة الموناليزا لأحمد المخلوفي أنموذجاً*.

الحموي، ياقوت. (1977). *معجم البلدان*، بيروت: دار صادر.

خولي، أحمد. (2019). *بنية الخطاب في الرحلة السفارية، رحلة ابن فضلان نموذجاً*، مجلة جامعة النجاح للأبحاث،

العلوم الإنسانية، 33، (10)، 1603-1616.

الذهبي، شمس الدين. (ت. 784، ط. 1993). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام* (ط1)، (عمر التدمري،

تحقيق.)، دار الكتاب العربي، بيروت.

صفوان، بيان. (2013). *رحلة ابن فضلان بين سرد الوعي ووعي السرد*، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 71 (36)، 1-32.

الصولي، أبو بكر. (ت. 336هـ، ط. 1999). *قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي، أو تاريخ الدولة العباسية من*

سنة 592 إلى سنة 513 هجرية من كتاب الأوراق، (خلف رشيد نعمان، تحقيق.)، دار الشؤون الثقافية

العامة "آفاق عربية"، بغداد.

الطبري، محمد. (ت. 310هـ، ط. 1967). *تاريخ الرسل والملوك*، (ط2) (محمد أبو الفضل إبراهيم، تحقيق.)، دار

المعارف، بيروت.

ذياب، منى. (2003). *خلافة المقتدر بالله، دراسة في النواحي السياسية والإدارية*، [رسالة ماجستير الجامعة الأردنية]

، عمان. الأردن.

الطبي، كريم. (2021). *بلاغة المكونات السردية في رحلة ابن فضلان*، مجلة المورد، 48، (2)، 31-54.

عبد الرحمن، سامية. (1993). *المتنافيزيقيا بين الرفض والتأييد*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

عبد الرحمن، طه. (1989). *فلسفة المنطق، تجديد النظر في إشكال السببية عند الغزالي ونظرية العوالم الممكنة*، مجلة

المناظرة، 1، 25-55.

عبد الرحمن، طه. (2002). *في أصول الحوار وتجديد علم الكلام* (ط2). المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

- عبيدات، عبد الكريم. (1999). *عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة* (ط2). دار شبيليا للنشر والتوزيع، الرياض.
- العدواني، معجب. (2017). *مرايا الآخر، مقارنة ثقافية لرسالة ابن فضلان وانعكاساتها في الثقافة الغربية*، مجلة جامعة الطائف للعلوم الإنسانية، 15، (4)، 93-110.
- عرفان، سيد. (2019). *رحلة ابن فضلان، دراسة وتحقيق*، دراسة في الفكر الجغرافي العربي، مجلة كلية الآداب بجامعة بنها، 52، (2)، 1-28.
- "عصر الفاينكغ، يوم بسط غزاة الشمال حكمهم على أوروبا". (2023، فبراير 1). في موقع الجزيرة الوثائقية. <https://doc.aljazeera.net/documentary/2023/2/1>
- العظمة، عزيز. (1991). *العرب والبرابرة المسلمون والحضارات الأخرى*، دار رياض الريس، لندن.
- علاوي، الخامسة. (2005). *العجائبية في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجاً*، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.
- علي، عصام. (1999، ديسمبر 2). *المحارب الثالث عشر. صحيفة الجزيرة*. <http://www.al-jazirah.com/1999/19991202/at14.htm>
- ابن فضلان، أحمد. (ت. 960هـ، ط 1959). *رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة*، (سامي الدهان، تحقيق)، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق.
- ابن فضلان، أحمد. (ت. 960هـ، ط 2003). *رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة لأحمد بن فضلان*، (شاكر لعبي، تحقيق)، دار السويد للنشر والتوزيع، أبوظبي.
- قداح، رؤى. (2014). *رحلة استلاب الذات، قراءة في رسالة ابن فضلان بتحقيق حيدر محمد غيبة*، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، 16، 82-104.
- قنديل، فؤاد. (2010). *أدب الرحلة في التراث العربي*، (ط1) مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة.
- كحالة، عمر رضا. (1993). *معجم المؤلفين*، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- كرايتون، مايكل. (1999). *أكلة الموتى عن مخطوطة ابن فضلان*، (تيسير كامل، ترجمة)، دار الهلال، بيروت.
- (العمل الأصلي نُشر 1976)
- لعبى، شاكر. (2021). *رحلة ابن فضلان، الأيديولوجيا والتخليط*، مجلة المورد، 2، (48)، 137-166.
- لوبوميردوليزيل. (2006، مايو 1). *علم دلالة العوالم الممكنة، وأسماء العلم*. (ترجمة: عادل الثامري)، عالم الأدب.
- موقع إيلاف. <https://elaph.com/Web/ElaphLiterature/2006/5/145419.htm>

- محفوظ، عبد اللطيف. (2008). آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصور سيميائي. الدار العربية ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- المرهج، سعيد. (2021). ارتحالات رحلة ابن فضلان وتحولاتها، رحلة المحارب الثالث عشر نحو سقف العالم، مجلة المورد، 2، (48)، 30-23.
- المطيري، يوسف. (2021). صورة بلاد البلغار في رحلة ابن فضلان، مجلة وقائع تاريخية، 35، (2)، 497-53.
- ميهوبي، خديجة. (2022). المتخيل في رحلة أحمد بن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، مجلة الدراسات الأكاديمية، 1، (4)، 40-11.
- ‘Abd al-Raḥmān, Sāmiyah. (1993). almytāfyzyqyā bayna al-rafḍ wa-al-ta’yīd, Maktabat al-Nahḍah al-Miṣriyah, al-Qāhirah.
- ‘Abd al-Raḥmān, Ṭāhā. (1989). Falsafat al-mantiq, Tajdīd al-naẓar fī Ishkāl al-sababīyah ‘inda al-Ghazālī wa-naẓariyat al-‘Awālim al-mumkinah, Majallat al-Munāẓarah, 1, 25-55.
- ‘Abd al-Raḥmān, Ṭāhā. (2002). fī uṣūl al-Ḥiwār wa-tajdīd ‘ilm al-kalām, (t2), al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, al-Dār al-Bayḍā’.
- Aḥmad, Lamá. (2022). Shadharāt muhimmah ‘an Riḥlat Ibn Faḍlān, Majallat Jāmi‘at al-Anbār lil-‘Ulūm al-Insāniyah, 1, 165-199.
- Al-‘Adwānī, Mu‘jab. (2017). Marāyā al-ākhar, muqārabah thaqāfiyah li-risālat Ibn Faḍlān wa-in‘ikāsātuhā fī al-Thaqāfah al-Gharbīyah, Majallat Jāmi‘at al-Ṭā’if lil-‘Ulūm al-Insāniyah, 15, (4), 110. Gharbīyah, Majallat Jāmi‘at al-Ṭā’if lil-‘Ulūm al-Insāniyah, 2017, Majj 4, ‘A 15, §93-110
- Al-‘Azmah, ‘Azīz. (1991). al-‘Arab wālbrābrh al-Muslimūn wa-al-ḥaḍārāt al-ukhrā, Dār Riyād al-Rayyis, Landan.
- al-Bayhaqī, Abū Bakr. (t. 458h, Ṭ. 1969). Dalā’il al-Nubūwah, (‘Abd al-Raḥmān Muḥammad ‘Uthmān, taḥqīq.). Dār al-Naṣr lil-Ṭibā’ah, al-Madīnah al-Munawwarah.
- Al-Dhahabī, Shams al-Dīn. (t. 784, Ṭ. 1993). Tārīkh al-Islām wa-wafayāt al-mashāhīr wa-al-a‘lām, (Ṭ1) (‘Umar al-Tadmūrī, taḥqīq.), Dār al-Kitāb al-‘Arabī, Bayrūt.
- Al-Ḥamawī, Yāqūt. (1977). Mu‘jam al-buldān, Bayrūt : Dār Ṣādir
- ‘Alī, ‘Iṣām. (1999). al-Muḥārib al-thālith ‘ashar, Ṣaḥīfat al-Jazīrah, <http://www.al-jazirah.com/1999/19991202/at14.htm>
- ‘Allāwī, al-khāmisah. (2005). al-‘jā’byh fī adab al-riḥlāt, Riḥlat Ibn Faḍlān namūdhan, [Risālat mājistīr, Jāmi‘at Mintūrī], Qusanṭīnah, al-Jazā’ir.
- Al-Muṭayrī, Yūsuf. (2021). Sūrat bilād al-Bulghār fī Riḥlat Ibn Faḍlān, Majallat waqā’i tārīkhīyah, 35, (2) 497-53.
- Al-Murhij, Sa‘īd. (2021). arṥālāt Riḥlat Ibn Faḍlān wa-taḥawwulātuhā, Riḥlat al-Muḥārib al-thālith ‘ashar Naḥwa Saqf al-‘ālam, Majallat al-Mawrid, Wizārat al-Thaqāfah, Dār al-Shu‘ūn al-Thaqāfiyah al-‘Āmmah, 2, (48) 23-30.
- Al-Ṣūlī, Abū Bakr. (t. 336, Ṭ. 1999.). Qism min Akhbār al-Muqtadir billāh al-‘Abbāsī, aw Tārīkh al-dawlah al-‘Abbāsīyah min sanat 295 ilā sanat 513 Hijrīyah min Kitāb al-awraq, (Khalaf Rashīd Nu‘mān, taḥqīq.), Dār al-Shu‘ūn al-Thaqāfiyah al-‘Āmmah "Āfāq ‘Arabīyah."
- Al-Ṭabarī., Muḥammad. (t. 310, Ṭ. 1967). Tārīkh al-Rusul wa-al-mulūk, (t2) (Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, taḥqīq.), Dār al-Ma‘ārif, Bayrūt.

- Al-Tamīmī, Fāḍil. (2018). Hīna takūn al-Rihlah srđan rwā'yyan, Mawqi' al-nāqid al-'Irāqī. <https://www.alnaked-aliraqi.net/article/49583.php>
- Al-Tanūkhī, al-Ḥusayn. (t. 384, ٢. 1995). Nishwār al-muḥāḍarah wa-akhbār al-mudhākarah, ('Abbūd al-Shālījī, taḥqīq.), Dār Ṣādir, Bayrūt.
- Al-Ṭībī, Karīm. (2021). Balāghat al-mukawwināt al-sardīyah fī Rihlat Ibn Faḍlān, Majallat al-Mawrid, Wizārat al-Thaqāfah, Dār al-Shu'un al-Thaqāfiyah al-'Āmmah, 2, (48), 31-54. 'Aṣr alfāykngh, yawm Baṣṭ ghzāh al-Shamāl ḥukmihim 'alā Ūrūbbā, Mawqi' al-Jazīrah al-wathā'iqīyah, 1/2 / 2023. <https://doc.aljazeera.net/documentary/2023/2/1/>
- Bājābr, Nuwayr. (2016). Rihlat Ibn Faḍlān dirāsah fī al-binyah wa-al-dalālah. Majallat al-Ādāb wa-al-lughāt, 4, 11-38.
- Dhiyāb, Munā. (2003). khilāfat al-Muqtadir billāh, dirāsah fī al-nawāhī al-siyāsīyah wa-al-idārīyah, [Risālat mājistīr, al-Jāmi'ah al-Urdunīyah [, 'Ammān.
- Ḥamdāwī, Jamīl. (2016). al-'Awālim al-mumkinah bayna al-naẓariyah wa-al-taṭbīq, qīṣṣat almwnālyzā li-Aḥmad al-Makhlūfī unamūdhan .
- Ḥasan, Zakī Muḥammad. (2017). al-raḥḥālah al-Muslimūn al-'Arab fī al-'uṣūr al-Wuṣṭā, (2) Mu'assasat al-Hindāwī, al-Qāhirah.
- Ibn al-Jawzī, 'Abd-al-Raḥmān. (t. 597, ٢. 1992.). al-muntaẓim, Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, Bayrūt .
- Ibn Faḍlān, Aḥmad. (t. 960h, ١959) Risālat Ibn Faḍlān fī waṣf al-Rihlah ilā bilād al-Turk wālkhr wa-al-Rūs wālsqālbh, (Sāmī al-Dahhān, taḥqīq), Maṭbū'āt al-Majma' al-'Ilmī al-'Arabī, Dimashq.
- Ibn Faḍlān, Aḥmad. (t960h, ٢. 2003) Rihlat Ibn Faḍlān ilā bilād al-Turk wa-al-Rūs wālsqālbh li-Aḥmad ibn Faḍlān, (Shākir Lu'aybī, taḥqīq), Dār al-Suwaydī lil-Nashr wa-al-Tawzī', abwzby.
- Ibn Taymīyah, Taqī al-Dīn. (t. 728, ٢. 1987.) Īdāḥ al-dalālah fī 'umūm al-Risālah, (Muḥammad Shākir, taḥqīq.), Maktabat al-taw'iyah al-Islāmīyah lil-Ṭibā'ah wa-al-Nashr wa-al-Tawzī', al-Qāhirah.
- Ibrāhīm, 'Abd Allāh. (2010). min hum shu'ūb alfāyknj, al-Markazīyah al-Islāmīyah, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, al-Maghrib, al-Dār al-Bayḍā',
- Īkū, Umbirtū. (1996). al-qārī' fī al-ḥikāyah, 'aḍd alt'wyly fī al-nuṣūṣ al-ḥikā'iyah, (Anṭwān Abū Zayd, tarjamat.), al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, Bayrūt.
- Īkū, Umbirtū. (2004). al-ta'wīl bayna al-sīmiyā'iyāt wāltkfykyh, (Sa'īd Bingarād, tarjamat.), al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, Bayrūt.
- 'Irfān, Sayyid. (2019). Rihlat ibn Faḍlān, dirāsah wa-taḥqīq, dirāsah fī al-Fikr al-jughrāfī al-'Arabī, Majallat Kalīlah al-Ādāb bi-Jāmi'at Banhā, 52, (2), 1-28.
- Khulī, Aḥmad. (2019). Binyat al-khiṭāb fī al-Rihlah al-safāriyah, Rihlat Ibn Faḍlān namūdhan, Majallat Jāmi'at al-Najāh lil-Abḥāth, al-'Ulūm al-Insāniyah, '10 (33), 1603-1616.
- Krāytnw, Māykil. (1999). akhl al-mawṭā 'an makhtūṭah Ibn Faḍlān, (Taysīr Kāmil, tarjamat.), Dār al-Hilāl, Bayrūt.
- Lu'aybī, Shākir. (2021). Rihlat Ibn Faḍlān, al-aydiyūlūjiyā wāltkhyt, Majallat al-Mawrid : Wizārat al-Thaqāfah, 2, (48), 137-166 .
- Lwbwmyrdwlyzyl. (2006). 'ilm Dalālat al-'Awālim al-mumkinah, wa-asmā' al-'Ilm. (tarjamat : 'Ādil al-Thāmirī), 'Ālam al-adab. Mawqi' Īlāf, al-Ithnayn. <https://elaph.com/Web/ElaphLiterature/2006/5/145419.htm>
- Maḥfūz, 'Abd al-Latīf. (2008). āliyat intāj al-naṣṣ al-riwā'i, Naḥwa Taṣawwur symyā'y. al-Dār al-'Arabīyah Nāshirūn, Manshūrāt al-Ikhtilāf, al-Jazā'ir.

- Mayhūbī, Khadījah. (2022). al-mutakhayyal fī Riḥlat Aḥmad ibn Faḍlān ilā bilād al-Turk wa-al-Rūs wālšqālbh, Majallat al-Dirāsāt al-Akādīmīyah, 1, (4), 11-40.
- Qaddāh, Ru'ā. (2014). Riḥlat Istilāb al-dhāt, qirā'ah fī Risālat Ibn Faḍlān bi-taḥqīq Ḥaydar Muḥammad Ghaybah, Majallat Dirāsāt fī al-lughah al-‘Arabīyah wa-ādābiḥā, 16, 82-104.
- Qandīl, Fu'ād. (2010). adab al-Riḥlah fī al-Turāth al-‘Arabī, (ṭ1) Maktabat al-Dār al-‘Arabīyah lil-Kitāb, al-qārrah.
- Şafwān, bayān. (2013). Riḥlat Ibn Faḍlān bayna Sard al-Wa'y wa-wa'y al-sard, Majallat Kullīyat al-Ādāb, Jāmi'at al-Iskandarīyah, 71 (36), 1-32.
- ‘Ubaydāt, ‘Abd al-Karīm. (1999). ‘Ālam al-jinn fī ḍaw’ al-Kitāb wa-al-sunnah, (ṭ2), Dār shbylyā lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, al-Riyāḍ.

Biographical Statement

معلومات عن الباحث

Samia Abdullah Al-Amri is an associate professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, College of Languages and Translation at the University of Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia. Dr. Al-Amri obtained her doctorate from King Abdulaziz University in 2011. Her research interests include the study of Arabic literature and its criticism in light of literary critical theories and their use in ancient and modern Arabic literature.

د. سامية بنت عبدالله العمري، أستاذ مشارك في الأدب والنقد في قسم اللغة العربية بكلية اللغات والترجمة، جامعة جدة، المملكة العربية السعودية. حاصلة على درجة الدكتوراه في الأدب والنقد والبلاغة من جامعة الملك عبدالعزيز عام 1432هـ. تدور اهتماماتها البحثية حول دراسة الأدب العربي ونقده في ضوء النظريات النقدية الأدبية وتوظيفها في الأدب العربي قديماً وحديثاً.

Email: salamri@uj.edu.sa



ولاية المزارعة في شرق أفريقيا 1739-1837م: دراسة في تاريخها السياسي

عبد الله بن إبراهيم بن علي التركي ^{id}

قسم التاريخ، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، بريدة، المملكة العربية السعودية

17، (2)، ربيع

الثاني، 1445

October, 2023

Abstract

The Mazru'i's rule in East Africa 1739- 1837: A Political History Study

This study sheds light on the history of the Mazru' i State in the Mombasa Island in East Africa, from its establishment in 1739 AD until the end of the rule of the Busaidi in 1837 AD. The study aims to understand the political conflicts and competition between the Mazru' is and the Sultan of Omani, Said bin Sultan, regarding sovereignty over the East African coast. The Mazru' i state lasted for nearly a century and witnessed the rule of nine different Sultans who attempted to maintain their independence and expand their influence.

This study reveals the political inexperience of the Mazru' i's Sultans and their failure to deal with international relations. It also discusses internal conflicts among the Mazru' i leaders over power and the conflicts' negative impact on the stability of their rule. In the end, the Omani Sultan successfully overthrew the Mazru' i Sultanate through military campaigns starting from 1822 to 1837 due to internal disputes and leadership rivalries.

Key words, history, Sayyid Sa 'id, the Mazru' i, East Africa, Mombasa.

الملخص

هذه الدراسة تلقي الضوء على تاريخ ولاية المزارعة في جزيرة ممبسة في شرق أفريقيا، منذ تأسيسها عام 1739م حتى نهاية ولاية البوسعيديين عام 1837م. تهدف الدراسة إلى فهم الصراعات السياسية والتنافس بين المزارعة والسلطان العماني، السيد سعيد بن سلطان، بشأن السيادة على الساحل الشرقي لأفريقيا. استمرت ولاية المزارعة لما يقارب قرن من الزمان، وشهدت تناوبًا بين تسعة ولاة حاولوا الحفاظ على استقلالهم وتوسيع نفوذهم.

وتظهر الدراسة نقص الخبرة السياسية لولاة المزارعة وفشلهم في فهم العلاقات الدولية وتفاهمهم مع بريطانيا والسلطان العماني. كما تكشف عن الصراعات الداخلية بين قادة المزارعة بشأن السلطة وتأثيرها السلبي على استقرار الولاية. في النهاية، نجح السلطان العماني في إسقاط ولاية المزارعة بعد حملات عسكرية من عام 1822م إلى عام 1837م بسبب الخلافات الداخلية وتنافس القادة. وتكشف هذه الدراسة عن تفاصيل مهمة للتاريخ السياسي والثقافي لشرق إفريقيا وتسلط الضوء على تأثير السياسة والصراعات الداخلية في النفوذ في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: تاريخ، السيد سعيد، المزارعة، شرق أفريقيا، ممبسة.

الإحالة APA Citation

التركي، عبد الله إبراهيم. (2023). ولاية المزارعة في شرق أفريقيا 1739-1837م: دراسة في تاريخها السياسي، 17، (2)، 109-130.

استلم في: 1445-02-21 / قبل في 1445-03-02 / نُشر في 1445-04-14

Received on: 06-09-2023/Accepted on: 17-09-2023/Published on: 29-10-2023



1. المقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم رصد تاريخي سياسي لولاية المزارعة في شرق أفريقيا، منذ قيامها عام 1739م حتى نهاية ولايتهم عام 1837م، على أيدي البوسعيديين.

وتعود أهمية الكتابة عن هذا الموضوع إلى الحاجة لمعالجة تاريخية تكشف عن الطموحات التي يريد آل مزروعى⁽¹⁾ تحقيقها في شرق إفريقيا⁽²⁾ من خلال تأسيس دولة لهم يكون لها سيادة على الساحل الشرقي لأفريقيا، وتوضح أن هذه الطموحات اصطدمت بتطلعات مماثلة، يريد السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي⁽³⁾ أن يراها على أرض الواقع في سواحل شرق أفريقيا والجزر المحاذية لها. ويعتقد السيد سعيد بضرورة القضاء على ولاية المزارعة، لأن ذلك في نظره سيمكنه من تأسيس دولة عربية بشطرين أسيوي وأفريقي

ومما يدعو للكتابة عن هذا الموضوع أن ولاية المزارعة استمرت ما يقارب قرن من الزمان، تعاقب على ولايتها تسع ولاءة، حاولوا جهمهم المحافظة على استقلالهم وتوسيع رقعة ولايتهم، وموازنة علاقاتهم مع القوى المحلية والدول الاستعمارية، ولذا فمن المهم دراسة التاريخ السياسي لهذه الولاية؛ لمعرفة التطورات السياسية التي مرت بها، والوسائل التي أخذ بها ولاءة المزارعة للمحافظة على بقاء ولايتهم. وهل نجحوا في تحقيق إقامة دولة مستقلة لهم؟ وقد قسمت هذه الدراسة إلى ستة مباحث وخاتمة، على حسب الأحداث المهمة التي شهدتها جزيرة ممبسة⁽⁴⁾، وجهود ولائها المزارعة في العمل على الاستفادة من القوى الدولية الموجودة في المنطقة آنذاك. وقد جاءت مباحث الدراسة الستة مرتبة على النحو التالي:

- استقلال ولاية المزارعة.

- بداية نزاع المزارعة مع السيد سعيد.

- الحماية البريطانية المؤقتة على ولاية المزارعة.

- موقف السيد سعيد من الحماية البريطانية المؤقتة.

- محاولات السيد سعيد الاستيلاء على ممبسة.

- نهاية ولاية المزارعة.

2. استقلال ولاية المزارعة

قبيل بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ضعفت دولة اليعاربة⁽⁵⁾ في عمان وشرق إفريقيا، وشهدت اضطرابات داخلية، لم تلبث حتى انعكست على نفوذ هذه الأسرة في سائر المناطق التابعة لها، وذلك لأن حكم اليعاربة في شرق أفريقيا كان في معظم الفترات حكماً اسمياً، تمثل في تعيين الولاة في مناطق نفوذهم، تاركين لهم إدارة شؤونهم الداخلية بأنفسهم، وهذا أدى بالتالي إلى أن يتحين بعض الولاة الفرصة المناسبة للاستقلال.

ويعتبر محمد بن عثمان بن عبد الله المزروعى أول ولاية المزارعة في شرق أفريقيا ومؤسس ولاية المزارعة في جزيرة ممبسة، بعد أن عينه السلطان سيف بن سلطان الثاني والياً عليها عام 1739م، بعد أن دبت فيها الفتن والقلاقل، خلال فترة ولاية واليها السابق أحمد بن سعيد المعموري، وقد لقي محمد المزروعى ترحيباً من قبل معظم أعيان وسكان الجزيرة، لذا سعى في وقت مبكر من ولايته إلى توطيد الأمن في جزيرته التي أنهكتها الحروب، وساس الناس بالعدل والمساواة، فلقي مزيداً من الدعم والمؤازرة من الشيوخ والأعيان، وبذلك ضمن التأييد الداخلي له؛ لتحقيق طموحاته في الاستقلال حين تحين الفرصة المناسبة لذلك (السيار، 1975).

ومن الواضح أن الظروف التي تمر بها دولة اليعاربة آنذاك، ووقوعها في سلسلة من الأزمات والمشاكل في عمان وشرق أفريقيا، لم تدع فرصة لحكامها للتفكير في الحفاظ على ممتلكاتهم في شرق أفريقيا، ولذا لم يمض إلا زمناً يسيراً حتى سقطت دولة اليعاربة عام 1744م، وقامت دولة البوسعيديين على أنقاضها، بيد أن نهاية نفوذ اليعاربة في شرق أفريقيا قد تحقق فعلياً قبل ذلك.

وبناء على هذه المستجدات انتهز محمد المزروعى الفرصة ليعلن استقلال جزيرة ممبسة عن التبعية للدولة البوسعيدية⁽⁶⁾، وظهر ذلك حينما أفصح المزروعى عن رفضه الاعتراف بالإمام الجديد أحمد بن سعيد مؤسس الدولة البوسعيدية، ومن هنا بدأت الصراعات بين الجانبين (قاسم، 1968).

برر الوالي المزروعى إعلانته الاستقلال عن الدولة العمانية الجديدة بأن ولاءه ظل باقياً لدولة اليعاربة حتى سقطت، ولم تكن تبعيته لعمان تعني أن يستمر في ولاءه لمن يحكم عمان بعدها، إضافة إلى أن الإمام أحمد بن سعيد لا ينتمي إلى أصل ملكي يستوجب الخضوع له، وإنما توصل إلى الحكم بطموحه الشخصي، حيث كان في الأصل والياً لإحدى المدن العمانية، وتمكن من الوصول إلى الحكم، فماذا يمنع (المزروعى) حاكم ممبسة من الاقتداء به، وماذا يحول بينه وبين الاستقلال بما تحت ولايته من البلاد (جيان، 1927).

كما أكد الوالي المزروعى في قراره هذا إلى أن المزارعة كانوا ينتظرون من عمان حمايتهم من البرتغاليين والأوروبيين الآخرين والقبائل الإفريقية، لكن اليعاربة في آخر عهدهم لم يكونوا في وضع يمكنهم من تقديم تلك الحماية (Groy, 1962).

وعلى الرغم مما تذرعه الوالي المزروعى إلا أن السلطان أحمد بن سعيد عزم على القضاء عليه بالحيلة والدهاء، فأرسل ستة رجال من أعوانه المخلصين يرأسهم سيف بن خلف المعمرى إلى ممبسة، في عام 1746م، وما أن وصلوا إلى هناك حتى أظهرها أنهم من خصوم السلطان أحمد بن سعيد، وأنهم فروا من عمان خشية من بطشه، وآثروا المجيء إلى ممبسة لتقديم خدماتهم إلى الوالي المزروعى، وطلبوا منه مساعدتهم في الذهاب إلى المناطق المجاورة ليجمعوا كلمة الأنصار والمؤيدين، ولقي هذا الأمر ترحيباً من الوالي المزروعى، الذي خرج لوداعهم في يوم سفرهم منفرداً، فغدروا به

وقتلوه، ثم ألقوا القبض على أخيه علي بن عثمان المزروعي، وسجنوه في حصن ممبسة، وكان ذلك في عام 1744م (المعيري، 1994) (7).

وأعلن سيف بن خلفان نفسه والياً على ممبسة، خاضعاً للبوسعيديين. وتخلص أحمد بن سعيد من واحد من أكبر خصومة في شرق أفريقيا، ربما يكون منافساً شرساً له في هذه المنطقة، وظن أنه بسيطرته على هذه الجزيرة وقتله لمؤسس ولاية المزارعة قضى على آمالهم في الاستقلال بحكم هذه الجزيرة، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً في الواقع، فقد استطاع علي بن عثمان المزروعي استطاع الهرب من سجنه بمساعدة من بعض الموالين له من حرس السجن، واتفق مع أهالي ممبسة على الهجوم على القلعة التي بها مقر الحاكم العماني، وبالفعل تمكن من اقتحامها وقتل من فيها، وأعلن على بن عثمان المزروعي نفسه والياً على ممبسة مستقلاً عن البوسعيديين وذلك في عام 1746م (العقاد؛ وقاسم، 1959).

ويشير أحد المؤرخين (المزروعي، د.ت) إلى أن بريطانيا كان لها دور في استعادة علي المزروعي حكم أسرته، ومما يؤكد ذلك أن تاجراً بريطانياً يدعى كوك (kook) ساعد (8) علي المزروعي بالثورة على الوالي البوسعيدي سيف بن خلفان، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إضعاف العلاقة بين عمان وشرق إفريقيا، مما يتيح له ولغيره من رجال الاستعمار فرصة الحصول على أرباح أكثر (عمر، 1988)، والذي يظهر أن علاقة هذا التاجر بالدولة البوسعيدية الناشئة، لم تكن ودية على أي حال.

وهكذا استطاع علي المزروعي بدعم من رؤساء وشيوخ المقاطعات الموالية للمزارعة، مطاردة قوات البوسعيديين، حتى تمكن من إجلائها عن الجزيرة، واستقلت ممبسة من جديد. وثمن الوالي المزروعي مساعدة القبائل الأفريقية له، فمنحها الكثير العديد من الامتيازات التي لم يسبق لهم الحصول عليها، مثل التنازل عن الضرائب التي تؤخذ منهم (المزروعي، د.ت) في جزيرة ممبة (9).

ولعل من أهم أسباب نجاح علي المزروعي في ثورته، هو انشغال أحمد بن سعيد في توطيد حكمه في عمان، خاصة في مواجهة التطلعات الفارسية الطامعة ببلاده، ولهذا عمل على تقوية علاقاته مع الدولة العثمانية (الخصوصي، 1984).

وبعد استتباب الأوضاع لعلي المزروعي في ممبسة، بدأ بالعمل على توسيع نفوذ ولايته فأخذ يحرض المدن (10) التابعة للدولة البوسعيدية في شرق أفريقيا على الثورة والانفصال عن عمان، ولم يقف علي المزروعي عند هذا الحد، بل قام بالهجوم على زنجبار (11) عام 1755م، ولقي الجيش المزروعي هزيمة نكراء، على يد الوالي البوسعيدي، وقُتل علي المزروعي (12) في هذا الهجوم، ورجع جيشه إلى ممبسة (المزروعي، د.ت؛ Ingrams 1967).

وبعد مقتل علي المزروعي تولى من بعده مسعود بن ناصر المزروعي، واستطاع مد نفوذه في منطقة الساحل

الشرقي لأفريقيا، ووقف سداً منيعاً ضد محاولة البوسعيديين إعادة سيطرتهم على تلك المنطقة (المزروعي، د.ت؛ العقاد؛ وقاسم، 1959).

إلا أن النجاح النسبي الذي حققه هذا الوالي في مقاومة البوسعيديين، ليس مرده في الواقع إلى قوته أو ضعف خصومه، بل إن ذلك راجع إلى انشغال أولئك الخصوم في عمان بتوطيد نفوذهم في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، قبل العمل الجاد لبسط سيطرتهم على مناطق بعيدة عن عمان، رغم أهميتها الاقتصادية لهم. يضاف إلى ذلك أن البوسعيديين حرصوا في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ دولتهم، على تشجيع التجارة بين عمان، والمناطق الخاضعة لهم في شرق أفريقيا، أما المناطق التي لم تخضع لهم فلم يعملوا على فرض سيطرتهم عليها بالقوة خشية من انقطاع طرق التجارة بينها وبين عمان.

ومهما يكن الأمر فإن الجهد المحدود الذي بذله أحمد بن سعيد (بصفته مؤسس الدولة البوسعيدية) في شرق أفريقيا، كان مرتكزاً مهماً استند عليه خلفاؤه من بعده؛ للسيطرة على تلك الجهات، باعتبار أن تلك المنطقة هي الشطر الأفريقي من السلطنة العمانية.

لكن من الواضح أن النفوذ الذي كان للبوسعيديين في زنجبار، وبعض الجزر الأخرى في بداية حكمهم، كان نفوذاً اسمياً، مرهون بدفع ضريبة سنوية للسلطان العماني فقط (الطائي، 1995). ومرد ذلك ما كانت تحظى به الأسر الحاكمة في الساحل الشرقي لأفريقيا من محبة وولاء، من زعماء القبائل الأفريقية والشيوخ والأعيان.

ومن أهم ما قام به مسعود بن ناصر خلال ولايته، هو مشاركته في حكم جزيرة بابة⁽¹³⁾، رغم معارضة حاكمها النبهاني⁽¹⁴⁾، بل فرض عليه أن يكون للمزارعة قوة في بابة وهذا ما اضطر حاكمها للخضوع أمام قوة مسعود بن ناصر (الفارسي، 1994)، ولعل ذلك مما أدى إلى وجود صراع مستمر طيلة النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، بين المزارعة في ممبسة والنبهانيين في بابة، لفرض سيادة كل منهما على الآخر، وهي الحروب التي عانت منها مناطق شرق أفريقيا منذ قدوم البرتغاليين (المعمري، 1971).

وقد وصفت بعض المصادر العمانية (المغيري، 1994) مسعود بن ناصر المزروعي بأنه كان ميالاً إلى السلم، ولذا فلم تشهد فترة حكمه التي بلغت أربع وعشرين سنة، أحداثاً ذات أهمية كبيرة في تاريخ المزارعة، حتى وفاته عام 1779م.

بعد وفاة مسعود بن ناصر تولى ولاية المزارعة من بعده عبدالله بن محمد بن عثمان المزروعي وذلك في عام 1779م، وبقي والياً عليه مدة سنتين، ولم تكن هناك أحداثاً تذكر في عهده، إذ شهدت ممبسة استقراراً نسبياً حتى توفي عام 1781م (المزروعي، د.ت؛ المغيري، 1994)، ثم بُويع من بعده مباشرة أخوه أحمد بن محمد بن عثمان المزروعي والياً على المزارعة، وظل في الولاية أربع وثلاثين سنة، وفي السنوات الأولى من ولايته شهدت عمان صراعاً

على الحكم، بعد أن تولى سعيد بن أحمد البوسعيد الحكم بعد وفاة والده عام 1784م، والذي وُصف بالضعف، وهذا ما جعل أخاه سيف يطمع في الحكم، ولما فشل في تحقيق طموحاته في عمان، انتقل إلى شرق إفريقيا. وعندما أدرك سعيد بن أحمد نوايا أخيه أرسل ابنه حمد بن سعيد على رأس قوة استطاعت أن تنهي الحصار الذي فرضه سيف بن أحمد على زنجبار (روت، 1983)، ثم انتقل حمد بن سعيد بعدها إلى ممبسة، وهناك استطاع أن يأخذ من المزارعة اعترافاً مكتوباً بخط حاكمها أحمد المزروعي، يقر فيه بخضوع تلك المناطق للبوسعديين، وبأن المزارعة ليسوا إلا ولاية يخضعون لسلطان عمان وكان ذلك عام 1785م، إلا هذا الاعتراف لم يوافق عليه أعيان المزارعة بعد ذلك (الفارسي، 1994؛ المغيري، 1994؛ Groy, 1962) وعلى أي حال فإن الموانئ الواقعة من ممبسة شمالاً وما يليها جنوباً أصبحت تعترف بالسيادة الأسمية للبوسعديين (حراز، 1968؛ قاسم، 1968).

والذي يظهر من خلال استقرار تطورات الأحداث في منطقة شرق أفريقيا بعد وصول هذه الحملة التي أرسلها سعيد بن أحمد لم تكن فقط من أجل القضاء على المحاولات التي يخشى وقوعها من أخيه، بل إنه يهدف إلى أبعد من ذلك وهو تأكيد سيطرة البوسعديين على شرق أفريقيا، بعد أن ظهرت بوادر الثورة والعصيان في بعض أجزاء تلك المنطقة. والدليل على ذلك توالي مقاطعات وجزر الساحل في تقديم الولاء والطاعة للبوسعديين، وبذلك تأكدت السيطرة العمانية على معظم أنحاء الشرق الأفريقي.

ومهما يكن الأمر فعلى الرغم من الاعتراف الذي كتبه الوالي المزروعي؛ بالتبعية الأسمية للبوسعديين، إلا أنه ذكر لشيوخ وأعيان المزارعة في ممبسة بأن هذا الاعتراف لا قيمة له، وأنه اضطر إلى ذلك بسبب قدوم حمد بن سعيد بجيشه فجأة، ولم يكن بمقدوره مقاومته، لذا أعطاه هذا الإقرار الذي لا يعدوا أن يكون قصاصة من الورق على حد قوله، لا تعكس حقيقة ما يضمه، وأنه لو عاد البوسعديون مرة أخرى؛ فسيكون أكثر استعداداً لمواجهةهم (المغيري، 1994؛ حراز، 1968).

اضطربت الأوضاع السياسية في عمان في العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر الميلادي فقد شُغل البوسعديون بالنزاعات الداخلية، وما بقي لهم من جهد حربي فقد بُذل لمواجهة الدولة السعودية الأولى، ودولة فارس في الخليج العربي (السالمي، 1960). وهذه الأمور مجتمعة جعلت النفوذ البوسعدي في شرق أفريقيا ليس له وجود في أرض الواقع إلا بالاسم فقط.

وهذا ما أعطى الوالي المزروعي الفرصة المناسبة لتثبيت نفوذه في ممبسة، وتوسيع مناطق ولايته في الساحل الشرقي لأفريقياً، وذلك بالتدخل في النزاع على الحكم بين المتنافسين عليه في جزيرة باته، بتعين صهر السلطان المتوفى واليا على هذه الجزيرة؛ شريطة أن يكون تابعاً للمزارعة، وأن يتم تعيين وكيل للوالي المزروعي في باته. كما قام المزارعة بالهجوم على جزيرة لامو⁽¹⁵⁾ عام 1813م، إلا أن قواتهم منيت بهزيمة قاسية، وكاد أحمد المزروعي أن يقع أسيراً في أيدي أعدائه

(حراز، 1968).

3. بداية نزاع السيد سعيد مع المزارعة

توفي والي المزارعة أحمد بن محمد المزروعى عام 1814م، وخلفه في الولاية من بعده ابنه عبد الله، بإجماع من أعيان وشيوخ ممبسة، ورغم كبر سنه إلا أن أحد المؤرخين (المزروعى، د.ت) وصفه بأنه بطلاً هماماً، وشجاعاً مقداماً، بل إن أحد المصادر الأجنبية وصفته بأنه أشجع رجل في الأسرة الحاكمة، وأنه ذو حنكة وكفاءة فكان أهلاً لتولي الولاية (جيان، 1927).

ونظراً لما كان يحشاه أعيان وشيوخ جزيرة لامو من عودة المزارعة إلى مهاجمتهم من جديد، فقد أرسلوا واحداً منهم إلى مسقط؛ ليطلب المساعدة من السيد سعيد بن سلطان⁽¹⁶⁾، الذي استجاب لهم وانتهاز الفرصة فأرسل والياً من قبله إليها، وشرع ببناء حصن بها، حتى يتمكن من الدفاع عنها عند الحاجة، ورغم أن بناء هذا الحصن استغرق وقتاً طويلاً إلا أن المزارعة لم يقوموا بعمل ضده (حراز، 1968).

وبهذا دخل المزارعة في نزاع طويل مع سعيد بن سلطان، الذي ما إن استقرت أوضاعه في الجزء الآسيوي من السلطنة العمانية، حتى تطلع إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، رغبة منه الاستفادة من ثرواته بعد القضاء على المنافسين له في تلك المنطقة.

ومنذ أن أحكم السيد سعيد قبضته على السلطة في عمان، عزم على السيطرة على موانئ شرق أفريقيا، نظراً لأهميتها الاقتصادية، ولم تكن تحت سيطرته في تلك المنطقة في بادئ الأمر سوى زنجبار، وبعض المناطق التابعة لها مثل: كلوة⁽¹⁷⁾، ورأى أن المزارعة هم حجر العثرة الذي يقف في طريقه، وجاءته الفرصة المناسبة حينما ضاق والي باطة ذرعاً بالحامية المزروعية الموجودة عنده، وعزم على التخلص منها، فلم يجد بداً من الاستعانة بالسيد سعيد، فأرسل رسالة إليه يقر بالخضوع له، ويشكو له من تعدي المزارعة عليه، فأرسل السيد سعيد رسالة إلى والي المزروعى عبدالله بن أحمد يحذره فيها من التعدي على أهل باطة. وهذا ما أغضب الأخير واعتبر ذلك تعد من السيد سعيد، وتدخل فيما لا يعنيه، فبعث والي المزروعى رسالة جوابيه للسيد سعيد، وهي عبارة عن درع، وبعض البارود (المزروعى، د.ت؛ الفارسي 1994) وهذا بمثابة إعلان الحرب بين الجانبين وكان ذلك في عام 1815م.

إلا أن الأوضاع غير المستقرة في منطقة الخليج العربي بشكل عام، منعت السيد سعيد من أن يتخذ خطوات سريعة للرد على هذا التحدي السافر من قبل المزارعة، حيث كانت الدولة السعودية الأولى قد وصلت إلى مشارف الأراضي العمانية، وهذا ما اضطر السيد سعيد إلى دفع الزكاة لهم في تلك الفترة (ابن بشر، 1971)، لكنه في الوقت نفسه كان عازماً على تأديب المزارعة متى ما سنحت الفرصة بذلك.

أدرك والي المزروعى خطورة ما أقدم عليه، فسافر إلى بومباي لطلب دعم حكومة الهند البريطانية، لتكون ممبسة

والمناطق التابعة لها تحت حمايتها، وبالرغم من الاستقبال الحافل الذي حظي به، إلا أن رحلته تلك لم تحقق النجاح الذي كان يأمله (روت، 1983)، وذلك في الواقع راجع إلى أن السياسة البريطانية كانت تولي أهمية خاصة بمنطقة الخليج العربي، أكثر من الساحل الشرقي لأفريقيا، إضافة إلى قصور معلوماتها عن تلك المنطقة، لاسيما ميناء ممبسة، ولا تدرك الأهمية الاستراتيجية لها (ذهني، 1987)، ولا تريد في ذات الوقت إغضاب السيد سعيد، الذي يعتبر من أفضل حلفائها في المنطقة.

عاد الوالي المزروعي إلى ممبسة، وقرر الاعتماد على قواته الداخلية في الدفاع عن بلاده ضد قوات السيد سعيد، فحصل على تحصين جزيرته، واعداد القوات الكافية لمواجهة خصومه، ولم يلبث السيد سعيد إلا زمنا يسيرا، حتى أرسل حملة عسكرية عام 1822م، قوامها أربعة آلاف جندي في ثلاثين سفينة بقيادة حماد بن أحمد البوسعيدي، للاستيلاء على بابة، فاستولى في البداية على ساحل الصومال ثم لامو، ثم تقدم بقواته والتقى مع قوات الحماية المزروعية في بابة، بقيادة مبارك بن أحمد المزروعي، فهزمت قوات السيد سعيد هزيمة قاسية⁽¹⁸⁾. ورغم ما منيت به القوات البوسعيدية من هزيمة إلا أنها لم تغادر المنطقة وأخذت تعيد ترتيب أوضاعها، مستغلة نقص الذخيرة وكثرة القتلى من أفراد الحماية المزروعية في بابة، وجرت بين القائدين البوسعيدي والمزروعي مفاوضات انتهت بانسحاب المزارعة من بابة واستيلاء البوسعيديين عليها (المزروعي، د.ت).

ومن المؤكد أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة، لم يكن الاستيلاء على بابة، إذ لم يلبث حماد البوسعيدي إلا وقتاً يسيراً حتى غادر إلى ممبسة، وفي طريقة إليها زار لامو، فأشار عليه زعمائها بضرورة الاستيلاء على جزيرة ممبسة (روت، 1983)؛ لأنها المصدر الأهم الذي يزود ممبسة بالمؤن، فاستولى عليها القائد البوسعيدي، وحينئذ لم يقف الوالي المزروعي مكتوف الأيدي، بل سارع إلى إرسال حملة عسكرية لاستعادة الجزيرة، إلا أنها مُنيت بالهزيمة، وأصبح حكم ممبسة بأيدي البوسعيديين (ذهني، 1987)، وكان استيلاء البوسعيديين على بابة وممبسة، سبباً لانتصاراتهم في المعارك التالية في ساحل شرق أفريقيا.

ومما يؤكد ذلك ما قاله المؤرخ (المزروعي، د.ت) في تاريخه: "وكان خروج الجزيرة من أيدي المزارعة من أقوى الأسباب التي ساعدت السيد سعيد على انتزاع الملك من أيديهم وظهر صواب ما أشار به أهل لامو على الأمير حماد."

ونتيجة لهذه الهزيمة التي مُني بها المزارعة من قوات السيد سعيد، ازداد الشعور بالخطر لدى الوالي المزروعي، فأرسل رسالة مع مبعوث من قبله إلى حكومة الهند البريطانية في بومباي، ومعه هدية لها؛ من أجل طلب مساعدتها لتكون ممبسة تحت الحماية البريطانية، وأشار الوالي المزروعي في رسالته إلى أن السيد سعيد أضرم الحرب عليهم وإن المزارعة لن يفرطوا ببلادهم له، لكنهم مستعدون للتعاون مع البريطانيين، مقابل الحصول على حمايتهم، لكن حكومة

الهند رفضت مرة أخرى الدخول في النزاع بين الجانبين، لأن هذا الأمر مخالف لسياستها في عدم التدخل في الصراع في منطقة شرق أفريقيا (عمر، 1988).

ويؤكد المزروعي في مخطوطه أن سقوط ممبة أثر في نفس الوالي عبد الله بن أحمد المزروعي؛ فمات حزناً وكان ذلك في مايو 1823م، وخلفه من بعده سليمان بن علي بن عثمان المزروعي (المزروعي، د.ت). وفي تلك الأثناء ضرب السيد سعيد حصاراً على ممبسة، وأخذ يعد العدة لدخولها عنوة، ولهذا لم يجد الوالي المزروعي الجديد بداً من أن يجدد المحاولة لطلب الحماية البريطانية، وذلك بعد مشاورة أعيان المزارعة، فأرسل وفداً إلى جزيرة موريشيوس⁽¹⁹⁾ إلا المسؤولين البريطانيين هناك لم يلبوا طلب الوالي المزروعي، لكنهم وعدوا بإرسال هذا الطلب إلى من بيدهم القرار وفي الوقت نفسه أرسل الوالي المزروعي رسالة أخرى لحكومة الهند البريطانية في بومباي، عرض فيه منح بريطانيا نصف دخل بلاده، مقابل أن يكف السيد سعيد عن تهديد بلادهم، كما أرفق رسالته تلك برسالة أخرى بالطلب نفسه ولكنه بلسان أهل ممبسة (المزروعي، د.ت)، لكن الرد البريطاني على هذه الرسائل لم يكن أحسن حالاً من الردود السابقة.

ويمكن تعليل ذلك بأن المزارعة لم يكونوا يدركون عمق العلاقة بين السيد سعيد، وحكومة الهند البريطانية خاصة بعد أن وقعت بريطانيا معه اتفاقية، مهمة تتضمن مكاسب سياسية واقتصادية لبريطانيا، تحت ذريعة مكافحة تجارة الرقيق، وذلك عام 1822م (حراز، 1971). ومن هنا فهي ليست مستعدة للتضحية بعلاقتها مع السيد سعيد من أجلهم.

4. الحماية البريطانية المؤقتة على ولاية المزارعة

في نوفمبر عام 1823م رست في ميناء ممبسة، سفينة بريطانية يقودها القبطان فيدال (Vedal)، فأرسل سليمان المزروعي ابن أخيه مع وفد من أهالي ممبسة وطلبوا منه أن يضع بلادهم تحت الحماية البريطانية، وبعد أيام من المفاوضات، رفض فيدال طلب المزارعة برفع العلم البريطاني، لكنه وعد بإرسال طلبهم ذلك إلى بومباي، أو جزيرة موريشيوس (أبو ياسين، 1981).

وعلى الرغم من هذا التجاهل الواضح من حكومة الهند البريطانية لمطالب المزارعة، إلا أنها لم تلبث أن حادت عن هذه السياسة، لاسيما بعد أن شعرت أن المزارعة ربما يلجؤون إلى طلب الحماية الفرنسية، إذا ما استمر تجاهل مطالبهم، وفي حال موافقة الفرنسيين على ذلك، فسيكون هذا تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية في المنطقة. ولأجل ذلك رست في ميناء ممبسة إحدى سفن الأسطول البريطاني، التي كانت تعمل في مكافحة تجارة الرقيق في شرق أفريقيا، والتي يقودها الكابتن أوين (Owen)، وذلك في ديسمبر 1823م، فألح عليه أعيان المزارعة بطلب الحماية البريطانية على ممبسة، والمناطق التابعة لها، ولم يلبث أوين إلا قليلاً حتى عمل بما يراه، وأعلن قراره بوضع تلك البلاد تحت الحماية

البريطانية (لوريمر، د. ت)، وذلك بالشروط التالية (ينظر المغيري، 1994):

1. تلتزم بريطانيا بأن تعيد إلى الوالي المزروعي جميع ممتلكاته التي أخذها البوسعيديون، وتشمل بمبة، ولامو، وبانة، والشريط الساحلي حتى نهر بنغاني.
2. أن يظل الوالي المزروعي حاكماً على ممبسة، وأن يكون حكمها وراثياً في أسرته.
3. أن تعين بريطانيا وكيلاً سياسياً من جانبها ليقم في ممبسة.
4. أن تقسم واردات ممبسة الجمركية، مناصفة بين الحكومة البريطانية والمزارعة.
5. أن يسمح للرعايا البريطانيين بالتجارة داخل بلاد المزارعة.
6. أن يوافق المزارعة على إلغاء تجارة الرقيق في بلادهم، ويتعاونوا مع السلطات البريطانية في هذا الجانب.

وبعد توقيع هذه المعاهدة، عين أوين الضابط البحري جون ريتز (John Reittz) وكيلاً سياسياً عن بريطانيا في ممبسة، وجورج فيلبس (George Phillips) قائداً للقوة الإنجليزية في ممبسة (عمر، 1988)، التي أوكل إليها أوين مهمة تتبع تجارة الرقيق ومحاولة القضاء عليها بشكل كامل (حراز، 1971).

وعند استقرار بنود هذه المعاهدة نجد أن أوين حرص أن يضمنها موافقة المزارعة على محاربة تجارة الرقيق؛ إذ كان مكلفاً - كما سبقت الإشارة - بمحاربة تجارة الرقيق في بحار شرق أفريقية، ولعله أراد من ذلك أن تكون هذه المعاهدة على غرار معاهدة عام 1822م مع السيد سعيد؛ لتحقيق أهداف بريطانيا من ورائها، ومن هنا فقد تضمنت هذه المعاهدة بنوداً تضمن لبريطانيا أن توسع نفوذها باسم الحماية ومكافحة تجارة الرقيق، والسيطرة على مقدرات المنطقة. وعمل أوين جاهداً لإقناع مسؤولي حكومة الهند البريطانية بقبول الحماية، وراح يبالغ في أهمية المنطقة من الناحية الاقتصادية والعسكرية، وذكر أن نصيب بريطانيا من واردات جمرك ممبسة سيكون أكثر بكثير من نفقات الحماية، ونجح أوين في إقناع حاكم جزيرة موريشيوس بوجهة نظره، ولذلك بعث هذا الأخير برسالة إلى وزير المستعمرات البريطاني، أوجز فيها الفوائد التي ستعود على بريطانيا من مد حمايتها على ولاية المزارعة في الأمور الآتية (ينظر العقد وقاسم، 1959):

1. القضاء على تجارة الرقيق.
2. إبعاد الخطر الفرنسي عن المنطقة.
3. الربح الذي تحققه بريطانيا من تقاسم دخل الجمارك مع المزارعة، والذي يقدر بـ 12,000 جنيه إسترليني.
4. فتح أسواق جديدة للتجارة البريطانية في المنطقة.

والذي يمكن استنتاجه هنا أن أوين لم يكن يدرك مقدار طموحات السيد سعيد في منطقة ساحل شرق أفريقيا، لأنه كان يعتقد أن تذرعه بمكافحة تجارة الرقيق، سيكون سبباً كافياً في الحد من تطلعاته في المنطقة، وفي ذات الوقت لم يقدر أهمية السيد سعيد بالنسبة لحكومة الهند البريطانية وأن هذه الحكومة مستعدة للتضحية بالمزارعة أو غيرهم في ساحل شرق أفريقيا، مقابل كسب ود هذا السلطان، والمحافظة على المعاهدات التي عقدتها معه، وذلك لعدة أسباب، ومنها:

1. أهمية منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر لبريطانيا.
2. إدراك حكومة الهند البريطانية الأهمية الاقتصادية لمنطقة ساحل شرق أفريقيا بالنسبة للسيد سعيد.
3. الحيلولة دون اتصال السيد سعيد بفرنسا.

وعلى أي حال فلم ينتظر المزارعة موافقة الحكومة البريطانية على هذه المعاهدة، إذ سرعان ما طلبوا من أوين البدء بتنفيذ بنودها، لا سيما فيما يتعلق باسترجاع أملاكهم التي أخذها البوسعيديون، ولذا غادر أوين ممبسة ومعه بعض رجال المزارعة إلى جزيرة موريشيوس في محاولة لكسب التأييد لهذه المعاهدة، وحاول في أثناء طريقه استعادة جزيرة ممبسة ذات الأهمية الاقتصادية لممبسة فهي التي تمولها بالغلل، فرفض واليها من قبل السيد سعيد أن يسلمها لهم، فأثر أوين الانسحاب دون أن يحقق أهدافه، إذ خشي أن يؤثر ذلك على علاقة حكومته بالسيد سعيد إذا أعلن الحرب على والي ممبسة (روت، 1983؛ Coupland, 1965).

والذي يمكن استنتاجه هنا هو أن أوين كان حريصاً على تلبية مطالب المزارعة بتنفيذ كل بنود الاتفاق الذي عقده معهم، وفي الوقت نفسه أخذ يعمل جاداً في إقناع رؤسائه في أن هناك أسباباً سياسية وتجارية عديدة، تحتم على حكومة الهند البريطانية حماية ممبسة، التي يُعتقد أن ميناء هذه الجزيرة من أفضل موانئ العالم لأعمال الدفاع، ولذا فمن المهم الموافقة البريطانية الرسمية على هذا الاتفاق، الذي من شأنه أن يمنع وقوع المنطقة تحت سيطرة الفرنسيين، الذين يمثلون خطراً يهدد المصالح البريطانية في منطقة الساحل الشرقي لأفريقيا.

5. موقف السيد سعيد من الحماية البريطانية المؤقتة

من المؤكد أن إعلان الحماية البريطانية على ممبسة، وعلى غيرها من مقاطعات شرق أفريقيا؛ سيؤدي حتماً إلى غضب البوسعيديين، الذي يعتبرون ذلك انتهاكاً لسيادتهم على هذه المناطق. ولذا بعث السيد سعيد برسائل متتابعة إلى حكومة الهند، ذكر فيها أن أوين ساعد المزارعة حينما وقف بأسطوله حائلاً دون وصول القوات العمانية للقضاء على حركة المزارعة الاستقلالية (قاسم، د.ت)، وأكد السيد سعيد أن ممبسة تابعة لعمان، وأنه على الرغم من تصرفات المزارعة إلا أن واليها كان يستلم وظيفته من مسقط (أبو ياسين، 1981)، وأشار إلى أن أعيان عمان اجتمعوا معه وطلبوا منه التنصل من التزاماته مع بريطانيا وترك محالفتها، والبحث عن حليف آخر قوي، مثل الدولة العثمانية، وذلك

إذا ما نُفذت المعاهدة التي أبرمت بين أوين والمزارعة، وأنه (أي، السيد سعيد) رفض ربط مصير بلاده بمصير الدولة العثمانية (Zomarsh, 1961).

والواقع أن السيد سعيد كان حريصاً وحذراً في رسائله تلك، فعمل بما تقتضيه الحنكة السياسية، فهو تارة يشير إلى أن أعيان عمان لا يوافقون على التقارب الانجليزي المزروعي، ويهدد تارة أخرى بالاستعانة بحليف قوي معاد لبريطانيا، لحمايته في حالة انحلال التحالف القائم بين بريطانيا وعمان، وفي الوقت نفسه يؤكد أنه شخصياً حريص على استمرار الصداقة والتحالف مع بريطانيا.

ومهما يكن الأمر فقد اعتبر السيد سعيد أن ما قام به أوين خرقاً للسيادة العمانية على مناطق تابعة له، ولذا بعث باحتجاج شديد لحكومة الهند البريطانية في بومباي، أشار فيه إلى أن أوين منع سيطرة القوات العمانية على ممبسة، وأنه وقف في صف من وصفهم بالثوار (Coupland, 1965)، وجاء الرد البريطاني أن ما قام به أوين كان تصرفاً شخصياً مثير للدهشة، وأنها لن تسمح بأن يُعَبّن السيد سعيد بصفته صديق لها (قاسم، 1968).

إلا أن السيد سعيد لم يقتنع بهذا الرد بل بعث برسالة ثانية إلى حاكم بومباي طالباً منه أن يرفعها إلى ملك بريطانيا، أوضح فيها الوضع في ممبسة منذ سقوطها بأيدي البرتغاليين حتى ذلك الوقت (Coupland, 1965).

أكدت بريطانيا للسيد سعيد بأنها ستعمل على سحب تلك الحماية، وذلك خلال لقائه مع المقيم البريطاني في الخليج العربي الكولونيل ستنزر (Stanners) في ديسمبر عام 1825م، بعد أن شكاه من تصرف أوين (Coupland, 1965). وأن ذلك يعد انتهاكاً واضحاً للصداقة القائمة بينه وبين بريطانيا، والذي يظهر أن ستنزر كان مقتنعاً بما ذكره السيد سعيد، ولذا كتب رسالة إلى حكومة الهند يقترح فيها الاعتذار عما حدث، والاشارة أن ما قام به أوين في ممبسة لم يكن بناء على تعليمات صادرة من الحكومة البريطانية (حراز، 1971؛ قاسم، د.ت).

ومهما يكن من أمر فقد أصدرت الحكومة البريطانية قرارها بالانسحاب من ممبسة، وأمر أوين بسحب الحماية البريطانية الصغيرة من هناك، وذلك في عام 1826م، بعد أن ظلت الحماية البريطانية في ممبسة، والمقاطعات التابعة لها سنتين وبضعة أشهر (المغيري، 1994؛ Coupland, 1965). وقد برر البعض (أبو ياسين، 1981) القرار البريطاني بأن بقاء الحماية البريطانية في ممبسة، سيكون ذريعة مناسبة لفرنسا للقيام بعمل مضاد، في أي مكان آخر من المحيط الهندي، إضافة إلى أنه تبين لبريطانيا أن المزارعة لم تكن حاجتهم الماسة هي الحصول على الحماية البريطانية، لذا، وإنما كان همهم الأول الحصول على الحماية خوفاً من السيد سعيد، الذي يهددهم بين الفنية والأخرى، وعلى أي حال فقد أحيط السيد سعيد علماً برفع الحماية البريطانية عن ممبسة، والمناطق التابعة لها في أكتوبر عام 1826م. وفي هذه الأثناء عُزل سليمان بن علي المزروعي من ولايته على يد أبناء أخيه أحمد بن عثمان، ويعمل الأمين المزروعي في مخطوطه سبب ذلك هو ميله الشديد للسلام، وتهاونه في سبيل الوصول إليه، حتى خشي أبناء أخيه أحمد

أن يستسلم للعدو إذا بقي والياً عليهم (المزروعي، د.ت). بينما يشير آخرون أن سبب العزل هو الأنباء السيئة الواردة من بومباي، حول سحب الحماية البريطانية من ممبسة (روت، 1983). ومهما يكن الأمر، فقد اتفق أبناء أحمد بن محمد المزروعي على تعيين أخيههم سالماً والياً عليهم خلفاً لعمه سليمان، وذلك بعد مشاورة شيوخ وأعيان الجزيرة. (المزروعي، د.ت).

والواقع أن موقف المزارعة أصبح حرجاً بعد رفع الحماية عنهم، وحاولوا استعادتها من جديد، حيث بعث سالم المزروعي برسالة إلى الملك جورج الرابع ملك بريطانيا، يطلب فيه عودة الحماية البريطانية على بلاده، لكنه لم يجد استجابة لطلبه هذا، بذريعة أنه لا يوجد سبب مقنع لقبوله، لأن منح المزارعة الحماية البريطانية سيؤدي إلى العداء بين بريطانيا وبين الشعوب التي جمعت بينها وبينهم المحبة والإخلاص (العقاد؛ وقاسم، 1959) على حد قوله.

وفي الوقت نفسه الذي تخلت فيه حكومة الهند البريطانية عن جزيرة ممبسة لصالح السيد سعيد، فإنها من جانب آخر خشيت أن يلجأ المزارعة إلى طلب الحماية من فرنسا، ومن أجل الحيلولة دون ذلك أرسل المقيم البريطاني في الخليج العربي رسالة إلى السيد سعيد أعرب فيها عن قلق حكومته من هذا الأمر، وإنها ترجوه أن يعمل من جهته على منع المزارعة من الاتصال بفرنسا (العقاد؛ وقاسم، 1959). وهذا ما اعتبره السيد سعيد اعترافاً بريطانياً ضمنياً بحقوقه في شرق أفريقيا.

6. محاولات السيد سعيد الاستيلاء على ممبسة

انتهر السيد سعيد هذه الظروف فشرع مباشرة في إعداد حملة عسكرية للهجوم عليها تكونت هذه الحملة من تسع سفن⁽²⁰⁾ محملة بالرجال والعتاد، وتولى قيادتها بنفسه، ووصل إلى ممبسة في مطلع عام 1828م، ثم بادراً بإرسال رسالة إلى الوالي المزروعي سالم بن أحمد يطلب منه الاستسلام، إلا أن سالماً بعد أن استشار شيوخ وأعيان ممبسة رد عليه بأنه لن يستسلم، وأنه مستعد للحرب. (المزروعي، د.ت) ولم تلبث قوات السيد سعيد أن حاولت النزول في ممبسة إلا أن قوات المزارعة تصدت لها، الأمر الذي جعل الجانبين يجنحان إلى المفاوضات، فبعث سالم المزروعي رسالة إلى السيد سعيد، أشار فيها إلى استعداده للاعتراف بالسيادة العمانية، ودفع الضرائب المفروضة عليه، لكنه في الوقت نفسه ليس مستعداً للتخلي عن الدفاع عن ولايته (Coupland, 1965). وهذا يعني منح السيد سعيد حكماً اسمياً على ممبسة والمناطق التابعة لها. وعلى أي حال فقد دار مفاوضات بين الجانبين تمخضت عن اتفاقية صلح بينهما بالشروط الآتية (ينظر المغيري، 1994؛ Oliver & Mathew, 1963؛ Groy, 1962):

1. تسليم قلعة ممبسة للسيد سعيد وله أن يترك فيها حامية مؤلفة من خمسين جندياً، على أن يكونوا من قبيلة بينها وبين المزارعة وفاق.

2. أن تكون القلعة مقرأً للوالي وعائلته، كما كان ذلك سابقاً.

3. اعتراف المزارعة بسلطة السيد سعيد على ممتلكاتهم في شرق أفريقيا، مقابل اعترافه بالحكم الوراثي لأسرة المزروعي في ممبسة.

4. تقسيم العشور (الجمارك) بين الجانبين على حد سواء، وللوالي المزروعي أن يختار من يشاء في إدارة الجمارك.

إلا أنه في الواقع فإن السيد سعيد لم يلتزم ببند هذه المعاهدة فقد زاد عدد الرجال الذين أبقاهم في القلعة كما أنه حرض والي بمبة المدعو ناصر بن سليمان ضد المزارعة، وأضطر الوالي المزروعي سالم بن أحمد إلى الخروج من القلعة، ولذا عين السيد سعيد والي بمبة سليمان بن محمد واليا على ممبسة (المزروعي، د.ت).

رفض المزارعة هذا الأمر واعتبروه نقضا واضحا لبند الصلح، وسرعان ما ثار زعماء المزارعة وأعيان ممبسة وأهلها، وضربوا الحصار على جنود السيد سعيد داخل حصن ممبسة، حتى اضطروهم إلى الاستسلام في إبريل 1829م (ابو ياسين، 1981؛ حراز، 1968) وألقى الوالي المزروعي سالم بن أحمد القبض على والي بمبة الذي كان يتولى المقاومة، وعادت ممبسة لحكم المزارعة من جديد. وفي ذلك قال الشاعر محي الدين القحطاني الذي عايش هذه الأحداث (المغيري، 1994):

مُبَاسَةً بَيْنَ الْكَرَامِ الْفُضَّلِ
شَمْسُ الْمُلُوكِ وَمِنْ صَمِيمِ الْكُمَلِ
مِنْ نَسْلِ سُلْطَانِ الْكَرِيمِ الْأُبْطَلِ

وَسَأْنِيئَتُكَ مَا جَرَى فِي أَرْضِنَا
لَمَّا أَتَاهَا بِالْهُدَى خَيْرُ النُّهَى
أَعْنِي بِمَوْلَانَا سَعِيدٍ سَيِّدِ

ويشير إلى الوالي العماني على بمبة بقوله:

وَقَلِيلُ صَبْرٍ لَا يَنَالُ بِمَأْمَلِ
يَا قِلَّةَ الصَّبْرِ الْخَفِيفِ الْمَعْقِلِ
فَقَعَّ الرَّعْدُ الْقَاصِفَاتِ الْهُوْلِ
قَتَلَ الْعِبَادَ بَغَيْرِ مُوجِبِ مُقْتَلِ
كَالصَافِنَاتِ الْمَوْرِيَّاتِ الصُّهُلِ.

كَرِهْتَهُ أَصْحَابُ الْبِلَادِ جَمِيعُهُمْ
وَأَثَارَ نَارِ فَتْنَةٍ مَحْمُودَةٍ
فَإِذَا الْمَدَافِعُ وَالْبِنَادِقُ تَقَعَّقَعُ
حَرَقَ الْبِلَادَ بِنَارِهَا مَشْهُوبَةً
فَتَشَمَّرُوا أَوْلَادَ أَحْمَدَ لِلْوَعَى

ولما وصلت هذه الأنباء إلى السيد سعيد، جهز حملة جديدة للاستيلاء على ممبسة، والقضاء على النزعة الاستقلالية لدى المزارعة، وصلت الحملة التي قادها السيد سعيد بنفسه إلى مقصدها، في أول صيف عام 1829م، ودارت رحى المعركة بين الجانبين، وحلّت الهزيمة بجيش السيد سعيد، بعد أن انتصر في بداية المعركة، ولما رأى السيد سعيد ما حلّ بجيشه غادر بأسطوله إلى زنجبار (المغيري، 1994) بينما يشير أحد الباحثين (قاسم، 1968) إلى أن السيد سعيد رجع إلى مسقط لمواجهة التهديدات السعودية (21).

ومهما يكن الأمر، فإن انتصار المزارعة هذا، دفعهم لمحاولة استعادة بمبة، وذلك في عام 1832م حينما أرسلوا جيشاً بقيادة عبد الله بن مبارك بن أحمد المزروعى، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك (المزروعى، د.ت؛ المغيرى، 1994). حاول السيد سعيد بعد ذلك الحصول على مساعدة طرف ثالث في صراعه مع المزارعة، فاتجه للاستعانة بالولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت ترغب في إقامة صلات تجارية مع السلطنة العمانية، وخلال مفاوضاتهم وافق السيد سعيد على منح الأمريكيين كل ما يريدونه من امتيازات، والسماح لهم بتأسيس المراكز التجارية في زنجبار، أو في أي مكان من بلاده، مقابل أن يساعده في الاستيلاء على ممبسة، إلا أن الأمريكيين لم يرو أن من مصلحتهم الدخول في مغامرات عسكرية في هذه المنطقة (لوريمر، د.ت؛ قاسم، 1968)، بل أنهم يرغبون في توثيق الصلات التجارية مع عمان، لاسيما في الشطر الأفريقي من السلطنة، ولذا وقع الأمريكيون اتفاقية تجارية مع السيد سعيد في فترة لاحقة.

7. نهاية ولاية المزارعة

توفي الوالي المزروعى سالم بن أحمد عام 1835م، فنشبت صراعات عديدة بين المزارعة، للوصول إلى السلطة، واستمر النزاع على أشده حتى نهاية عام 1836م، حينما تمكن راشد بن سالم المزروعى من الوصول إلى السلطة وتثبيت حكمه. وأشار (روت، 1983؛ كيركمان، 1980) إلى أن أهالي ممبسة من غير المزارعة، ضاقوا ذرعاً بهذه الخلافات، التي امتد أثرها إلى المناطق التابعة لها في الساحل الشرقي لأفريقيا، فذهب وفد منهم إلى السيد سعيد وطلبوا منه التدخل لوضع حد لتلك المنازعات، وأن يخلصهم من حكم المزارعة، ولم يكن هناك شيء أحب إلى السلطان العماني من هذا الطلب.

وانتهز السيد سعيد هذه الفرصة فأعد حملة عسكرية لهذا الغرض ولم يلبث أن سار إلى ممبسة، فوصلها بعد أيام من تولي راشد بن سليمان الحكم في الجزيرة، في مستهل عام 1837م، وتمكن من إنزال قواته في المدينة والاستيلاء على قلعتها، وساعدته في ذلك الأوضاع السيئة في داخل ممبسة، نتيجة للنزاع بين المزارعة، ولذلك اضطر الوالي المزروعى إلى طلب الصلح من السيد سعيد⁽²²⁾ بنفس الشروط التي أتفق عليها في معاهدته معهم عام 1828م إلا أن السيد سعيد الذي يزهو بنشوة الانتصار لم يوافق على ذلك بل بسط نفوذه على المدينة. (روت، 1983؛ Coupland, 1965).

وبعد شهرين من استيلاء السيد سعيد على ممبسة والقضاء حكم ولاية المزارعة في شرق أفريقيا عزم على التخلص النهائي من هذه الأسرة التي ناصبته العدا، وحالت دون تنفيذ مشاريعه في المنطقة، فأرسل ابنه خالد إلى ممبسة فقام بالاحتياط على أعيان المزارعة فأدخلهم أحد الحصون ثم قبض عليهم جميعاً وكانوا نحو خمس وعشرين رجلاً، ثم نقلهم إلى زنجبار، ومنها إلى بندر عباس حيث تم سجنهم هناك. أما البقية الباقية من المزارعة في ممبسة فقد تفرقوا في شرق

أفريقيا، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك (المعمري، 1971؛ الفارسي 1994).

وبعد نهاية حكم المزارعة في ممبسة خضعت منطقة الساحل الشرقي لأفريقيا لنفوذ السيد سعيد، عدا بعض المناطق الصغيرة في باتة مثل سيو⁽²³⁾، إلا أن هذا الخضوع كان بدرجة متفاوتة، وكان نفوذه الأقوى في المناطق التي كانت خاضعة للمزارعة (لوريمر، د.ت؛ قاسم، 1968). واستفاد السيد سعيد من هذه المنطقة بمواردها الاقتصادية أكثر من استفادته من عمان.

وطوال عهد السيد سعيد، لم نر أي محاولات تذكر للمزارعة لاستعادة ولايتهم في شرق أفريقيا، ولا تمدنا المصادر التاريخية التي بين أيدينا بشيء من ذلك.

8. الخاتمة

بينت هذه الدراسة أن الساحل الشرقي لأفريقيا كان مجالاً رحباً للتنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا، وهذا ما جعل القوى المحلية تعمل على الاستفادة من هذا التنافس كل فيما يحقق مصالحه. أوضحت هذه الدراسة أن القبائل العربية التي استقرت في الساحل الشرقي لأفريقيا عملت بجد على تحقيق طموحاتها في تأسيس إمارات خاصة بها ذات حكم مستقل، وأسرة المزارعة مثال واضح على ذلك.

وكشفت هذه الدراسة أن ولاية المزارعة لم تكن لديهم الخبرة السياسية الكافية؛ لتحقيق ما يصبون إليه وذلك حينما حاولوا استمالة بريطانيا تجاههم، رغم أنها ارتبطت مع الدولة البوسعيدية بمعاهدات مختلفة منذ فترة مبكرة. وأكدت أن المزارعة لم يقدروا العلاقة الوثيقة بين السيد سعيد وبريطانيا، ولذا عملوا على مقاومته والعمل في الوقت نفسه على طلب الحماية البريطانية إلا أنهم لم يظفروا بها.

تبين أن الخلاف الأسري بين زعماء المزارعة حول السلطة كان عاملاً حاسماً في نهاية ولايتهم في شرق أفريقيا. واتضح أن الإرث الحضاري الذي نتج عن حكم المزارعة في ممبسة وأجزاء من الساحل الشرقي أفريقيا كان محدوداً جداً نتيجة لعدم الاستقرار السياسي خلال مدة ولايتهم.

وكشفت هذه الدراسة أن المزارعة لم يحاولوا إقامة علاقات مع فرنسا، وهي التي كانت تنافس بريطانيا في تلك المنطقة، بعد فشل مساعيهم مع حكومة الهند البريطانية.

وتوصي هذه الدراسة القيام بالمزيد من الدراسات الأكاديمية عن الساحل الشرقي لأفريقيا ومدى عمق التأثير الحضاري العربي والإسلامي في تلك المنطقة.

الهوامش:

- (1) المزارعة: قبيلة من قبائل بني ياس القحطانية، والتي لا تزال تسكن ساحل عمان على الخليج العربي، وقد انتقل جزء من هذه الأسرة إلى شرق أفريقيا، وحكمت جزيرة ممبسة وبعض الجزر المجاورة في منطقة الساحل قريبا من مائة عام. (المزروعي، د.ت؛ العقاد؛ وقاسم، 1959).
- (2) يراد هنا بشرق افريقية هي المنطقة الممتدة بين رأس غردفوي (Gordafui) على خط عرض (11.50) شمالاً إلى رأس دلجادو (Delgado) على خط عرض 10 جنوباً، وقد أطلق عليه الجغرافيون المسلمون (ساحل الزنج)، و (شط بحر الهند)، وعُرف أيضاً باسم (زنجبار Zanzibar)، وهي كلمة فارسية تعني ساحل الزنج، ويشمل هذا الساحل في التاريخ المعاصر ساحل الصومال على المحيط الهندي وكلاً من جمهوريتي كينيا وتنزانيا (الإدريسي، 1989؛ النقيرة، 1982).
- (3) ولد سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد البوسعيدي في عام 1791م في بلدة سمايل التي تبعد عن مسقط حوالي خمسين ميلاً، وتصفه المصادر العمانية بأنه كان طويل القامة نحيل القوام، ذا شخصية جذابة مؤثرة في الناس، وصاحب ذكاء وبشاشة، كون دولة عربية كبيرة ذات شطرين، آسيوي وأفريقي، توفي في عام 1856م، يقول عنه أحد المؤرخين الأجانب: إنه الأول في الحرب والأول في السلم، والأول في نيل محبة الآخرين، فهو الحاكم الذي تفتخر به أي دولة في العالم. (ابن رزق، 1988، العيدروس، 1988؛ Ingrams 1967)
- (4) ممبسة: جزيرة صغيرة تقع على مسافة مائة ميل إلى الشمال من جزيرة زنجبار يطلق عليها العرب القدماء بساسة، وهي كنية مكة، لأن مؤسسيها قدموا من الحجاز، وكانت ذات تاريخ حافل بالأحداث في شرق أفريقيا، ويربطها جسر طويل بالساحل الكيني، وتعتبر من الموانئ المهمة لجمهورية كينيا حالياً (العقاد، 1982).
- (5) اليعاربة: ينتمون إلى الأزرد من قبيلة قحطان، وقد بدأ حكم هذه الأسرة حينما ضعفت أسرة بني نيهان؛ فاختار العمانيون ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربي حاكماً عليهم في عام 1624، فاستطاع انتزاع بلداناً كثيرة من أيدي البرتغاليين بل إنه أجبرهم على دفع الجزية في بعض السنوات (ابن رزق، 1994؛ الأركوي، 1986؛ السيار، 1975).
- (6) ينتمي البوسعيديون إلى الأزرد من قحطان، وقد بدأ حكم هذه الأسرة لعمان بعد أن عانى العمانيون من الاضطرابات في أعقاب وفاة سيف بن سلطان آخر سلاطين اليعاربة الأقوياء، فانتخبوا أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيدي إماماً لهم عام 1744م وهو أول سلطان من عائلة البوسعيد، ولذا فهو يعتبر مؤسس هذه الأسرة (ابن رزق، 1994؛ المعمر، 1971).
- (7) إلا أن المغربي أخطأ في تاريخ مقتله وذكر أنه في عام 1744م، وكان قبلها قد أشار إلى على أن ولايته بدأت عام 1750م.
- (8) يذكر أن هذا التاجر استخدم مدفعاً من سفينته في ضرب قلعة ممبسة (المزروعي، د.ت).
- (9) بمبة: إحدى الجزر الصغيرة تقع إلى الجنوب الغربي من ممبسة، في الساحل الشرقي لأفريقيا وتسمى الجزيرة الخضراء، مساحتها 380 ميلاً مربعاً، أرضها خصبة، من أهم منتجاتها القرنفل والنارجيل، وهي الآن مقابل ساحل دولتي كينيا وتنزانيا. (المغربي، 1994).
- (10) مثل: مقديشوا، وبراو، ولامو وبقية المدن الواقعة جنوبها، إلا أن بعضاً من هذه المدن والموانئ تحت سيطرة البوسعديين، مثل كلوة، وزنجبار. (روت، 1983).
- (11) زنجبار: تقع إلى الجنوب من ممبسة، وتعتبر ثاني أكبر الجزر على ساحل شرق أفريقية بعد جزيرة مدغشقر، وتقدر مساحتها 645 ميلاً مربعاً، وتبعد عن الساحل 25 ميلاً تقريباً، ويبلغ طولها من أوسع نقطة فيها 524 ميلاً، وعرضها من أوسع نقطة فيها 24 ميلاً، وتشتهر بخصوبة أراضيها كما أنها من أهم مناطق إنتاج القرنفل في العالم، وقد انتهى الوجود العربي فيها عام 1964م، وتبع الآن جمهورية تنزانيا. (المغربي، 1994؛ غلاب وآخرون، 1979).

- (12) يشير بعض المؤرخين إلى أن علي المزروعى قتل علي يد قريب له بدعي سعود بن ناصر، الذي كان يقود جيش المزارعة خلال هجومه على زنجبار؛ لطمعه في الاستقلال في حكم الجزيرة بعد الاستيلاء عليها (قاسم، 1968).
- (13) بآة: تنطق أيضاً بآا هي إحدى الجزر المقابلة لساحل شرق أفريقية، وتقع شمال ممسة ويتبعها بعض القرى مثل فازا، وسيو، ويعتبر النبهانيون أول من حكمها من العرب، وتتبع حالياً جمهورية كينيا (المغيري، 1994).
- (14) النبهانيون: أسرة عربية الأصل حكمت عمان وأجزاء من شرق أفريقيا فترة طويلة، ولا يعلم على وجه الدقة تاريخ توليهم الحكم، ويُذكر أن حكمهم استمر خمسمائة عام، وقد خاضوا صراعات مريّة مع الأبازيين، إلا أنهم ظلوا يسيطرون على بعض أجزاء عمان وشرق أفريقيا حتى قيام دولة اليعاربة عام 1624م (الأزكوي، 1986؛ السالمي، 1960).
- (15) لامو: إحدى الجزر الصغيرة المقابلة للساحل إلى الشمال الشرقي من ممسة وهي جزء من أرخبيل يسمى باسمها، وتتبع حالياً جمهورية كينيا (زكي، 1970).
- (16) وصل سعيد بن سلطان إلى الحكم في عمان بعد نزاعه مع بدر بن سيف بسبب سياسته المسالمة مع السعوديين، فقام سعيد بن سلطان بالقضاء على بدر بن سيف بمساعدة من بعض زعماء القبائل الهناوية في عمان، وأعلن تنصيب نفسه سلطاناً لعمان عام 1806م (ابن رزق، 1994؛ ابن بشر، 1971؛ ابن سلطان، د.ت).
- (17) كَلَوَة: إحدى مدن ساحل شرق أفريقية تقع إلى الجنوب من مافيا، أسسها جماعة من أهل شيراز، وتنقسم إلى قسمين: كلوة كفنجه، وكلوة كسواني، كانت مسرحاً لأحداث مهمة في ساحل شرق أفريقيا منذ القرن الحادي عشر، حتى قدوم المستعمرين البرتغاليين (المغيري، 1994؛ زكي، 1970).
- (18) ذكر أحد الباحثين أن الجانبين لم يلتقيا في معركة حاسمة بل أن قوات السيد سعيد حاضرت بآة ومنعت عنها المؤن، حتى اضطر قائد الحامية المزروعية إلى الانسحاب منها (أبو ياسين، 1981).
- (19) موريشيوس: هي إحدى الجزر المهمة في المحيط الهندي، وتقدر مساحتها بـ(72 ميلاً) وأغلب سكانها من الهنود، ونقل إليها بعض الزوج من أفريقيا، ويوجد فيها بعض الصينيين وتشتهر بزراعة قصب السكر، وتسمى أيضاً جزيرة فرنسا (غلاب، وآخرون، د.ت).
- (20) ذكر أحد المؤرخين بأن حملة السيد سعيد مكونه من 10 او 11 سفينة وأنها تحمل 1200 مقاتل (حراز، 1960).
- (21) الواقع أنه لم تكن هناك تهديدات سعودية لعمان في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدول السعودية الثانية، ذلك أن الإمام تركي بن عبد الله مؤسس الدولة السعودية الثانية لا يزال في المراحل الأولى من تكوين الدولة. وبهذا يتبين خطأ من قال بهذا الرأي.
- (22) اختلفت المصادر حول هذا الصلح، فيرى (مايلز، 1994؛ وروت، 1983) أنه تم بين الجانبين على أن يتنازل الوالي المزروعى عن قلعة المدينة إلى علي بن منصور ويصحبه فيها (500) جندي من جنود السلطان سعيد، بينما ذكر (Bennett, 1978) أن هذا الصلح كان ماثلاً للصلح السابق الذي تم بين الجانبين.
- (23) سيو: إحدى المدن الواقعة في جزيرة بآة، لها مجلس مكون من عدد من الشيوخ لتصريف شؤونها، ولم تكن خاضعة لوالي بآة، حاربها السلطان سعيد أكثر من مرة، لكنه لم يستطع عليها (الفارسي، 1994؛ ترمجهم، 1973).

مراجع البحث

- أبو ياسين، سمير محمد. (1989). *العلاقات العمانية البريطانية (د. ط.)*. مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة.
- الإدريسي، محمد بن محمد (1989). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (ط1)*. دار عالم الكتب. بيروت.
- الأزكوي، سرحان بن سعيد. (1986). *تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة (ط2)*. (عبد المجيد

- القيسي، تحقيق.). وزارة التراث القومي في سلطنة عمان. مسقط.
- بن بشر، عثمان بن عبد الله. (1971). *عنوان المجد في تاريخ نجد* (ط2). (عبد الرحمن بن عبد الله آل الشيخ، تحقيق.). نشر وزارة المعارف، الرياض.
- ترمنجهام، سبنسر. (1973). *الإسلام في شرق أفريقيا* (ط1). (محمد عاطف النواوي، ترجمة.). مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- جيان، مسيو. (1927). *وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية* (ط1). (يوسف كمال، ترجمة.). الناشر غير معروف، القاهرة.
- حراز، السيد رجب. (1960). *التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا*. جامعة القاهرة، القاهرة.
- حراز، السيد رجب. (1968). *إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي*. دار النهضة العربية، القاهرة.
- حراز، السيد رجب. (1971). *بريطانيا وشرق أفريقيا من الاستعمار إلى الاستقلال*. المطبعة العالمية، القاهرة.
- الخصوصي، بدر الدين. (1984). *دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر* (ط2). دار السلاسل، الكويت.
- ذهني، إلهام. (1987). *سياسة فرنسا التوسعية في شرق أفريقيا في النصف الثاني من القرن 19*. دار الكتاب الجامعي، القاهرة.
- بن رزيق، حميد بن محمد، (1994). *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين* (ط4) (عبد المنعم عامر، ومحمد مرسي عبد الله، تحقيق.). وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، مسقط.
- روت، رودلف سعيد. (1983). *سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد سلطان 1791-1856* (ط1) (عبد المجيد حسيب القيسي ترجمة.). مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، البصرة.
- زكي، عبد الرحمن. (1979). *الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا*. مطبعة يوسف، القاهرة.
- السالمي، نور الدين عبد الله بن محمد. (1960). *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان*. مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط.
- بن سلطان، سائلة بنت السيد سعيد. (د.ت). *مذكرات أميرة عربية* (عبد المجيد حسيب القيسي ترجمة.). وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، مسقط. (العمل الأصلي نشر 1886)
- السيار، عائشة. (1975). *دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا 1644-1741* (ط1). دار القدس، بيروت.
- الطائي، سني عبد الجبار. (1995). *صلوات عمان بشرق أفريقيا في العصور الحديثة*. في وزارة الإعلام في سلطنة عمان (محرر.). *بحوث ندوة عمان في التاريخ* (ص ص 422-484). دار اميل للنشر المحدودة.
- العقاد، أنور. (1982). *الوجيز في اقليمية القارة الأفريقية* (ط1). دار المريخ، الرياض.

العقاد، صلاح.. وقاسم، جمال. (1959) زنجبار. دار الطباعة الحديثة، القاهرة.
 عمر، سعدية محمد. (1988). عمان والنفوذ البريطاني في عهد السيد سعيد بن سلطان 1220-1806/1273-1856.
 (رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات)، جدة، المملكة العربية السعودية.
 العيدروس، محمد حسن. (1988). السلطان سعيد والعلاقات العربية الأفريقية. مجلة المؤرخ العربي، (37)، 19-34.

غلاب، محمد السيد.. صالح، حسن عبد القادر.. شاكر، محمود.. عثمان، محمد فتحي. (1979). البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض.
 غلاب، محمد السيد.. الدناصوري، جمال الدين.. صادق، دولت أحمد. (د. ت). جغرافية العالم دراسة إقليمية أفريقية وأستراليا. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.
 الفارسي، عبد الله بن صالح. (1994). البوسعيديون حكام زنجبار (ط3) (محمد أمين عبد الله، ترجمة). وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان. مسقط.

قاسم، جمال زكريا. (1959). دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا. مكتبة القاهرة الحديثة. القاهرة.
 لوريمر، ج. ج. (د. ت) دليل الخليج. القسم التاريخي (مكتب أمير قطر، ترجمة ونشر)، الدوحة. (العمل الأصلي نشر 1914)

مايلز، س. ب. (1994). الخليج بلدانه وقبائله (ط4) (محمد أمين عبد الله، ترجمة). وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، مسقط. (العمل الأصلي نشر 1919)
 المزروعى، الأمين بن علي. (ت. 1366هـ، ط. 1947). تاريخ ولاية المزارعة في أفريقية الشرقية [بحث غير منشور].
 مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة، رقم (2904).
 المعمرى، أحمد حمود. (1971). عمان وشرق أفريقية (محمد أمين عبد الله، ترجمة). وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، مسقط. (العمل الأصلي نشر 1979)
 المغيرة، سعيد بن علي. (1994). جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار (ط3) (محمد بن علي الصليبي، تحقيق). وزارة التراث القومي في سلطنة عمان، مسقط.

النقيرة، محمد عبد الله. (1982). انتشار الإسلام في شرق أفريقية ومناهضة الغرب له. دار المريخ، الرياض.

Al-'Aydarūs, Muḥammad Ḥasan. (1988). *al-Sultān Sa 'īd wa-al-'alāqāt al-'Arabīyah al-Afrīqīyah*. Majallat al-Mu'arrikh al-'Arabī, (37), 19-34.
 Abū Yāsīn, Samīr Muḥammad. (1989). *al-'Alāqāt al-'Umānīyah al-Barīṭānīyah*, D. T. Markaz Dirāsāt al-Khalīj al-'Arabī fī Jāmi'at al-Baṣrah.
 Al-'Aqqād, Anwar. (1982). *al-Wajīz fī iqlīmīyah al-qārrah al-Afrīqīyah*. T1. Dār al-Mirrīkh, al-

- Riyād.
- Al-‘Aqqād, Ṣalāh. wa. Qāsim, Jamāl. (1959) *Zanjabār*, D. Ṭ, Dār al-Ṭibā‘ah al-ḥadīthah. al-Qāhirah.
- Al-Fārisī, ‘Abd Allāh ibn Ṣāliḥ. (1994). *al-Būsa ‘idīyūn ḥukkām Zanjabār* (Muḥammad Amīn ‘Abd Allāh, tarjamat.). ʔ3. Wizārat al-Turāth al-Qawmī wa-al-Thaqāfah fī Salṭanat ‘Ammān. Masqat.
- Al-Idrīsī, Muḥammad ibn Muḥammad (1989). *Nuzhat al-mushtāq fī ikhtirāq al-Āfāq*. Ṭ1. Dār ‘Ālam al-Kutub. Bayrūt.
- Al-Khuṣūṣī, Badr al-Dīn. (1984). *Dirāsāt fī Tārīkh al-Khalīj al-‘Arabī al-ḥadīth wa-al-mu‘āṣir*, ʔ2, Dār al-Salāsīl. al-Kuwayt.
- Al-Mazrū‘ī, al-Amīn ibn ‘Alī. (t1366h, 1947m, makhtūt.) *Tārīkh Wilāyat al-muzāra‘ah fī Afrīqīyah al-Sharqīyah*. Maktabat Jāmi‘at al-Malik ‘Abd al-‘Azīz bi-Jiddah, raqm (2904).
- Al-Mu‘ammarī, Aḥmad Ḥammūd. (1971). *‘Ammān wa-sharq Afrīqīyah* (Muḥammad Amīn ‘Abd allāh, tarjamat.). D. Ṭ., Wizārat al-Turāth al-Qawmī wa-al-Thaqāfah fī Salṭanat ‘Ammān. Masqat. (al-‘amal al-aṣlī Nashr 1979).
- Al-Mughīrī, Sa‘īd ibn ‘Alī. (1994). *Juhaynah al-akhbār fī Tārīkh Zanjabār* (Muḥammad ibn ‘Alī al-Ṣalībī, taḥqīq.). Ṭ. 3. Wizārat al-Turāth al-Qawmī fī Salṭanat ‘Ammān. Masqat.
- Alnqyrh, Muḥammad ‘Abd Allāh. (1982). *intishār al-Islām fī Sharq Afrīqīyah wa-Munāḥadat al-Gharb la-hu*. D. Ṭ, Dār al-Mirrikh. al-Riyād.
- Al-Sālimī, Nūr al-Dīn ‘Abd allāh ibn Muḥammad. (1960). *Tuḥfat al-a‘yān bi-sīrat ahl ‘Ammān*. D. Ṭ, Maktabat al-Imām Nūr al-Dīn al-Sālimī. Masqat.
- Al-Sayyār, ‘Ā‘ishah. (1975). *Dawlat al-Ya‘āribah fī ‘Ammān wa-sharq Afrīqiyā 1644-1741*. Ṭ1. Dār al-Quds. Bayrūt.
- Al-Ṭā‘ī, snā ‘Abd al-Jabbār. (1995). *ṣilāt ‘Ammān bi-Sharq Afrīqiyā fī al-‘uṣūr al-ḥadīthah*. Wizārat al- I‘lām fī Salṭanat ‘Ammān (muḥarrir.) Buḥūth Nadwat ‘Ammān fī al-tārīkh, (Ṣ ʔ422-484). Dār Imīl lil-Nashr al-Maḥdūdah.
- Al’zkwī, Sarḥān ibn Sa‘īd. (1986). *Tārīkh ‘Ammān al-Muqtabas min Kashf al-ghummah al-Jāmi‘ li-akhbār al-ummah*. (‘Abd al-Majīd al-Qaysī, taḥqīq.) ʔ2. Wizārat al-Turāth al-Qawmī fī Salṭanat ‘Ammān. Masqat.
- Bennett, N.R. (1978) *A History of the Arab state of Zanzibar*, Methuen and Coltd.
- Bishr, ‘Uthmān ibn ‘Abd Allāh. (1971). *‘unwān al-Majd fī Tārīkh Najd*. (‘Abd al-Raḥmān ibn ‘Abd Allāh Āl al-Shaykh, taḥqīq.) Ṭ. 2. Wizārat al-Ma‘ārif. al-Riyād.
- Coupland, R. (1965), *East Africa and its Invaders*. Oxford.
- Duhnī, Ilhām, (1987). *Siyāsāt Faransā al-tawassu‘īyah fī Sharq Afrīqiyā fī al-niṣf al-Thānī min al-qarn 19*. D. Ṭ, Dār al-Kitāb al-Jāmi‘ī, al-Qāhirah.
- Ghallāb, Muḥammad al-Sayyid., al-Danāṣūrī, Jamāl al-Dīn., Ṣādiq, Dawlat Aḥmad. (D. t). *jughrāfiyah al-‘ālam dirāsah iqlīmīyah Afrīqiyā w’strālyā*. D. Ṭ. Maktabat al-Anjlū al-Miṣrīyah. al-Qāhirah.
- Ghallāb, Muḥammad al-Sayyid., Ṣāliḥ, Ḥasan ‘Abd al-Qādir., Shākir, Maḥmūd., ‘Uthmān, Muḥammad Fathī. (1979). *al-buldān al-Islāmīyah wa-al-aqallīyāt al-Muslimah fī al-‘ālam al-mu‘āṣir*. D. Ṭ. Jāmi‘at al-Imām Muḥammad ibn Sa‘ūd al-Islāmīyah. al-Riyād.
- Groy, J. M. (1962). *History of Zanzibar, From the Middle Ages To 1856*. Oxford University Press, London.
- Ḥarrāz, al-Sayyid Rajab. (1960). *al-Tawassu‘ al-Ītālī fī Sharq Afrīqiyā*. D. Ṭ. Jāmi‘at al-Qāhirah, al-Qāhirah.
- Ḥarrāz, al-Sayyid Rajab. (1968). *Ifriqīyah al-Sharqīyah wa-al-isti‘mār al-Ūrubbī*. D. Ṭ. Dār al-

- Nahḍah al-‘Arabīyah. al-Qāhirah.
- Ḥarrāz, al-Sayyid Rajab. (1971). *Barīṭāniyā wa-sharq Afrīqīyah min al-isti‘mār ilā al-istiqlāl*. D. Ṭ. al-Maṭba‘ah al-‘Ālamīyah. al-Qāhirah.
- Ibn Rizzīq, Ḥamīd ibn Muḥammad, (1994). *al-Faṭḥ al-mubīn fī sīrat al-sādah al-Būsa ‘idīyīn*. (‘Abd al-Mun‘im ‘Āmir, wa-Muḥammad Mursī ‘Abd Allāh, taḥqīq.). ṭ4. Wizārat al-Turāth al-Qawmī wa-al-Thaqāfah fī Salṭanat ‘Ammān. Masqaṭ.
- Ibn Sulṭān, Sālīmah bint al-Sayyid Sa‘īd. (D. t). *Mudhakkirāt Amīrah ‘Arabīyah*, (‘Abd al-Majīd Ḥasīb al-Qaysī tarjamat.) D. Ṭ. Wizārat al-Turāth al-Qawmī wa-al-Thaqāfah fī Salṭanat ‘Ammān, Masqaṭ. (al-‘amal al-aṣlī Nashr 1886)
- Ingrams, W. H.(1963). *Zanzibar New Impressin*. London Frank Cass and co. Ltd.
- Lūrīmar, J. J. (D.T.) *Dalīl al-Khalīj. al-qism al-tārīkhī* (Maktab Amīr Qaṭar, tarjamat wa-nashr.). D. Ṭ., al-Dawḥah. (al-‘amal al-aṣlī Nashr 1914).
- Oliver, R., and Mathew, G. (1963). *History of East Africa*, London.
- Māylz, S. b. (1994). *al-Khalīj bldānh wqbā’lh* (Muḥammad Amīn ‘Abd Allāh, tarjamat.). ṭ4. Wizārat al-Turāth al-Qawmī wa-al-Thaqāfah fī Salṭanat ‘Ammān. Masqaṭ. (al-‘amal al-aṣlī Nashr 1919)
- Qāsim, Jamāl Zakarīyā. (1959). *Dawlat Būsa ‘īd fī ‘Ammān wa-sharq Afrīqīyā*. D. Ṭ. Maktabat al-Qāhirah al-ḥadīthah. al-Qāhirah.
- Rwt, rwdlf Sa‘īd. (1983). *Salṭanat ‘Ammān khilāl ḥukm al-Sayyid Sa ‘īd Sulṭān 1791-1856* (‘Abd al-Majīd Ḥasīb al-Qaysī trjmh.). Ṭ1, Markaz Dirāsāt al-Khalīj al-‘Arabī bi-Jāmi‘at al-Baṣrah. al-Baṣrah.
- Umar, Sa‘dīyah Muḥammad. (1988). *‘Ammān wa-al-nufūdh al-Barīṭānī fī ‘ahd al-Sayyid Sa ‘īd ibn Sulṭān 1220-1273/1806-1856*. (Risālat majīstīr, Kullīyat al-Tarbiyah lil-Banāt), Jiddah, al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah.
- Trmnjhām, Sbīnsir. (1973) *al-Islām fī Sharq Afrīqīyah*, (Muḥammad ‘Āṭif al-Nawāwī, tarjamat.). Ṭ1, Maktabat al-Anjlū al-Miṣrīyah. al-Qāhirah.
- Zakī, ‘Abd al-Raḥmān. (1979). *al-Islām wa-al-Muslimūn fī Sharq Afrīqīyah*. (D. Ṭ. Maṭba‘at Yūsuf. al-Qāhirah.
- Zomarsh,(1961). *East Africa*, Cambridge University. Press, London.

Biographical Statement

معلومات عن الباحث

أ.د. عبد الله بن إبراهيم بن علي التركي، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية، حاصل على درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة أم القرى عام 1421هـ. تدور اهتماماته البحثية حول تاريخ المملكة العربية السعودية، والخليج العربي، والعالم العربي الحديث والمعاصر، وشرق أفريقيا.

Prof. Abdullah bin Ibrahim bin Ali al-Turki is a full professor of Contemporary Modern History in the Department of History, College of Arabic Language and Social Studies at Qassim University (KSA). Prof. al-Turki received his Ph.D. degree in 2001 from Umm Alqura University. His research interests include the history of Kingdom of Saudi Arabia, the Arabian Gulf, the modern & contemporary Arab world, and East Africa.

Email: atrky@qu.edu.sa



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

عاطفة الحب في النقوش الثمودية بمنطقة حائل: دراسة تاريخية حضارية

إيمان بنت سعد بن علي النفيعي ^{id}

قسم العلوم الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الطائف، الطائف، المملكة العربية السعودية

Abstract

The research entitled “the emotion of love in the Thamudic inscriptions in Ha’il region: A historical and cultural study” examines the love emotion of the inhabitants of the ancient Hail region through their inscriptions, which they have taken to digging on the rocks of this area. This emotion was embodied in a set of short words through which lovers sought to declare their love, some of them concealed their desire to vent this emotion in silence and refused to disclose it. It also aims at examining the concept of love in Ha’il community, in explaining the words expressing this emotion and describing the most important ways used by the Hail residents to preserve love, as well as knowing the pests that affected this emotion and caused the separation of lovers. Finally, the research comes up with a set of influential social, linguistic, cultural, and religious connotations associated with this emotion.

Keywords: Thamudi inscriptions, Ha’il, love, adoration.

الملخص

يتناول البحث دراسة عاطفة الحب عند سكان منطقة حائل القدماء من خلال نقوشهم التي خلدوها حفرًا على صخور هذه المنطقة، وتجسدت هذه العاطفة في مجموعة من الألفاظ والعبارات المختصرة، والتي سعى من خلالها المحبون إلى التصريح بحبهم، والبعض الآخر منهم أخفى رغبته في التنفيس عن هذه العاطفة كاتماً لمشاعره ورافض الإفصاح عنها.

ويهدف البحث إلى دراسة مفهوم الحب لدى مجتمع منطقة حائل مع التطرق إلى شرح الألفاظ المعبرة عن هذه العاطفة، وبيان أهم الطرق والوسائل التي استخدمها المحبين من سكان حائل للحفاظ على الحب، وكذلك معرفة الآفات التي أصابت هذه العاطفة السامية وكانت سبباً في افتراق المحبين، وأخيراً يتوصل البحث إلى مجموعة من الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية والدينية المؤثرة والمرتبطة بهذه العاطفة.

الكلمات المفتاحية: النقوش الثمودية، حائل، الحب، العشق.

الإحالة APA Citation

النفيعي، إيمان سعد. (2023). عاطفة الحب في النقوش الثمودية بمنطقة حائل: دراسة تاريخية حضارية. مجلة العلوم العربية والإنسانية، 17، (2)، 131-160.

استلم في: 16-02-1445 / قبل في: 10-03-1445 / نُشر في: 14-04-1445

Received on: 01-09-2023/Accepted on: 25-09-2023/Published on: 29-10-2023



1. المقدمة

تقع منطقة حائل في وسط الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية. وتحدها من الشمال منطقتا الحدود الشمالية والجوف، ومن الجنوب والشرق منطقة القصيم، ومن الغرب منطقتي تبوك والمدينة المنورة.

شكل 1: خريطة منطقة حائل (الشمري، 2022، ص. 148)



وتعد منطقة حائل من أغنى المناطق بالنقوش والرسوم الصخرية على مستوى المملكة العربية السعودية (كباوي، وآخرون، 1998؛ al-Talhi, 2017)، وتتميز بتنوع تضاريسها ما بين جبال، وهضاب، وسهول، وأودية، وحرار، وكتبان رملية، كما تشتمل على الكثير من المساحات الصالحة للرعي والزراعة (الطلحي، وفياض، 2022)، وكانت المنطقة ممراً مهماً لقوافل التجارة في عصور مختلفة، إذ تقع على الطريق التجاري الرئيس الذي كان يربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها، وإلى جانب هذا الطريق كانت ترتبط بطرق تجارية أخرى مع أدوماتو وتيماء وغيرها من المراكز الحضارية في الجزيرة العربية (الأنصاري ويوسف، 2005)، واصطلح الباحثون المعاصرون على تسمية الخط الذي كُتب به سكان شمال الجزيرة العربية لغتهم العربية باسم الخط التمودي (طيران، 2005) وذلك؛ نظراً لورود اسم ثمود في بعض نقوشهم الصخرية (الدسوقي، 1976؛ طيران، 2005) "بصيغة (هـ ث م د)" (طيران، 2004، ص 1140)، و(ث م د) (نعيمي، وآخرون، 2006).

وتركز استخدام الخط التمودي في شمال الجزيرة العربية، ووُجدت نقوشه مكتوبة على صخور الجبال على طول الطرق التجارية القديمة من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها، في اليمن، وعسير (طيران، 2005؛ أسكوي، 2009)،

والطائف (العتيبي، وآخرون، 2020؛ El-Tonssy, 2019)، والمدينة المنورة (أسكوي، وآخرون، 2006؛ أسكوي، 2008)، ومدائن صالح، وتبوك (طيران، 2005)، وتيماء وحائل (الدسوقي، 1976؛ طيران، 2005)، وفي منطقة القصيم (العريبي وآخرون، 2022؛ العمير والذبيب، 1997)، والقويعة (عريش وآخرون، 2022) في وسط شبه الجزيرة العربية، وكذلك في بعض المناطق خارج شبه الجزيرة العربية مثل الأردن، وشبه جزيرة سيناء، وصحراء مصر الشرقية (طيران، 2005؛ Al-Ajrami, 2022).

وتعود أقدم النقوش الثمودية إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أما أحدثها فأورخ للقرن الرابع الميلادي (كفاي، 2017)، واستخدمت القبائل التي سكنت منطقة حائل قديماً الخط الثمودي في كتاباتهم. لمدة تقارب الستة إلى خمسة قرون (الذبيب، 1999b؛ Al-Theeb, 2018)، ولكن هذه القبائل لم تصبح أبداً مملكة بما تحمل تلك الكلمة من معنى، بل ظلت تمثل نوعاً من اتحاد قام بين قبائل مختلفة، وارتبط فيما بينها بروابط دينية وثقافية (الدسوقي، 1976). والسمة الغالبة على الثموديين أنهم أقرب إلى الحضرمين البدو (القدرة وآخرون، 2013)، إلا أنهم لم يتركوا لنا مدناً باقية لهم، وبقيت نقوشهم ورسومهم شاهدة على نشاط وحيوية مجتمعاتهم (الشتلة، 1980).

كانت مساهمة الباحثين السابقين تتمثل في البحث والكشف عن النقوش في مواقع انتشارها، ثم تصويرها وتقديم ترجمة وقراءة لها، وجاءت مساهمتهم ركيزة أساسية لبحثنا هذا في الاعتماد على هذا المصدر، ولكن الدراسة اللغوية للنقش والتوقف عند هذا الحد لا يُعد كافياً في فهم أحوال المجتمع الثمودي في منطقة حائل؛ لأنه سيؤدي إلى نتيجة سلبية في فهم حياة المجتمع العامة، لذا لا بد من قراءة ما وراء النص وسبر مقاصده وتحويله من نص ساكن على الصخر إلى نص حيّ نرى من خلاله حياة الإنسان العربي القديم، ونفهم أبعاده وطبيعته حياته، بل وبماذا كان يفكر ويشعر (المخلافي، 2015). ومن هنا، جاء هدف هذا البحث، وغايته في دراسة عاطفة الحب، محاولاً الإجابة عن التساؤلات الآتية:

1- هل عرف سكان منطقة حائل القدماء الحب قبل الارتباط في كنف مجتمعاتهم القبلي؟ وما طريقتهم في التعبير عن هذه العاطفة؟

2- ما الألفاظ المستخدمة في التعبير عن الحب عند سكان منطقة حائل القدماء؟

3- مَنْ الذي صرّح بعاطفة الحب الرجل أو المرأة أو كلاهما؟ وما نسبة تمثيل كل منهما عن هذه العاطفة؟

4- ما الطرق التي اتبعها المحبون من سكان منطقة حائل القدماء لضمان استمرارية الحب؟

5- هل شهدت قصص الحب عند سكان منطقة حائل القدماء آفات ألفتها؟

6- ما الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية والدينية المستنبطة من النقوش الثمودية في منطقة حائل قديماً؟

وسنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات في المباحث الموالية.

2. مفهوم الحب عند سكان منطقة حائل قديماً

الحب عاطفة إنسانية يشترك بها الناس كافة، وهو تعبير طبيعي عن أحاسيس الفرد وعواطفه الإنسانية، وبما أن المرأة تزيد من شجون الرجل وأشواقه لأنوثتها، فقد جاء ذكرها في مجتمع حائل القديم كأحد أبرز اهتماماته الاجتماعية (الحاج والنعيمات، 2020)، ولكي يتسنى لنا أن نرسم الإطار العام لعاطفة الحب في المجتمع الحائلي فإنه لا بد لنا من الاعتماد على المصادر المباشرة لتاريخهم، ولقد وجدنا ضالتنا فيما خطته أيديهم على الصخور كشاهد حي وصادق ومعاصر على أحوالهم الاجتماعية ونقصد بذلك النقوش التمودية. فقد عبّر عن حبهم بألفاظ عديدة وهي كالتالي:

1.2. حب (ح ب ب)

في لسان العرب حب: هو الحب: نقيض البغض، والحب: الوداد والمحبة، وكذلك الحب بالكسر، وأحبّه فهو مُحِبٌّ، وهو محبوب، والحبّ بالكسر: المحابّة والموادّة والحبّ، وتُحِبُّ إليه: تودّد، وامرأة محبّة لزوجها ومُحِبٌّ أيضاً (ابن منظور، د.ت، مادة حب). وقد أظهر أحد المحبين التموديين حُبّه صراحةً لحبيته فذكر اسمه متبوعاً باسم أبيه وملحقاً به لفظ حبّ المختوم باسم حبيته مفرداً دون ذكر اسم أبيها، والنقش هو: (م د ش ا ل (ب) م س و ح ب ب ق ي ن ت/م د ش ا ل (بن) م س (الذي) حبّ قينة) (نق=نقش):

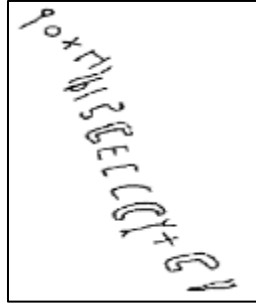
شكل 2: رسم تفرغي للنقش التمودي م د ش ا ل (الذيب، 1999a، نق131، ص. 205)



وفي نقش آخر وصف أحد المحبين نفسه بالمحبيب على وزن مفعول، وكأنه هو الذي فُعل به الحب وأوقع عليه من طرف المحبوبة والنص هو: "ل د ل ف م ح ب ب م ا ت م ه/بواسطة دالف محبوب مأتمه" (الذيب، 2014، نق37؛ الذيب، 2017a، نق18)، ويعلق الذيب (2014) على هذا النص قائلاً: إنّ تصريح دالف بأنه المحبوب ما هو إلا رغبة منه في إعلان عشقه للجميع، وكذلك مبادلة حبيته له بالعشق، أيضاً، وإعلانه هذا إما من باب سد الطريق أمام البقية من التقدم إليها، وإما لكونه أحد البارزين في المجتمع آنذاك، ورغب من إعلانه تحذير من تسوّل له نفسه التقدم إليها، غير أن الباحثة ترى خلاف ذلك؛ إذ لو قرّرنا الأخذ برأي الذيب فلماذا لم يذكر دالف اسمه متبوعاً باسم أبيه في أبسط صيغة لإيراد سلسلة نسبه، أو يذكر قبيلته حتى يكون معروفاً للجميع، أو على أقل تقدير، لماذا لم يذكر مهنته أو حرفته التي عُرف واشتهر بها بين الناس، فيُعرف، حينئذٍ، حبه ويمنع غيره من الاقتران بمحبوبته، ولكننا

نجدّه شخصاً عادياً من عامة الناس أراد أن يتزين بزّي المحبين، ويصبح منهم في زمن تغيرت وتطورت فيه الألفاظ المستخدمة للتعبير عن الحب؛ إذ يعود النقش للفترة الثمودية، المتأخرة وهذا ما سنأتي على تفصيله أدناه.

شكل 3: رسم تفرغي للنقش الثمودي دالف (الذبيب، 2014، ص. 43)



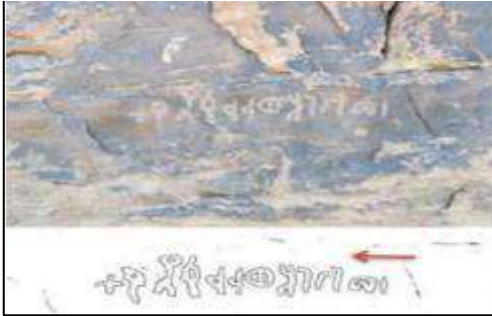
2.2. ودّ (و د د)

من الألفاظ المستخدمة عند أهل حائل في التعبير عن محبتهم هو لفظ (و د د) والودد في اللغة من الودّ: مصدر المودّة، والودّ هو: الحبّ يكون في جميع مداخل الخير؛ ووَدِدْتُ الشيءَ أَوْدُ، وهو من الأُمْنِيَّة (ابن منظور، د.ت، مادة وُدّ)، ومن المحبين الثموديين من عبّر عن حبه على شكل خبر صيغ في نقش بسيط على الصخر مستخدماً لفظ وُدّ، حيث عبّر المدعو ودفان عن حبه لـ (بيجة) كاتباً: (و د ف ن و د د ي ج ع ت/ودفان وُدّ بيجة) (الذبيب، 2014، نق7)، ويمثّل ودفان في صيغة التعبير عن المودة محب آخر وهو عبّاس الذي ربطته مودة بمحبوبته عطرة في نصه التالي: (ع ب س و د د ع ط ر ت/عباس وُدّ عطرة) (الذبيب، 2000، نق112). وأيضاً المحب عم يثع الذي سلك طريق كل من ودفان وعبّاس في التعبير عن مودته لمحبوته؛ إذ ذكر اسمه مفرداً ثم أتبعه بلفظ الحبّ المعبر عن شعوره ثم ختمه باسم محبوبته مفرداً في نصه: (عم يثع ودد سلعت/عم يثع وُدّ سلعت) (البقاوي، 2021، ص. 110)، وكذلك "ن م ك ل أ و د د ق ص ي ت/من كلاً الذي أحب قصية (قاصية)" (مسعود، 2021، نق8). في هذا النقش تُحب يدعى كلاً وهو الاسم المعروف أنه مذكور في النقوش الثمودية يرسل رسالة مودة لامرأة تسمى قصية وهي مؤنث قصي إذا أضيفت له تاء التأنيث (مسعود، 2021). ويلاحظ على اللفظ (و د د) المستخدم في النصوص السابقة أنه يطابق الفعل وُدّ: المضاعف بصيغة الماضي، وهو يفيد معنى وُدّ، وحبّ، وتشوق، وهو بهذه الصيغة يمثّل الفعل وُدّ في العربية الفصحى مبنى ومعنى (السعيد، 2003).

شكل 4: صورة للنقش التمودي عم ينع
(البعاوي، 2021، ص. 110)



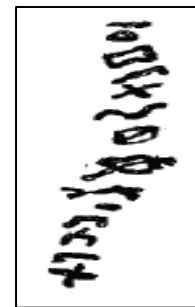
شكل 5: صورة للنقش التمودي كالأ (مسعود،
2021، ص. 245)



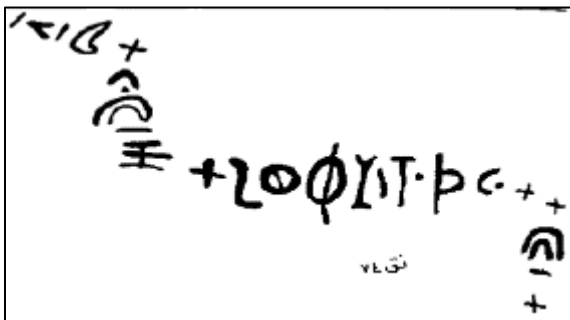
3.2. اشتاق (ت ش و ق)

الشَّوْقُ والاشتياق: هو نزاع النفس إلى الشيء، والجمع أشواق، ويقال: شاق إليه شوقًا وتَشَوَّقَ واشتاق اشتياقًا، والشوق حركة الهوى، ويقال أيضًا: شاقني حُسْنُهَا وذكَّرها يشوقني أي هيَّج شوقي (ابن منظور، د.ت، مادة شوق). وقد عَرَّبَ المحبون عن أشواقهم لمحبوباتهم فكان منهم المدعو جمل في نصه: "ل ج م ل ت ش و ق ال ب س ل ت/بواسطة جمل واشتاق إلى باسلة" (الذبيب، 2014، نق13)، يبين النقش اشتياق جمل إلى باسلة وهي إما زوجته أو عشيقته (الذبيب، 2014). كذلك عَرَّبَ محب آخر عن اشتياقه لمحبوبته وهو المدعو سلامه في نقشه الذي يُعد أكثر بيانًا من نقش سابقه جمل في إيضاح نسبه لأبيه ونسب محبوبته لأبيها "ل س ل م ت بن م ل ط ت ش و ق ال ز ن د ب ن ت ت م ل ت/بواسطة سلامة بن ملط (الذي) اشتاق إلى زُند بنت تيم اللات" (كباوي، وآخرون، ص. 83؛ الذبيب، 1999a، نق74).

شكل 6: رسم تفرغي للنقش التمودي جمل
(الذبيب، 2014، ص. 24)



شكل 7: رسم تفرغي للنقش التمودي سلامة بن ملط
(الذبيب، 1999a، ص. 203)

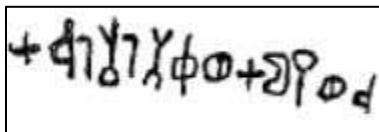


نلاحظ هنا أن كلا المحبين جمل وسلامة استخدموا لفظ (ت ش و ق) بدلاً من لفظي (ح ب ب- و د د) وهذا دليل على عدم وجود المحبوتين في المكان الذي استقر فيه المحبان؛ فلعل حياة الترحال في الصحراء كانت سبباً في التفرقة بين المحبين، كما أن استخدام هذا اللفظ دون غيره يعد مناسباً لظرفيهما في التعبير عن ما في خلجات نفسيهما من لوعة الفراق والحب والرغبة الشديدة في رؤية الحبيبة، خاصة عندما نعلم أن "الشوق هو إرادة رؤية الحبيب على قلة الصبر، ولهذا قيل: الشوق يقع على الرؤية والمحبة تقع على الذات" (عبد الله، 1980، ص. 135).

4.2. متوق (م ت و ق)

والتوق في لسان العرب هو تُووِق النفس إلى الشيء ونزاعها إليه، والمَتَوَّق: المَتَشَهَّى، ويقال في المثل: المرء تَتَوَّق إلى ما لم ينل (ابن منظور، د.ت، مادة تَوَق)، ولقد تفرَّد أحد المحبين دون غيره في استخدام لفظ (م ت و ق) بدلاً من ألفاظ المحبة الأخرى نحو (ح ب ب- و د د- ت ش و ق) والتي تكررت بين المحبين، وهو المدعو دوي في نقشه: "د و ي م ت و ق ا ل ص ل د ت/دوي متوق إلى صلدة" (الذيب، 2014، نق4).

شكل 8: رسم تفرغني للنقش التمودي دوي (الذيب، 2014، ص. 17)



ويتبين لنا من هذا النقش طبيعة علاقة الحب التي جمعت بين دوي ومحبوته صلدة من خلال استخدامه للفظ متوق، وهذا أضحى التقيا قبل الفراق وتبادلا النظر، وربما تبادلا أطراف الحديث حتى شَعَرَا بالأنس والسرور من هذه اللقاءات المتكررة، وعندما افترقا تَذَكَّر المدعو ودي لذة القرب وتتوق إلى إعادته وتكراره، ولكن لم يكن بمستطاعه أن يحظى بلقاء جديد معها وقت كتابته لنقشه؛ لهذا عَبَّر بلفظ متوق دون غيره من الألفاظ الأخرى.

ومن خلال استقراء نقوش المحبين في منطقة حائل، نجد ألفاظاً متنوعة تدل على عاطفة الحب وتُعبّر عنها نحو المحبة والمودة والاشتياق والتوق، وتوضح لنا مدى رقي أحاسيسهم المرفهة، كما يستدل من هذه النقوش على أنها كانت وسيلة من وسائل الاتصال بين الحب ومحبوته، ويراد من كتابتها أن تكون رسالة غير مباشرة لعلها تصل المحبوبة بواسطة عابري الطرق في منطقة حائل من خلال قراءتهم للنقش ومدلولته بينهم في سفرهم.

ونستنبط كذلك من نقوش المحبة أن كاتبها لا يرغبون في الإفصاح عن معلومات أخرى غير أسمائهم، من نحو سلسلة نسبهم أو قبائلهم التي ينتمون لها أو مهنتهم التي يعملون بها؛ ولعل السبب في ذلك لكي لا يُعرفون فيحرمون من الاقتران بمحبوباتهم، وربما الخوف عليهن من الإيذاء.

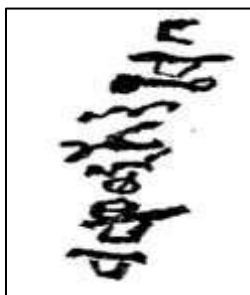
3. طرق الحفاظ على الحب

اتبع المحبون عدة طرق ووسائل للحفاظ على الحب، ومنها:

1.3. الدعاء

للحب نصيب من دعاء المحبين، وقد تنوعت صيغته على النحو التالي: "ب د ث ن ا ن و و د د/يا (المعبود) دثن الأناة (الاستقرار والسلام) والحب" (الذبيب، 2014، نق 80). يعكس هذا النقش الدعوي حاجة كاتبه إلى الاستقرار والسلام، ولعل الأحوال السياسية آنذاك لم تكن مستقرة، وأيضاً لم يكن الأمن على ما يُرام؛ وإن كان الكاتب يشير إلى أمر شخصي فهو يدعو معبوده أن يمنحه حب فتاة؛ ليستقر معها ويكوّن عائلة صغيرة كبيرة بأحلامها وطموحاتها (الذبيب، 2014). ويلاحظ على هذا النقش أن كاتبه عطف الحب على الأناة، وفي ذلك تصوير لفكرة ومبدأ يؤمن به وهو أن حياة الاستقرار والراحة والسلام النفسي لن يكون أو يكتمل إلا بوجود الحب كضرورة من ضرورات السلام وسكينة الروح؛ لهذا طلب كليهما من معبوده دثن.

شكل 9: رسم تفرغي للنقش التمودي يطلب الحب من المعبود دثن (الذبيب، 2014، ص. 75)



ويظهر المعبود دثن مرة أخرى في دعاء محب آخر ونقشه: "ب د ث ن ت م د ه و د ي/يا (المعبود) دثن أتم حيرة جي (ودي)" (الذبيب، 2014، نق 82). ويبدو أن كاتب النقش عاشق مُهَيِّم يريد راحة البال والاستقرار والقضاء على التردد، فاتجه إلى معبوده؛ طلباً لمساعدته (الذبيب، 2014). ويستمر توالي ظهور المعبود دثن في نقوش المحبة طلباً للمساعدة، "ه د ث ن س ع د أي م ع ل د د ه س ر/يا دثن ساعد أيم على حبه السعيد" (البقاوي، 2021، ص. 157). نجد هنا أن أيماً وصف حبه بالسعيد، وهذا يعني أنه تمكن من إنشاء علاقة متوازنة مع محبوبته، وطلبه للمساعدة ربما كان من أجل استمرارية هذا الحب وعدم حصول عارض يمنع ذلك، أو أنه قد وُفق في هذا الحب، ولكن بقي إتمامه بالارتباط إلا أن الظروف المالية أو الاجتماعية أو غيرها تحول دون تمامه حتى ساعة كتابة أيم لنقشه، فاتجه للمعبود؛ طلباً لتمام هذا الحب الذي بدأ سعيداً.

شكل 10: صورة للنقش الثمودي أيم (البقعاوي، 2021، ص.157)

ولم يكن دثن هو المعبود الوحيد الذي توجه له المحبون الثموديون طلباً للمساعدة بمختلف أشكالها، بل شاركه في هذه المسألة الدينية المعبود رضو في النقش التالي: "ب رض و س ع د ن ع ل و د د ي ل م و ه ب ي غ ث/يا رضو ساعدني على ودي. بواسطة وهب يغوث" (البقعاوي، 2021، ص.140).

شكل 11: صورة للنقش الثمودي وهب يغوث (البقعاوي، 2021، ص. 140)

كذلك ظهر المعبود رش في النقش التالي: "ه رش و د د م و ه ب ن ه ي ل/يا (المعبود) رش حب "م" وهبن رزقاً" (الذبيب، 2017b، نق117). يلاحظ هنا أن المحب الثمودي طلب الحب من معبوده رش، واختصر اسم حبيبته في أول حرف من اسمها (م) وهذا ما نظنه، ثم طلب الرزق دون تحديد نوعه فالأرزاق أنواع، ونستدل من هذا النقش الدعوي أن من شروط اكتمال المحبة واستمرار سعادتها توفر الأرزاق التي تمنح المحبين حياةً هنيئةً إلى جانب الحب. وفي نقش دعوي آخر، يظهر على ساحة المعبودات التي لجأ لها المحبون الثموديون بالدعاء- المعبود نهي والذي ابتهل له المدعو حسن داعياً: "ب ن ه ي ح س ن م و ا ه ب س د م ي/يا (المعبود) نهي حسن وقو (أعطني) عشقي" (الذبيب، 2017b، نق110).

شكل 12: صورة للنقش التمودي حسن (الذبيب، 2017b، ص. 57)



2.3. الزواج

هو أحد أهم المظاهر الاجتماعية المؤثرة في حياة الإنسان العربي القديم، ومن الطبيعي أن يقوم كل من الذكر والأنثى بالبحث عن الآخر، وهذه الظاهرة ليست مقتصرة على مجتمع دون غيره، بل وجدت في كل المجتمعات الإنسانية، ومع ذلك يكون دور الرجل فيها أكثر من دور المرأة؛ لما يرتبط بها من قيم اجتماعية معينة (البري والعزام، 2015)، ومن هنا تبدأ خطوة الحب في التعبير عن رغبته في الزواج والارتباط والشاهد على ذلك النقش التالي: "ز ل ج ت و ش و ق ال ه د و ا ت ب ق ع ه / ز ل ج و ا ش ت ا ق إلى (ورغب) الزواج (الاستقرار) فدخل على بقعة" (الذبيب، 2014، نق5)، يستدل من نقش زلجة هذا أنه أصبح بالغاً وناضجاً جنسياً حيث أنهى مرحلة اضطرابات النمو السابقة ووصل إلى مرحلة النضوج الجنسي بطلبه الزواج والدخول على بقعة ليشبع رغبات الحب بطريقة سليمة، ف"الزواج بطبيعة الحال يمثل نهاية التطور الجنسي واستقرار الشخصية السليمة، وفي الزواج عنصران أساسيان؛ الحب والصلة الجنسية، والحب مقدم على الصلة الجنسية وهو أقوى عامل في الاستقرار والدوام" (الأهواني، 2022، ص. 29) وهذا ما رأينا عليه زلجة من خلال قراءة نصه.

ولقد أدرك أصحاب النقوش من سكان حائل القدماء أن الزواج هي الوسيلة الناجحة التي تجمع بين المتحابين فتوجهوا لمعبودهم طلباً للزواج، مثل: "ه ر ض د ع ب ن ع ت ق (ت) ... ل م ع ش ق / يا (المعبود) رضو زوجن عاتقة من عاشق" (الذبيب، 2017b، نق67؛ العبد الله، 2017، نق137)، نجد هنا المدعو عاشق يتوجه بدعائه لمعبوده رضو طالباً الزواج من حبيبته عاتقة، وينهج نهجه كذلك محباً آخر وهو شفر في نقشه "ه ر ض د ع ب ن ص ن ت ل م ش ف ر / يا (المعبود) رض زوجن صانت من شفر" (العبد الله، 2017، نق167؛ الذبيب، 2017b، نق73) طالباً الاقتران بمحبوبته صانت.

ونستنتج من هذين النقيشين أن الحب قد تمكن من قلبي عاشق وشفر فلم يعدا يقنعان برؤية محبوبتيهما وكانا في حاجة أعلى للتواصل مع محبوبتيهما فقررا الزواج.

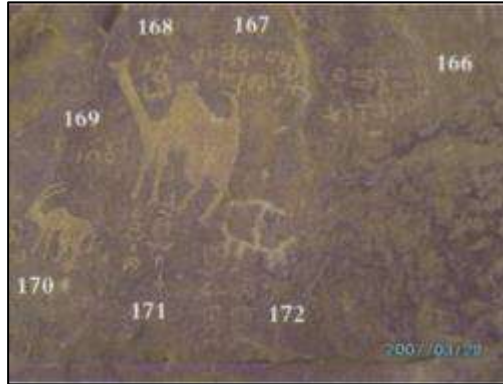
شكل 13: صورة للنقش التمودي عاشق

(العبد لله، 2017، ص. 155)



شكل 14: صورة للنقش التمودي شفر وأشير له بالرقم

(167) (العبد لله، 2017، ص. 177)



ولم يتوقف إدراك أصحاب النقوش على مسألة طلب الزواج لأنفسهم، بل ذهبوا لأبعد من ذلك حيث أدرك البعض منهم بحكم تجربتهم السابقة للحُب والافتتان عن طريق الزواج أن بعضاً من أقاربهم يعانون نفسياً ل فراغ عاطفتهم من مشاعر الحُب فرغبوا في إشباعها لهم عن طريق التوجه لمعبوداتهم والدعاء لهم بالزواج، ومثالنا على ذلك هذا النقش: "ه ر ض د ع ب ل س ن ب ل م ا ل ه/يا (المعبود) رض الزواج لسنب من إله" (الذبيب، 2017b، نق136) حيث توجه المدعو إله إلى طلب الزواج لسنب، وكذلك فعل المدعو أجف عندما طلب الزواج لقريبه شعل في نقشه: "ه ر ض ب ا ش ع ل ل م ا ج ف/يا (المعبود) رض أنكح (زوج) شعل بواسطة أجف" (الذبيب، 2017b، نق137)، وعلى سبيل الهبات والأرزاق، توجه المدعو قصمان لمعبوده عثر السماء طالباً منه هبة الزواج لقريبه في نقشه هذا: "ه ع ت ر س م و ه ب ا ه ل ل م م ي ك ل و ا ن ق ص م ن/يا (المعبودة) عثر السماء هب لي زوجة للميكل وأنا قصمان" (الذبيب، 2017b، نق114).

وأيضاً، طلب المحبون من معبودهم رضو إتمام زواجهم واستقرارهم وسعادتهم بالافتتان بمن عشقوهن (السناني، 2021) "ه ر ض و د ع س ب ي ل م س ح ل/يا (المعبود) رضو زوج بي بواسطة سحل" (العبد لله، 2017، نق56؛ الذبيب، 2017b، نق41).

وتوجه أحدهم للمعبود نهي دون أن يفصح عن اسمه داعياً إتمام الزفاف: "ه ن ه ي ا ت م ه ز ف ف/يا (المعبود) نهي أتم هذا الزفاف" (الذبيب، 2017b، نق109). يلاحظ على هذا النقش غياب اسم الحب ومحبوته، وكذلك لم يطلب الزواج؛ لأنه على ما يبدو أن نقشه قد كُتب في يوم الزفاف مما جعلنا في حيرة من أمرنا هل من كتب هذا النقش محباً لنفسه أو لأحد أقاربه! وعلى أية حال، نستطيع القول بأن كاتبه أيّاً كان لم يتوفر لديه الوقت الكافي؛ ليكتب المزيد من الكلمات على الصخر وإعطاء تفاصيل أكثر؛ لأنه يعلم تماماً أن معبوده نهي قد فهم مناجاته، كما

نفهم، نحن، أيضاً، أن هذا الزفاف قد تم على عَجالة، أو أن هناك أسباباً قد تمنع إتمامه ونجهلها حقيقةً؛ مما ترتب عليها كتابة هذا النقش بهذا الاختصار السريع العجول.

شكل 15: صورة لنقش الزفاف (الذيب، 2017b، ص. 57)



3.3. الاستقرار

"ل م ت س ب و د ف ب ق ي/بواسطة ت س ب الذي ودّ فبقى" (الذيب، 1999b، نق3؛ الذيب، a 1999، نق3)، ويذكر ت س ب في نصه أنه ودّ فبقى، قاصداً من ذلك إما محبته واستراحته للمكان؛ لوجود الضروريات الأساسية فيه، فقرر الاستقرار والبقاء في هذه البقعة من الأرض، أو لأنه شاهد فتاة لاقت صدى في قلبه، فدفعه حبها إلى البقاء في هذا المكان ليبقى بجانبها (الذيب، 1999a)، وتتطور المودة إلى محبة ثم يقترب بها.

4.3. إرسال التحايا

إن إرسال التحايا وتبادلها بين الأحبة من الأقارب والرفاق لها أثر طيب وجميل على النفس البشرية، وتزداد هذه التحايا حلاوةً فيما لو أرسلت من محب إلى محبوبته، وهذه القيمة المعنوية أدركها وطبقها المدعو حرزت في نقشه: "و ا ن ح ر (ز) ت و د د ف ح ج ت/ وأنا حرزت تحياتي (مودتي) لحاجة" (مسعود، 2021، نق7). لقد كان هذا النص نص مودة ومحبة من حرزت إلى حاجة، فعبر عما يجيش في نفسه من حب وود تجاه محبوبته حاجة؛ فكتب: وأنا حرزت تحياتي (مودتي) لحاجة (مسعود، 2021).

شكل 16: صورة للنقش الثمودي حرزت (مسعود، 2021، ص. 243)



كذلك الحب كلاً الذي أرسل تحية ملؤها الحب والمودة لمحبوته قاصية في نقشه: "ن م ك ل أ و د د ق ص ي ت/ من كلاً الذي أحب قاصية" (مسعود، 2021، نق80).

يلاحظ مما سبق عرضه من نقوش المحبة التمودية، أنها كُتبت من قِبَل المحبين من الرجال، بينما المرأة لم تترك نقش محبة لمحبوها على الصخر تُعبر فيه عن محبتها ومودتها وأشواقها له كما فعل هو، وهذا يجعلنا نتساءل عن وضعها الاجتماعي من حيث نظرة المجتمع لها في إمكانية التعبير عن مشاعرها من عدمه. في الظاهر من النقوش في منطقة حائل، أن طاقة التعبير عن الحب عند المرأة محجوبة، ولم تظهر للعيان إما خوفاً من ضوابط وقوانين المجتمع القبلي الذي يفرض عليها عدم المجاهرة بالحب، وإما لأن مجاهلن في التجارة والحراسة والحروب محدود؛ فلم تخرج لمكان بعيد يحتم عليها الكتابة على الصخر بعيداً عن أنظار أفراد المجتمع، ومن المحتمل أنها كتومة وتحد حرجاً في إظهار الحب علناً، ولكننا على الرغم من كل هذا، نفهم ممارستها للحب من خلال ما تركه حبيبها على الصخور في التعبير عن حبه ومودته واشتياقه وتوقه لها، وهي قد بادلته الشعور والعاطفة.

4. آفات الحب

للحب آفات تفسد عليه صفوه، وتكدر سعادة المحبين ممن التمسوا فيه المسرة والطمأنينة والسكينة والاستقرار، وقد أصيب بعض من المحبين والمحبات بهذه الآفات، وكان منها ما يلي:

1.4. الكتمان

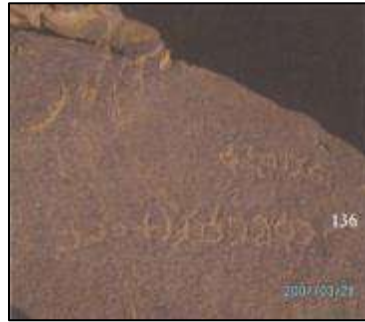
ومن الصفات المميزة للحب الكتمان باللسان والصبر خاصة في ظل وجود ظروف خارجة عن إرادة الحب وتحول دون ارتباطه بمحبوبته على الرغم مما يقاسيه من ألم الكتمان. ودليل كتمان مشاعر الحب ورد في نص محب ثمودي استخدم فيه الفعل (ك ت م) وهو: "و د ف ح ل ف ك ت م/ تحيات ل ح ل (الذي) كتم (حزنه)" (الذيب، 2000، نق66)، ومن خلال قراءة النقش يتضح أن كاتبه قصد إخفاء حبه وكتم عشقه وولاه ل ح ل (الذيب، 2000). كما يشعرا هذا النقش بخوف الحب من البوح بحبه. وربما تعود أسباب الكتمان هنا إلى رغبة الحب في الإبقاء على محبوبته، وصون سمعتها، أو حتى لا تنفر منه محبوبته؛ بسبب تعجله في إعلان محبته لها، الأمر الذي قد لا يتناسب مع ظروفه وظروفها الاجتماعية في تلك الأيام، أو ربما وجد منها صداً بسبب الحياء الغالب على طبيعة الإناث، وغالب الظن أن الحب لم يرد إظهار سره قبل أن يكون له ما يريد، ونعني هنا الزواج.

2.4. الأمراض

في الوقت الذي ننظر فيه إلى الحب على أنه من العواطف السامية التي يشعر بها الإنسان ويعيشها، إلا أن بلوغه درجة العشق والهيام يُعد مرضاً. ويصنف بعض الباحثين العشق على أنه من الأمراض النفسية التي أصابت بعض سكان منطقة حائل القدماء (مسعود، 2020؛ العتيبي، 2022)، وعلى سبيل المثال، نجد الحب ري اللات يصف نفسه بالعاشق

"س ق م ر ي ال ت (ب) و ا ن ع ش ق / ه ا م ر ي اللات برباب وأنا العاشق" (الذبيب، 2017a، نق 67؛ العبد الله، 2017، نق 136)، والعشق وُصف بأنه السرف في الحبِّ والمبالغة في الميل إلى المحبوبة مع الاشتهااء، في حين أن الحبِّ ميل قلبي ليس الاشتهااء دافعه أو غايته (عبد الله، 1980)، والحبُّ أحمدٌ من العشق؛ لأن العشق فيه إفراط وسمي العاشق عاشقاً؛ لأن يذبل من شدة الهوى (ابن منظور، د.ت، مادة عشق). وترى الباحثة أن استعمال ري اللات للفظه عاشق ما هو إلا استعمال خاص ومقصود، وليس عن تقليد لغيره؛ لأن هذه اللفظة ما هي إلا سلوك لغوي نابع من شعور وجداني طويل المدى كان قد مرَّ وشعر به ري اللات.

شكل 17: صورة للنقش التمودي ري اللات (العبد الله، 2017، ص. 154)



وفي نقش آخر يجزنا أحد المحبين أنه هام بمحبوبته حتى حلَّ به المرض والنقش هو: "س ق م ر ي ز د ب ح ب ب ر ب ت / ه ا م (عشقا) يزيد بحب ربت" (العبد الله، 2017، نق 266؛ الذبيب، 2017، نق 81). وعند تحليل كلمات هذا النقش لغوياً نجد كلمة (س ق م / سقم) والسقم في اللغة: هو "المرض، وقد سَقِمَ وسَقُمَ سَقَمًا وسَقَمًا وسَقَامًا وسَقَامَةً يَسْقُمُ، فهو سَقِيمٌ" (ابن منظور، د.ت، مادة سقم)، وكذلك وردت كلمة (ح ب ب / حب)، وفي هذا إيضاح بيّن من كاتبه أن السبب في مرضه هو حبه المفرط لمحبوبته، والترجمة اللغوية لسياق النص، كما ذكرها الذبيب، هي هام؛ لأن الهيام في لسان العرب كالجنون الناشئ من فرط العشق. والهائم: المتحيز. وهو، أيضاً، الذهاب على وجهه عشقاً، وقد هيّمه الحبُّ، ورجل هيمان: مُحِبٌّ شديد الوجد، واستهيم فؤاده فهو مستهام الفؤاد أي مُذهبه (ابن منظور، د.ت، مادة هيم).

كما تسبب الحبُّ في إحلال المرض بمحب آخر وهو "ألم هدى (بن) منعم وتشوق" (البقاوي، 2021، ص. 224). وصف هدى هنا حالته الصحية بكلمات مختصرة تفيدنا بأنه تألم من شدة الاشتياق، ولعله يقصد الألم النفسي الناتج من الذكريات والحنين للأوطان حيث تقيم المحبوبة.

شكل 18: صورة للنقش التمودي هدى (البقعاوي، 2021، ص.224)



ومن الألفاظ اللغوية التي تُعبر عن آلام الحب وأوجاعه استخدام التمودي للفظ (ق ر ح/قرح)، وعند البحث عن معناه لغوياً نجد أن "قرح: القرخ والقرخ، لغتان: مما يجرح الجسد ومما يخرج بالبدن؛ وقيل القرخ والآثار، والقرخ والألم.... وكأنَّ القرخ ألم الجراح، وكأنَّ القرخ الجراح بأعيانها" (ابن منظور، د.ت، مادة قرح)، وقد جاءت هذه اللفظة في نقش دعوي يعود لهاني حيث كتب: "ه غ م د ا ت م و د د ل ه ن ا ق ر ح/يا (المعبود) غمد أتم العشق (الحب) بواسطة هاني المكلوم" (الذبيب، 2014) (لوحة:30)، وهنا نعت ووصف هاني نفسه بالمكلوم من الحب والعشق (الذبيب، 2014، نق87)، فقد شعر بجراح حبه وآلمته نفسياً حتى بدت تظهر عليه؛ مما دفعه إلى اللجوء إلى معبوده طالباً المساعدة في إتمام وكمال قصة حبه.

3.4. العقم

بعد العقم من منغصات الحياة الزوجية حيث يؤثر على علاقة الحب بين الأزواج، فبينما كان يظن المحبون أن حبه قد سار على ما يرام ووثقوه بعري الزواج إلا أنهم فوجئوا بأفة من آفات المحبة بعد الزواج وهي آفة العقم. ومن ذلك ما نجده عند المدعو حتات وهو يُعبر عن رغبته الشديدة إلى الذرية في نصه:

"ح ت ت ت ش (و) ق ذ ر ت/حتات اشتاق (إلى) ذرية" (الذبيب، 2014، نق51؛ الذبيب، 2017a، نق32). ويتضح من نقش حتات أنه مصاب بالعقم وبقي فترة ليست بالقصيرة بعد الزواج دون أن يرزق بأطفال؛ فدفعته أشواقه إلى كتابة نصه. ولم يكن حتات هو الحالة الوحيدة المصاب بالعقم في منطقة حائل؛ إذ نجد في نقش آخر لثمودي مجهول الاسم حيث طال عليه الانتظار وضاعت عليه نفسه من خلو حياته من الذرية؛ فتوجه إلى معبوده طالباً الرزق وحدد نوعه الرزق بالعيال والنقش هو: "ه ن ه ي ع ي ل/أيها (المعبود) نهي العيال أي ارزقني عيالاً" (الذبيب، 2017b، نق108).

ومن السمات الاجتماعية المميزة للمجتمع في منطقة حائل ما ظهر في نقوش المقربين -سواء أكانوا أهلاً أم رفاقاً- من الدعاء لأفراد آخرين بالرزق بالذرية وهذه النقوش هي: "ه ر ض و ه ب ل ه ن د م ت م ل م ع و ص /يا (المعبود) رضو هب لهند حملاً من عوص" (العبد الله، 2017، نق14)، و "ه ر ض و ه ب ل ش ه م و

ل د/يا (المعبود) رضو هب لشهم ولد" (العبد الله، 2017، نق57)، و "ه ر ض و ب ك ر ل ن ح ل م ه م ر/يا (المعبود) رضو أولاد (ذرية) لنوح من همار" (العبد الله، 2017، نق206؛ الذيب، 2017b، نق83)، ومن الملاحظ على هذه النقوش أن جميع الأقارب توسلوا للمعبود رضو طلباً للذرية دون غيره من المعبودات.

4.4. الإيذاء

قد تنقلب عاطفة الحب إلى كراهية وبغضاء حين يصاب المحب بالحبية؛ فمن بين المحبين من تأذى من الحب، ويكفي؛ لنفهم ذلك أن نقراً ونفسر هذا النقش: "ب ن ه ي ك ف ع و ل ل و د د/يا (المعبود) نهي كف عول عن الحب" (الذيب، 2014، نق81)، يتضح من النقش أن عولاً وقع في الحب ووصل إلى مرحلة تعطل فيها عقله وانشغل بالتفكير المستمر في المحبوبة، وجانب مباشرة أمور حياته الأخرى بشكل أصبح واضحاً عليه ومُلاحظاً بجلاء من قبل المقربين منه؛ مما جعل صاحب النقش (ومن الممكن أن يكون أحد أفراد أسرته أو رفاقه) يكتب هذا الدعاء؛ لوقفه عن حبه فيعود طبيعياً كسابق عهده.

وإن كان عول لم يشعر بضرر هيامه وعشقه على نفسه، فهناك مُحب آخر استشعر وتألم من شدة حبه وعشقه وضافت عليه نفسه؛ لتكون المفاجأة في ذهابه لمعبوده وطلبه طلباً لم نجده عند غيره من المحبين "ب ن ه ي ح س د و د/يا (المعبود) نهي أزل الحب" (الذيب، 2014، نق85). وكان دعاؤه، هنا، طلباً بإزالة الحب من الوجود؛ لأن تجربته الشخصية في الحب لم تكن موفقة؛ إذ فقد بسببه حبيبته، بل -فيما يبدو- مستقبله وحياته؛ لذا لم يجد بداً من دعاء المعبود نهي للقضاء نهائياً على الحب والعشق من الوجود (الذيب، 2014).

ومن صور الإيذاء بالدعاء، توجه بعض المحبات التموديات لمعبودهن رضو بأن يقتل محبوبهن، نحو: "ه ر ض ب ك اس د و ا ن ح ب ب ت/يا (المعبود) رض أقتل أسد وأنا حبيبة" (الذيب، 2000، نق14)، و "ه ر ض و ب ك و د ي ن م ز د ت/يا (المعبود) رضو أقتل ودي من زيادة" (الذيب، 2000، نق73). ويفسر الذيب (2000) هذين النصين بأن كلاً من أسد وودي كانا عاشقين لحبيبة وزيادة وغررا بهما، أو، ربما، كانا زوجين لهما وطلقاهما. وترى الباحثة أن هذا التفسير مقبول على الرغم من عدم ورود لفظة زوج أو حبيب أو عاشق، أو استخدام لفظ الحبيبة أو العاشقة؛ لأنه، على ما يبدو، كان السبب في عدم استخدام المرأة التمودية هذه الألفاظ، هو القيد الاجتماعي الذي يمنع الإناث من التصريح بحبهن.

وإن كانتا حبيبة وزيادة قد اختارتا أسهل الطرق للخلاص من الحبيب وهو الدعاء بالقتل، فهناك المحبة مالكة والتي فضلت بقاء حبيبها معذباً في حياته بإصابته بالجنون حتى يأنف منه المجتمع، ونقشها هو: "ه ر ض ا ر ك ق ن اس (ب) ن ه ن ل م ل م ل ك ت/يا (المعبود) رض جنن قن أوس بن نهان من مالكة" (الذيب، 2017b، نق138). وعندما نقارن بين نص مالكة ونصي حبيبة وزيادة، نجد أنها كانت أكثر تألماً؛ فقد تجرأت على ذكر اسم

حبيبها منسوباً إلى أبيه، ولم تذكره مفرداً أسوءً بالأخريات، ومن شدة إيذائه النفسي لها اختارت الجنون على القتل حتى تريح نفسها المعذبة وقلبها الواجف بالنظر إلى تبدل حال محبوبها (قن أوس) من العقل إلى الجنون.

شكل 19: صورة للنقش التمودي مالكة (الذبيب، 2017b، ص. 64)



وسيراً على نهج الدعاء بالمرض من أجل الانتقام، نجد هذا النقش: "ه ر ض س ق م ب ي ل م ح س ن/يا (المعبود) رض أمرض بي بواسطة حسن" (العبد الله، 2017، نق65). ويبدو أن هناك مانعاً حال دون ارتباط حسن بي والتمتع بحبها، ويتضح أن هذا المانع هو ظهور عاشق أو محبوب آخر غير حسن، نال التفاتة حسنة من بي، وعندما علم حسن بهذا تألم واتجه للمعبود رضو طالباً الانتقام، وحدد نوع الانتقام وهو المرض؛ لتعذيبها لفترة أطول ولإدراك حسن بأن المرض قد يطول التعافي منه في ذلك الزمن، والاحتمال الأكبر هو الوفاة به، وبالتالي لن تهنأ بي بحبها الجديد، وفي هذا تجسيد لحجم الصدمة التي شعر بها حسن عندما استغنت عنه بي وارتبطت بغيره.

ونستنتج مما سبق أن نقوش الدعاء على الأحبة تعكس وتُعبّر عن عمق الألم في أنفس المحبين؛ إذ لم يستطيعوا كتم هذا الشعور فكشفوه للإله وللعمامة، ولم تكن لهم القدرة على كبح جماح الألم، وكانت النتيجة انكشاف ستر حبههم وعشقهم بالدعاء على الأحبة.

5.4. الطلاق

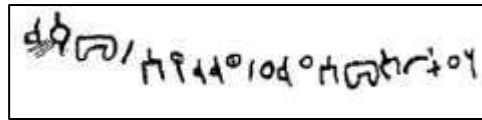
عاطفة الحب بين الأزواج في جميع الأسر لا تستمر على حالها -شأنهم شأن جميع الأسر على مر العصور- فمن الأزواج المتحابين من وقع بينهم الخلاف والشقاق، ولدينا حالة طلاق واحدة بين النقوش التمودية المسجلة على صخور منطقة حائل حتى الآن -على حد علم الباحثة- حيث أعلن كلا الزوجين وقوع طلاقهما، فالزوج المدعو زبال أخبر عن انفصاله بقوله: "ب س ت ر ن ا و ا ن ز ب ل/طردت (طلقت) رنا وأنا زبال" (الذبيب، 2014، نق65؛ الذبيب، 2017، نق46)، وجاء كذلك خبر الانفصال من الزوجة رنا بذات الطريقة اللغوية دون زيادة أو نقصان: "ب س ت ز ب ل ل ر ن ا/طردت (طلقت) زبال وأنا رنا" (الذبيب، 2014، نق66؛ الذبيب، 2017a، نق47). ويبدو أن الأمر لا يعدو إلا أن يكون انفصلاً حضارياً نفتقده هذه الأيام، فقررا التوافق لإعلان انفصالهما، وقطع علاقتهما ببعضهما،

غير أن كليهما مُصِرٌّ على أنه هو الذي قرر الطلاق، والتخلي عن زوجه (الذبيب، 2014)، ولعله لم يترح أحدهما إلى وجود الآخر، وضعفت عاطفة الحبّ بينها، ووصلت إلى درجة الانقطاع بإعلان الطلاق.

6.4. الرحيل

الفقد بسبب رحيل الأحبة من الأمور التي طرأت على حياة بعض المحبين الثموديين، ودلّلنا على ذلك ما ورد في النقش الدعوي: "ه ع ت ر س م س ع د ع ل و د د ي س ل م ق د/يا (المعبودة) عثر السماء ساعدني على حيي (فقد) رحل سالم" (الذبيب، 2014، نق95)، وكاتبته هي إحدى النساء التي انهارت بعد علمها بسفر حبيبها سالم فدعت معبودتها أن تصبرها، وتعينها على حبها (الذبيب، 2014). ويستدل من هذا النقش حجم وثقل الألم الذي حل بكاتبته، مما دفعها إلى التوجه للمعبودة طلباً للمساعدة فلا أحد قادر على جبر مصابها غير معبودتها؛ إذ فجّعها سالم برحيله فكان الفراق والبعد عليها موجعاً، ويدلّ نقشها، أيضاً، على المنزلّة الرفيعة التي شغلها سالم في قلبها فقد كانت تأمل دوام حضوره ووجوده، ومن آيات حبها الشديد له ذكّره في نفسها حين غيابه حتى ضاقت عليها السبل وتوجهت للمعبودة داعيةً وذاكرةً له باسمه في نفسها، وحرصت على عدم ذكر اسمها.

شكل 20: رسم تفرغي للنقش لامرأة ثمودية تطلب المساعدة من معبودها عثر السماء (الذبيب، 2014، ص. 85)



5. دلالات نقوش الحبّ الثمودية في منطقة حائل

من خلال دراسة نقوش الحبّ الثمودية نجد أنها تشتمل على مجموعة متنوعة من الدلالات الاجتماعية، واللغوية والثقافية والدينية والتي أثرت معلوماتنا حول عاطفة الحبّ في منطقة حائل قديماً، وبيان هذه الدلالات كما يلي:

1.5. الدلالة الاجتماعية

تظهر الدلالة الاجتماعية لنقوش الحبّ الثمودية في منطقة حائل في ارتباطها بظروف اجتماعية، فلولا تلك الظروف لما رأينا هذه الكتابات خالدة على الصخور.

وعند النظر والتأمل في نقوش المحبة الثمودية في منطقة حائل، ومحاولة ربطها بجغرافية المكان ومعرفة مدى تأثير التضاريس والبيئة الطبيعية على ظهور مثل هذا النوع من النقوش - نجد أن سكان حائل كانوا أهل قوافل وحماة لها أثناء مرورها بالأراضي التي استقروا فيها (الروسان، 1992) بما فيها منطقة حائل، والتي كانت تقع على طريق القوافل القديم (بار، وآخرون، 1998)، ويتميز سطح منطقة حائل بالتنوع ما بين تكوينات رملية، ومجموعة من الأودية، والرياض،

والسهول الفيضية (السبيت، وآخرون، 1983؛ الشمري، 2022)، ومرتفعات جبلية صالحة للنقش (كباوي، وآخرون، 1988)، ويندر وجود جبل أو مرتفع صخري يخلو من نقش ثمودي - باستثناء جبلي أجا وسلمى اللذين لا يسمح تكوينهما ونوعية صخورهما الجرانيتية بالنقش عليه- (الرويسان، 2021). هذه المقومات الطبيعية وفرت بالدرجة الأولى مادة خام صالحة للكتابة جاهزة للمحبين، ولنا أن نتخيل أن الثموديين أثناء مرورهم بالوديان رعاةً، أو مسافرين، أو حراساً على الطرق بأطراف الصحراء، وعلى قمم الجبال مؤدبين أعمالهم أمام هذه الطبيعة الساحرة - لا بد أن تتحرك مشاعرهم وأشجانهم نحو محبوباتهم ومعشوقاتهم وتصبح المحبة هاجس تفكيرهم الأكبر فيندفعوا للكتابة. ومن هنا، يمكن تبرير سبب انتشار نقوش المحبة في أماكن متفرقة من منطقة حائل، ولغلبة الحب على بقية العواطف الأخرى للمحبين، وأصبح الجهر بالحب لديهم سيلاً على الحياء والصمت، وسيطرة هذه العاطفة على عقولهم.

وقد اختلفت أشكال التعبير عن عاطفة الحب بين المحبين؛ نظراً لاختلاف النفوس البشرية في الاستعداد لقبول الحب، ونظرتها له، فنجد أنهم استعداءً من طلب منهم الزواج والاقتراح بالمحبة.

إن المحبين عندما نقشوا نصوصهم على الصخر كانت غايتهم الفضفضة النفسية عما يجول في صدورهم وأذهانهم؛ لعظم ما يشعرون به من حب وود وشوق وتوق وألم، وكذلك غايتهم الإخبار عن أسماء محبوباتهم لعل من يمر من هذا الطريق يقرأ ويحفظ وينقل الخبر لغيره؛ فينتشر بين الناس حتى يصل بالمناقلة الشفوية إلى المحبة - في عصر يفقد للتقنية ووسائل الاتصال - وتعلم أين وطأة قدم محبوبها أو إلى أين وصل. ولكن ما الأثر الاجتماعي الواقع على المجتمع من بعد كتابة هذه النقوش؟ إن الأثر من منظورنا يتجسد في تحول هذه النقوش على الرغم من قصرها وبساطتها إلى قصص وحكايات حب وعشق منها الناجح ومنها الفاشل، وبمعنى آخر، تحولها من مجرد نص إلى قدوة وعبرة؛ فمن سيعبر هذا الطريق سيقراً وسيتعرف على درجات الحب وألفاظه مثل: المحبة، والمودة، والاشتياق، والتوق، والعشق، وأن النهاية لهذه العاطفة بدرجاتها المختلفة ليست بالضرورة أن تكون سعيدة وهي الفوز بالمحبة أو المحبوب، فقد شهدنا من خلال تنقلنا قراءةً وعرضاً وتحليلاً بين النقوش على وقوع الإيذاء والانتقام والانفصال بين المتحابين. ومن جماليات الأثر الاجتماعي لنقوش المحبة أن فيها مواساة لمن حالت الظروف بينه وبين محبوبته في اللقاء بعد مروره وتنقله بين هذه النصوص في أثناء تنقله في أرض منطقة حائل قاصداً وجهته لأي مكان آخر، إذ سيجد تجربة حب مشابهة لتجربته فتخفف عليه أمله.

وقد يتساءل البعض عن صحة هذا الأثر وهل ما ذكرناه يُعد سليماً ومقبولاً من الناحية الاجتماعية والتاريخية؟ هنا نجيّب بنعم، خاصة عندما نعلم أن الخط الثمودي قد مرّ بمراحل تطور، حيث رد أحد الباحثين بداية استخدام الخط الثمودي المبكر فيما بين القرنين الثامن أو السابع قبل الميلاد إلى القرنين الثالث أو الثاني قبل الميلاد، ومن بعده الخط الثمودي المتوسط ويؤرخ بالفترة الواقعة بين القرن الثاني حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، ثم يأتي الخط الثمودي المتأخر والذي بدأ استخدامه في نهاية القرن الأول قبل الميلاد أو بداية القرن الأول الميلادي واستمر حتى نهاية القرن الرابع

الميلادي (الذبيب، 2019؛ Al-Theeb, 2018)، ونقوش المحبة التي تناولناها في هذا البحث قد كُتبت خلال هذه المراحل الثلاث، وتم عمل جدول بألفاظ المحبة وفترات كتابتها الزمنية أنظر أدناه (الجدول من إعداد الباحثة، وأما ما يخص تقدير الفترة الزمنية لكتابة النقوش وتحديدتها، فقد رُجع في ذلك إلى الذبيب (1999a، 2000، 2014)، ومسعود، (2021).

شكل 21: جدول يوضح ألفاظ المحبة وفترات كتابتها الزمنية

اللفظ	الفترة الزمنية	صاحب النقش	اسم المحبوبة
و د د	مبكرة	كلأ	قصبة
ح ب ب	متوسطة	م د ش ال بن م س	قينة
و د د	متوسطة	ودفان	يبعة
و د د	متوسطة	عباس	عطرة
م ت و ق	أواخر الفترة المتوسطة	دوي	صلدة
ت ش و ق	متأخرة	جمل	باسلة
ت ش و ق	متأخرة	سلامة بن ملط	زند بنت تيم اللات
ت ش و ق	متأخرة	زلجة	بقعة
م ح ب ب	متأخرة	دالف	مأتمه
ودد	لم يحدد	عم يثع	سلعت

يتضح من الجدول أن الفترة الزمنية الواقعة بين أقدم نقش ثمودي -مما ورد في بحثنا هذا- في الفترة المبكرة حتى أحدث النقوش في الفترة المتأخرة- هي عشرة قرون تقريباً، وهي فترة كافية جداً لحصول ووقوع الأثر الاجتماعي من نقوش المحبة على أفراد المجتمع الثمودي في منطقة حائل من خلال قراءتهم وإطلاعهم على محتوى النقوش طوال تلك القرون جيلاً بعد جيل.

ونستدل من نقوش المحبة الثمودية على وجود موروث اجتماعي حافظ عليه سكان حائل ومستمر إلى وقتنا الحالي، وتنعكس عبره مجموعة من العادات والتقاليد وإظهار البهجة والفرح والسرور، وهي حفلات الزواج والتي سماها (ز ف ف/زفاف) وورود هذه اللفظة تؤكد على إشهار الزواج ومشاركة بعض أفراد المجتمع في حضور هذه المناسبة السعيدة والتي ليست إلا تنويجاً لعاطفة الحب.

2.5. الدلالة اللغوية

تتميز نقوش الحبّ الثمودية باختصار لغوي مرهف الإحساس استطاع كاتبوها أن يجمعوا العديد من المشاعر والعواطف في كلمة واحدة، وترى الباحثة أن هذا الاختصار يخضع لضوابط اجتماعية تمنع أو تحضر على الحب الإفصاح عن المزيد من المعلومات حول حبيبته حفاظاً على سمعتها وخوفاً عليها، مكتفياً بذكر اسمه واسمها مفرداً. والجدير بالاهتمام في شأن الضوابط الاجتماعية المعمول بها، عند كتابة نقوش المحبة، وتأثيرها على الصياغة اللغوية للنقش - أنه ظل العمل بها وتطبيقها من الفترة المبكرة مروراً بالمتوسطة ووصولاً وانتهاءً بالفترة المتأخرة، ولم يخرج عن هذا الضبط الاجتماعي واللغوي سوى شخص واحد، هو سلامة بن ملط الذي صرح بنسبه ونسب حبيبته زند بنت تيم اللات، وتعتبر هذه حالة فردية شاذة ومتأخرة لا تؤثر في قيود الضبط الاجتماعي وقوانينه طالما لا توجد حالات أخرى مماثلة لها تصل لحد الظاهرة.

3.5. الدلالة الثقافية

من الناحية الثقافية نجد أن المحبين مثقفون ومتمكنون لغوياً في التعبير عما يخالج مشاعرهم، بدليل اختلاف ألفاظ الحبّ المستخدمة في التعبير بينهم، فمنهم من استخدم اللفظ (حبّ)، ومنهم من وجد لفظ (ودّ) أكثر مناسبة له، والبعض الآخر استخدم لفظ (اشتاق)، ومنهم من استعان بـ(متوق). وفي التعبير عن الخذلان، هناك من أحكم وصف شعوره باستخدام لفظ (كتم) و(مكلوم)، ومنهم من جسّد حاله المعاش بـ(سقم). ومن وجهة نظر الباحثة، أن هذا التنوع اللفظي قد أنزل الحبّ في منازل، وأعطاه الحق من الألفاظ والأحوال الدالة عليه، وألقى ضوءاً كاشفاً لحال اللغة عند أهل حائل القدماء.

والمستبعد لألفاظ الحبّ التي عبّر بها المحبين تجاه محبوباتهم على مر السنين من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي - يجد ألفاظاً دخلت إلى دائرة ألفاظ الحبّ المستخدمة من الفترة المبكرة حتى المتأخرة، ففي الفترة المبكرة استخدم اللفظ (ودّ) بينما في الفترة المتوسطة استمر استخدام اللفظ (ودّ) مع استخدام لفظ جديد وهو (حبّ)، ثم نشهد اختفاء هذين اللفظين كما بيّن في الجدول - أعلاه - وظهور لفظ (متوق) في أواخر الفترة المتوسطة، ومحجى لفظ (اشتاق) فيما بعد في نقوش المحبة في الفترة المتأخرة ولم تستخدم الألفاظ السابقة خلال هذه المرحلة؛ وهذا نتيجة للتطور الدلالي الذي يصيب تلك الألفاظ، وللتطور الدلالي هذا سببه؛ وهو اجتماعية اللغة وارتباطها بتطور المجتمع ونظريته. ونستنتج من خلال نقوش المحبة أن الثموديين في منطقة حائل كان لديهم وعي ثقافي طبي بأنواع الأمراض - بما يتناسب مع بيئتهم وظروفهم في ذلك الزمن - فقد ميّزوا بين الأمراض العقلية والنفسية ونقصد بها الجنون، وبين الأمراض العضوية ونقصد هنا العقم، وكانوا على علم بأن الجنون لا يمكن الشفاء منه فطلبوه من المعبود؛ انتقاماً من المحبوب واقتصاصاً منه، بينما العقم كان الشفاء منه يتحقق عن طريق الدعاء والتوسل والابتهاال للمعبود.

4.5. الدلالة الدينية

أما الدلالة الدينية لنقوش المحبة الثمودية، فهي تكمن في إعطاء صورة عن مجتمع متدين يؤمن بقوة معبوداته في سَوِّق الحب والسعادة وإتمامهما، وكذلك في قوتها وجبروتها في منع الحب وإزالته وإيذاء خائن المحبة، وثقة كل محب في معبوده في تحقيق ما يريد. وعلى الرغم من تعدد الآلهة التي ذُكرت في هذه النقوش، فلم نصل لمعبود واحد يمكن القول بأنه هو إله الحب عند سكان حائل. فعند قيامنا بالبحث في خصائص هذه المعبودات وصفاتها ومطالب المجتمع منها سواء داخل منطقة حائل أو خارجها وجدنا أن المعبود ذثن كانت مطالب المتضرعين منه هي: الماء، والتملك، والحفظ والوفاء، والاستماع، والإشهاد على الحب، واللفظ فيه، والخصب، والمدح، والخبز والكلأ، والشفاء للحيوانات. أما المعبود نهي، فقد تميز بصفات عديدة منها أنه المعبود المساعد، والواهب، والسميع، والقدير، والجريء، ومأنح السرور والسعادة، وجالب الأمطار، وإله الموت (طلفاح، 1993). ولم تتضح صفات المعبود عثر السماء إلا أنه يمكن ملاحظة عبادته عند الشعوب الأخرى فهو عثر نجمة الصباح عند البابليين والآشوريين، وعثرت لدى الكنعانيين، وعثر عند عرب الجنوب بصفته معبود ذكر، وعند السومريين عُرف بعثرت إله السماء ويرمز له بنجمة، وورد ذكره في النقوش السبئية، والمعينية، والقبتانية، واللحيانية، والتدمرية، والسريانية والحبشية (الروسان، 1992). ويعد المعبود رضو أحد المعبودات الرئيسة في حائل وغيرها من مناطق شمال الجزيرة العربية، ويعني اسمه الرضا والسعادة، واستمرت عبادته حتى العصر الجاهلي عند عرب الجاهلية (الروسان، 1992؛ والجراح، 2021). وأخيراً، نستنبط من نقوش المحبة أن من أعظم أسباب حصول الذرية واستمرار عاطفة الحب بين الأزواج هو الدعاء والابتهاال للمعبود.

6. النتائج

يمكن إجمال النتائج التي توصل إليها البحث فيما يلي:

- اختلاف الأحوال والمشاعر والعواطف النفسية عند المحبين، وأعطينا نقوشهم تصوراً عن عاطفة الحب وبيان لثمارها وآفاقها.
- كشف البحث عن وجود ألفاظ عديدة معبرة عن عاطفة الحب ما بين حب وود واشتياق وتوق وعشق استخدمت في منطقة حائل للتعبير عن مشاعره الذاتية.
- كشفت النقوش عن مكانة المرأة من منظور الرجل بوصفها الحبيبة والمعشوقة.
- بيّن البحث ارتباط مفهوم الحب في حائل بالاستقرار والسلام النفسي، واعتباره من الأرزاق ومتع الدنيا وهبة من هبات المعبودات، فابتهلوا لها وخصوها في دعائهم.

-تنوع صور الإيذاء من بعد محبة في أدعية المحبين.
-أثبت البحث ترابط المجتمع في منطقة حائل وتكاتفه من خلال التماسهم حاجة غيرهم من الأقارب والرفاق للحب والزواج، ومن منطلق مسؤوليتهم الاجتماعية تذكروهم وذكرهم في دعائهم، كما نفعل اليوم بالدعاء للغير في ظهر الغيب.
-بينت لنا نقوش الحب التمودية دلالات عديدة عن الحياة الاجتماعية، واللغوية، والثقافية، والدينية للمجتمع التمودي الحائلي.

مراجع البحث

- أسكوي، خالد محمد عباس. (2009). دراسة تحليلية لرسوم صخرية ونقوش تمودية من طريق بمنطقة عسير جنوبي المملكة العربية السعودية. *أدوماتو*، (20)، 71-80.
- أسكوي، خالد محمد، والمزني، عابض،، والتمائي، سليم،، والقحطاني، سيف،، ورجب، عزام،، والزامل، فرحان. (2006). المسوحات الأثرية في وادي العقيق جنوب المدينة المنورة، 1422هـ. *مجلة أطلال*، (19)، 95-116.
- أسكوي، خالد محمد. (2008). المدينة المنورة منبع الحضارات: المسوحات الأثرية في المدينة المنورة خلال الأعوام 1421هـ-1424هـ. *في ندوة المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية-النشأة والتطور*. (ص ص 251-262). مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية.
- الأنصاري، عبد الرحمن الطيب،، يوسف، فرج الله أحمد. (2005). *حائل ديرة حاتم*. دار القوافل للنشر والتوزيع. الرياض.
- الأهواني، أحمد فؤاد. (2022). *الحب والكراهية*. الناشر مؤسسة هنداوي.
- بار، بيتر و زارنس، جوريس،، والبراهيم، محمد،، وويتشتر، جون،، وجيرارد، أندرو،، وكلاكرك، كريستوفر،، والبدر، حمد،، وميد، مارتين بيد. (1998). التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشمالية 1397هـ/1977م. *مجلة أطلال*، (2)، 31-58.
- البري، هائل مضفي،، والعزام، صبحي محمود. (2015). الزواج عند العرب قبل الإسلام دراسة تاريخية في القواعد والمراسيم والطقوس. *المجلة الأردنية للتاريخ والآث*، 9، (1)، 1-29.
- البقعاوي، بدر محمد. (2021). *النقوش التمودية والرسوم الصخرية في محافظة بقاء دراسة توثيقية وصفية*. منشورات المجلة العربية، الرياض.

- الجراح، محمد عبد الكريم. (2021). آلهة المطر في النقوش العربية الشمالية دراسة مقارنة مع مرويات من الشعر العربي حتى بداية ظهور الإسلام. *أدوماتو*، (43)، 29-40.
- الحاج، علي عطا الله.، والنعيمات، سلامة صالح. (2020). الحياة الاجتماعية عند "الصفويين والتموديين" كما صورتها كتاباتهم. *المجلة الأردنية للتاريخ والآثار*، 14، (3). 47-89.
- الدسوقي، خالد طه. (1976). قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش. *مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية*، (6)، 251-296. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (2014). دراسات فردريك وينيت لنقوش ثمودية من منطقة حائل: دراسة تحليلية. *قراءات دراسات بحثية تصدر عن الوحدات التأسيسية في إدارة البحوث 1*. نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض.
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (1999a). *نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية*. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض.
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (1999b). *نقوش عربية شمالية من جبل أم سلمان بمحافظة حائل، المملكة العربية السعودية*. مجلة الآداب، 11، (2)، 305-398. جامعة الملك سعود
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (2017a). الحياة الاجتماعية قبل الميلاد في ضوء النقوش التمودية في منطقة حائل. *قراءات دراسات بحثية تصدر عن الوحدات التأسيسية في إدارة البحوث 9*. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض.
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (2017b). *النقوش الدعوية في الكتابات التمودية بمنطقة حائل - المملكة العربية السعودية*. *قراءات دراسات بحثية تصدر عن الوحدات التأسيسية في إدارة البحوث 10*. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض.
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (2019). *الكتابات القديمة في المملكة العربية السعودية*. كتاب *المجلة العربية 266*. الرياض.
- الذبيب، سليمان عبد الرحمن. (2000). *دراسة لنقوش ثمودية من جبة بحائل المملكة العربية السعودية*. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض.

- الروسان، محمود محمد. (1992). *القبائل التمودية والصفوية دراسة مقارنة (ط2)*. جامعة الملك سعود. الرياض.
- الرويسان، سعد عبد الرحمن. (2021). *الألبوم المصور للآثار والعمارة بمنطقة حائل. سلسلة دراسات أثرية محكمة رقم (66)*. هيئة التراث، وزارة الثقافة، الرياض.
- السييت، عبد الرحمن سبيت.. والفراء، طه عثمان.. والهواري، عبد الرحمن سعود. (1983). *منطقة حائل. مجلة الدارة، 8 (3)، 74-102*.
- السعيد، سعيد فايز إبراهيم. (2003). *العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض*.
- السناني، رحمة عواد أحمد. (2021). *المعبود رضو بين النقوش التمودية والصفوية (دراسة مقارنة). مجلة العلوم العربية والإنسانية، 14 (4)، 1955-1997. جامعة القصيم*.
- الشتلة، إبراهيم يوسف. (1980). *التموديون. مجلة الدارة، 5 (4)، 184-198*.
- الشمري، بشير عبيد. (2022). *المقومات الجغرافية للسياحة الطبيعية بمنطقة حائل. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، 6 (6)، 146-165. المركز القومي للبحوث، غزة*.
- الطلحي، ضيف الله مضيف.. فياض، سلامة أحمد. (2022). *الرسوم الصخرية في المليحية (ط1)*. الناشر المؤلف. الرياض.
- طفاح، أحمد سالم أحمد. (1993). *الآلهة عند التموديين [رسالة ماجستير، جامعة اليرموك]*. الأردن.
- طيران، سالم أحمد. (2004). *أهمية النقوش الكتابية القديمة كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام. مجلة أبحاث اليرموك. 20 (2 ب)، 1137-1168. جامعة اليرموك، الأردن*.
- طيران، سالم أحمد. (2005). *المظاهر الحضارية للعرب قبل الإسلام- الكتابة. في: الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية. المجلد الأول. الجنود والبدويات (ص ص 584-605)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس*.
- العبد الله، عبد السلام محمد. (2017). *نقوش تمودية من جبل أم سنان في منطقة حائل دراسة توثيقية وتحليلية. داره الملك عبد العزيز، الرياض*.
- عبد الله، محمد حسن. (1980). *الحب في التراث العربي. في سلسلة عالم المعرفة 36. المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت*.

- العتيبي، سعيد.. وسندي، أنس.. وسعد، عبد العزيز.. والقحطاني، سالم..، والتميمي، فهد..، والظفيري، فهد. (2020). تقرير المسح الأثري لسوق عكاظ (1438/5/14-4/30هـ/2017م). *مجلة أطلال*، 30، 93-105.
- العتيبي، عبد الله عويض. (2022). التأثيرات الطيبة للشرق الأدنى القديم في اليونان حتى عام 323 ق.م - دراسة تاريخية حضارية. *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*. 64. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - عمادة البحث العلمي. 269-372.
- عريش، منير.. وروبان، كريستيان.. والعريبي، عبد العزيز الحماد..، والقحطاني، سالم..، وشوفالييه، أنيس..، وبروليتا، أليسيا.. وبوليakov، شارلي. (2022). تقرير الموسم الأول لأعمال البعثة السعودية الفرنسية المشتركة في محافظة القويعة (1437هـ/2015م). *مجلة أطلال*، 31، 93-105.
- العريفي، فهد العلي. (1982). *لمحات عن منطقة حائل. سلسلة هذه بلادنا (ط 1)*. جامعة الملك سعود.
- العريبي، عبد العزيز.. والجبرين، فيصل..، وأبا حسين، بدر..، والمطيري، منصور..، والجريد، سلمان..، والحري، فهد. (2022). تقرير مبدئي عن مسح منطقة القصيم (الموسم الثالث 1440هـ/2018م). *مجلة أطلال*، 32، 113-137.
- العمير، عبد الله إبراهيم..، والذبيب، سليمان عبد الرحمن. (1997). *النقوش والرسوم الصخرية بالجواء في منطقة القصيم. مجلة الدارة*، 23 (2)، 107-211.
- القدرة، حسين محمد..، والزعبي، مهدي عبد الكريم..، والمعاني، سلطان عبد الله. (2013). *الأقوام والشعوب في النقوش الصفوية. مجلة جامعة الملك سعود: السياحة والآثار*، 25 (2)، 135-148.
- كباوي، عبد الرحمن..، والزهراني، عبد الرحمن..، وخان، مجيد..، والمبارك، عبد الرحيم..، والسبهان، إبراهيم. (1988). *حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية الموسم الثالث سنة 1406هـ. مجلة أطلال*، 11، 71-92.
- كفافي، زيدان عبد الكافي. (2017). *تاريخ شبه الجزيرة العربية وآثارها قبل الإسلام (ط 1)*. مركز عبد الرحمن السديري الثقافي.
- المخلافي، عارف أحمد إسماعيل. (2015). *الدلالات الحضارية لألفاظ المعارف في الكتابات العربية الشمالية القديمة (نماذج مختارة)*. *مجلة الدراسات الاجتماعية*، 43، 239-270. جامعة العلوم والتكنولوجيا

مسعود، فايز أنور عبد المطلب. (2020). الأمراض من خلال النقوش التمودية. دراسات في آثار الوطن العربي. حولية الاتحاد العام للآثارين العرب، 23، 300-331.

مسعود، فايز أنور عبد المطلب. (2021). دراسة لنقوش ثمودية غير منشورة من جبل فزدة الشموس بمنطقة حائل. مجلة الاتحاد العام للآثارين العرب. 22، (2)، 229-256.

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. (ت. 711هـ، ط. د.ت). لسان العرب. دار صادر. بيروت.

نعمي، ليلي، وأرنو، ثاي، وبوسا، جي، وبراون، جي، وفايدي، بي دنتزر، ورجت، جي بي، وساشت، أي. (2006). تقرير عام 2003م، الموسم الثالث للمشروع الأثري الفرنسي السعودي بمدائن صالح. مجلة أطلال، 19، 167-190.

- Abd Allāh, Muḥammad Ḥasan. (1980). alḥubb fī al-Turāth al-‘Arabī. Silsilat kutub thaqāfiyah Shahrīyat yuṣḍiruhā al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wa-al-Funūn wa-al-Ādāb. al-Kuwayt.
- Al-‘Abd Allāh, ‘Abd al-Salām Muḥammad. (2017). Nuqūsh Thamūdīyah min Jabal Umm snmān fī minṭaqat Ḥā’il dirāsah tawthīqīyah wa-tahlīlīyah. Dārat al-Malik ‘Abd al-‘Azīz. al-Riyāḍ.
- Al-Ahwānī, Aḥmad Fu’ād. (2022). alḥubb wālkrāhyh. al-Nāshir Mu’assasat Hindāwī.
- Al-Ajrami, Muna Alhaj Saleh. (2022). The Word Thamud: An Etymological-Referential Study. Revista Al-Andalus. 34. Hassiba Benbouali University of Chlef- Algeria. 1-26.
- Al-Anṣārī, ‘Abd al-Raḥmān al-Ṭayyib, Yūsuf, Faraj Allāh Aḥmad. (2005). Ḥā’il Dīrah Ḥātim. Dār al-Qawāfil lil-Nashr wa-al-Tawzī‘. al-Riyāḍ.
- Al-‘Arīfī, Fahd al-‘Alī. (1982). Lamahāt ‘an minṭaqat Ḥā’il. Silsilat Hādhihi bilādunā. Ṭ1. Maṭābi‘ Jāmi‘at al-Malik Sa‘ūd.
- Al-‘Arīnī, ‘Abd al-‘Azīz wa al-Jibrīn, Fayṣal wa Abā Ḥusayn, Badr wa al-Muṭayrī, Maṣṣūr wa al-jarīd, Salmān wa al-Harbī, Fahd. (2022). taqrīr mabda’ī ‘an Mash’ minṭaqat al-Qaṣīm (al-Mawsim al-thālith 1440h / 2018m). aṭlāl. 32. taṣdur ‘an Hay’at al-Turāth bi-Wizārat al-Thaqāfah. 113-137.
- Al-Baq‘āwī, Badr Muḥammad. (2021). al-nuqūsh al-Thamūdīyah wa-al-rusūm al-ṣakhrīyah fī Muḥāfazat bq‘ā’ dirāsah tawthīqīyah waṣfīyah. Manshūrāt al-Majallah al-‘Arabīyah. al-Riyāḍ.
- Al-barī, Hāyil mdfy wa al-‘Azzām, Ṣubḥī Maḥmūd. (2015). al-zawāj ‘inda al-‘Arab qabla al-Islām dirāsah tārikhīyah fī al-qawā’id wa-al-marāsīm wa-al-ṭuqūs. al-Majallah al-Urdunīyah lil-tārikh wa-al-āthār. 9 (1). ‘Imādat al-Baḥth al-‘Ilmī. al-Jāmi‘ah al-Urdunīyah. 1-29.
- Al-Dasūqī, Khālīd Ṭahā. (1976). qawm Thamūd bayna Riwayāt al-mu’arrikhīn wmtwyāt al-nuqūsh. Majallat Kullīyat al-lughah al-‘Arabīyah wa-al-‘Ulūm al-ijtimā’īyah. 6. Jāmi‘at al-Imām Muḥammad ibn Sa‘ūd al-Islāmīyah. al-Riyāḍ. 251-296.

- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (2000). dirāsah li-nuqūsh Thamūdīyah min jubbh bi-Hā’il al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. Maktabat al-Malik Fahd al-Waṭanīyah. al-Riyāḍ.
- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (2014). Dirāsāt Firidrīk wynynt li-nuqūsh Thamūdīyah min minṭaqat Hā’il : dirāsah taḥlīlīyah. qirā’āt Dirāsāt baḥthīyah taṣdur ‘an al-waḥadāt al-ta’sīsīyah fī Idārat al-Buḥūth. al-‘adad al-Awwal. Markaz al-Malik Fayṣal lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt al-Islāmīyah. al-Riyāḍ.
- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (2019). al-kitābāt al-qadīmah fī al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. Kitāb al-Majallah al-‘Arabīyah 266. al-Riyāḍ.
- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (a1999). Nuqūsh Thamūdīyah min al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. Maktabat al-Malik Fahd al-Waṭanīyah. al-Riyāḍ.
- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (a2017). al-ḥayāh al-ijtimā’īyah qabla al-Mīlād fī ḍaw’ al-nuqūsh al-Thamūdīyah fī minṭaqat Hā’il. qrā’āt9. Markaz al-Malik Fayṣal lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt al-Islāmīyah. al-Riyāḍ.
- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (b1999). Nuqūsh ‘Arabīyah shmālyh min Jabal Umm Salmān bi-Muḥāfaẓat Hā’il, al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. Majallat Jāmi‘at al-Malik Sa‘ūd. 11. al-Ādāb 2. al-Riyāḍ. 305-398.
- Al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (b2017). al-nuqūsh al-da‘awīyah fī al-kitābāt al-Thamūdīyah bi-Minṭaqat ḥā’il-al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. qrā’āt10. Markaz al-Malik Fayṣal lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt al-Islāmīyah. al-Riyāḍ.
- Al-Ḥājj, ‘Alī ‘Aṭā Allāh wa al-Nu‘aymāt, Salāmah Ṣāliḥ. (2020). al-ḥayāh al-ijtimā’īyah ‘inda "alṣfwyyn wāthmwdyyn" kamā ṣūratuhā ktābāthm. al-Majallah al-Urdunīyah lil-tārīkh wa-al-āthār. 14 (3). 47-89.
- Al-Jarrāḥ, Muḥammad ‘Abd al-Karīm. (2021). Ālihat al-maṭar fī al-nuqūsh al-‘Arabīyah al-Shamālīyah dirāsah muqāranah ma’a Marwīyāt min al-shi’r al-‘Arabī ḥattā bidāyat zuḥūr al-Islām. adwmātw. 43. Markaz ‘Abd al-Raḥmān al-Sudayrī al-Thaqāfī. 29-40.
- Al-Mikhlaḥfī, ‘Ārif Aḥmad Ismā’il. (2015). al-dalālāt al-ḥaḍārīyah li-alfāz al-Ma‘ārif fī al-kitābāt al-‘Arabīyah al-Shamālīyah al-qadīmah (namādhij mukhtārah). Majallat al-Dirāsāt al-ijtimā’īyah. 43. Jāmi‘at al-‘Ulūm wa-al-Tiknūlūjiyā. 239-270.
- Al-quḍrah, Ḥusayn Muḥammad wa al-Zu‘bī, Maḥdī ‘Abd al-Karīm wa al-ma‘ānī, Sulṭān ‘Abd Allāh. (2013). al-aqwām wa-al-shu‘ūb fī al-nuqūsh al-Ṣafawīyah. Majallat Jāmi‘at al-Malik Sa‘ūd. 25. al-Siyāḥah wa-al-āthār 2. al-Riyāḍ. 135-148.
- Al-Rūsān, Maḥmūd Muḥammad. (1992). al-qabā’il al-Thamūdīyah wālṣfwyḥ dirāsah muqāranah. ṭ2. Maṭābi‘ Jāmi‘at al-Malik Sa‘ūd. al-Riyāḍ.
- Al-Ruwaysān, Sa’d ‘Abd al-Raḥmān. (2021). al’lbwm al-muṣawwar lil-Āthār wa-al-‘imārah bi-Minṭaqat Hā’il. Silsilat Dirāsāt atharīyah Maḥkamat raqm (66). Hay’at al-Turāth. Wizārat al-Thaqāfah. al-Riyāḍ.
- Al-Sa’id, Sa’id Fāyiz Ibrāhīm. (2003). al-‘Alāqāt al-ḥaḍārīyah bayna al-Jazīrah al-‘Arabīyah wa-Miṣr fī ḍaw’ al-nuqūsh al-‘Arabīyah al-qadīmah. Maktabat al-Malik Fahd al-Waṭanīyah. al-Riyāḍ.
- Al-Shammarī, Bashīr ‘Ubayd. (2022). al-Muqawwimāt al-jughrāfiyah lil-Siyāḥah al-ṭabī’īyah bi-Minṭaqat Hā’il. Majallat al-‘Ulūm al-Insānīyah wa-al-Ijtimā’īyah. 6 (6). al-Markaz al-Qawmī lil-Buḥūth. Ghazzah. 146-165.
- Alshltl, Ibrāhīm Yūsuf. (1980). althmwdywn. Majallat al-Dārah. 5 (4). Dārat al-Malik ‘Abd al-‘Azīz. 184-198.

- Al-Sinānī, Raḥmah ‘Awwād Aḥmad. (2021). al-Ma‘būd rdw bayna al-nuqūsh al-Thamūdīyah wālshfwyh (dirāsah muqāranah). Majallat al-‘Ulūm al-‘Arabīyah wa-al-insānīyah. 14 (4). Jāmi‘at al-Qaṣīm. 1955-1997.
- Al-Subayt, ‘Abd al-Raḥmān Subayt wa al-Farrā’, Ṭāhā ‘Uthmān wa al-Hawwārī, ‘Abd al-Raḥmān Sa‘ūd. (1983). minṭaqat Ḥā’il. Majallat al-Dārah. 8 (3). Dārat al-Malik ‘Abd al-‘Azīz. al-Riyād. 74-102.
- Al-Ṭalhī, Dayf Allāh mdyf, Fayyād, Salāmah Aḥmad. (2022). al-rusūm al-ṣakhrīyah fī almiḥyḥ. T1. al-Riyād.
- Al-Talhi, Dhaifallah. (2017). Yatib Its Environs and Rock Art. Adumatu. (35). Abdulrahman Al-sudairy Cultural Centre. 7-16.
- Al-Theeb, Solaiman. (2018). Evolution of the Ḥā’il Thamudic Inscriptions. Abgadiyat. 13 (13). Scientific referred annual journal issued by the Calligraphy Center. Bibliotheca Alexandrina. 46-56.
- Al-‘Umayr, ‘Abd Allāh Ibrāhīm wa al-Dhuyayb, Sulaymān ‘Abd al-Raḥmān. (1997). al-nuqūsh wa-al-rusūm al-ṣakhrīyah bāljaw’ fī minṭaqat al-Qaṣīm. al-Dārah. 23 (2). Dārat al-Malik ‘Abd al-‘Azīz. al-Riyād. 107-211.
- Al-‘Utaybī, ‘Abd Allāh ‘Uwayd. (2022). al-Ta’tḥīrāt al-ṭibbīyah lil-Sharq al-Adnā al-qadīm fī al-Yūnān ḥattā ‘ām 323 Q. M-drāsh tārikḥīyah ḥadārīyah. Majallat al-‘Ulūm al-Insānīyah wa-al-Ijtimā’īyah. 64. Jāmi‘at al-Imām Muḥammad ibn Sa‘ūd al-‘slāmyt-‘Imādat al-Baḥth al-‘Ilmī. 269-372.
- Al-‘Utaybī, Sa‘īd wa Sindī, Anas wa Sa‘d, ‘Abd al-‘Azīz wa al-Qaḥṭānī, Sālim wa al-Tamīmī, Fahd wa al-Ḍufayrī, Fahd. (2020). taqrīr al-Mash al-Atharī li-Sūq ‘Ukāz (30/4-14/5 / 1438h / 2017m). aṭlāl. 30. taṣdur ‘an Qiṭā’ al-Āthār wa-al-Matāḥif bi-Wizārat al-Siyāḥah. 93-105.
- Arīsh, Munīr wa Rūbān, Krīstīyān wa al-‘Arīnī, ‘Abd al-‘Azīz al-Ḥammād wa al-Qaḥṭānī, Sālim wa shwfālyḥ, anāyys wa brywlytā, alysyā wa bwlyākfwf, shārly. (2022). taqrīr al-Mawsim al-Awwal li-a‘māl al-Ba’tḥah al-Sa‘ūdīyah al-Faransīyah al-mushtarakah fī Muḥāfazat al-Quway‘īyah (1437h / 2015m). aṭlāl. 31. taṣdur ‘an Hay’at al-Turāth. Wizārat al-Thaqāfah. 93-105.
- Askūbī, Khālīd Muḥammad ‘Abbās. (2009). dirāsah taḥlīlīyah lrswm ṣakhrīyah wnqwsḥ Thamūdīyah min ṭryb bi-Minṭaqat ‘Asīr Janūbī al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. adwmātw. 20. Markaz ‘Abd al-Raḥmān al-Sudayrī al-Thaqāfī. 71-80.
- Askūbī, Khālīd Muḥammad wa al-Muzaynī, ‘Āyīd wa altymā’y, Sālim wa al-Qaḥṭānī, Sayf wa Rajab, ‘Azzām wa al-Zāmil, Farḥān. (2006). almswhāt al-Atharīyah fī Wādī al-‘aqīq Janūb al-Madīnah al-Munawwarah, 1422h. aṭlāl. 19. taṣdur ‘an Wakālat al-Āthār wa-al-Matāḥif bi-Wizārat al-Tarbiyah wa-al-ta’līm. al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. 95-116.
- Askūbī, Khālīd Muḥammad. (2008). al-Madīnah al-Munawwarah manba’ al-ḥadārāt : almswhāt al-Atharīyah fī al-Madīnah al-Munawwarah khilāl al-a‘wām 1421h-1424h. Nadwat al-Madīnah fī al-waṭan al-‘Arabī fī daw’ alāktshāfāt al’āthāryt-ālnsh’h wa-al-taṭawwur. Mu’assasat ‘Abd al-Raḥmān al-Sudayrī al-Khayrīyah. 251-262.
- Bārr, Bītīr wa Zārīns, jwrys wa al-Barāhīm, Muḥammad wa wytshtr, Jūn wa jyrārd, andrw wa Klārḥ, krystwfr wa al-Badr, Ḥamad wa Mīd, Mārtīn bi-yad. (1998). al-taqrīr al-mabda’y ‘an al-marḥalah al-thānīyah li-mash al-Minṭaqah al-Shamālīyah 1397h / 1977M. aṭlāl. 2. t2. taṣdur ‘an al-Wakālah al-Musā’adah lil-Āthār wa-al-Matāḥif bi-Wizārat al-Ma’ārif al-Sa‘ūdīyah. 31-58.

- El-Tonssy, Mohamed A. (2019). Archaeological Study of Unpublished Rock Art Inscriptions at Taif. Studies on the Arab World monuments. (22). published by The General Union of Arab Archaeologists Continued to Associate of arab universities. 21-40.
- Ibn manzūr, Abī al-Faḍl Jamāl al-Dīn Muḥammad ibn Mukarram al-Afrīqī al-Miṣrī. (D. t). Lisān al-‘Arab. al-mujallad al-Awwal wa-al-thānī wa-al-thālith wa-al-‘āshir. Dār Ṣādir. Bayrūt.
- Kafāfi, Zaydān ‘Abd al-Kāfi. (2017). Tārīkh Shibh al-Jazīrah al-‘Arabīyah wa-āthāruhā qabla al-Islām. 1. Markaz ‘Abd al-Rahmān al-Sudayrī al-Thaqāfi.
- Kibāwī, ‘Abd al-Rahmān wa al-Zahrānī, ‘Abd al-Rahmān wkhān, Majīd wa al-Mubārak, ‘Abd al-Rahīm wa alsbhān, Ibrāhīm. (1988). Ḥaṣr wa-taṣjīl al-rusūm wa-al-nuqūsh al-ṣakhrīyah al-Mawsim al-thālith sanat 1406h. aṭlāl. 11. taṣdur ‘an al-Idārah al-‘Āmmah lil-Āthār wa-al-Matāhif bi-Wizārat al-Ma‘ārif. al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. 71-92.
- Mas‘ūd, Fāyiz Anwar ‘Abd al-Muṭṭalib. (2020). al-amrād min khilāl al-nuqūsh al-Thamūdīyah. Dirāsāt fi Āthār al-waṭan al-‘Arabī. 23 (23). Ḥawliyat al-Ittiḥād al-‘āmm lil-Āthārīyīn al-‘Arab. 300-331.
- Mas‘ūd, Fāyiz Anwar ‘Abd al-Muṭṭalib. (2021). dirāsah li-nuqūsh Thamūdīyah ghayr manshūrah min Jabal fzdḥ al-Shumūs bi-Minṭaqat Ḥā’il. Majallat al-Ittiḥād al-‘āmm lil-Āthārīyīn al-‘Arab. 22 (2). 229-256.
- Ministry of Municipal and Rural Affairs. (2019). Hail City Profile. Ministry of Municipal and Rural Affairs. Riyadh.
- Ni‘mī, Laylā wa arnw, thāy wa bwsā, Jī wa Brāwn, Jī wa Fāyidī, Bī dntzr wa rjt, Jī Bī wa sāsht, Ayy. (2006). taqrīr ‘ām 2003m, al-Mawsim al-thālith lil-mashrū‘ al-Atharī al-Faransī al-Sa‘ūdī bmdā’n Ṣāliḥ. aṭlāl. 19. taṣdur ‘an Wakālat al-Āthār wa-al-Matāhif bi-Wizārat al-Tarbiyah wa-al-ta‘līm. al-Mamlakah al-‘Arabīyah al-Sa‘ūdīyah. 167-190.
- Ṭayarān, Sālīm Aḥmad. (2004). Ahammīyat al-nuqūsh al-kitābīyah al-qadīmah ka-maṣdar li-Tārīkh al-Jazīrah al-‘Arabīyah fī ‘aṣr mā qabla al-Islām. Majallat Abḥāth al-Yarmūk. 20. (2 b). ‘Imādat al-Baḥth al-‘Ilmī wa-al-Dirāsāt al-‘Ulyā. Jāmi‘at al-Yarmūk. 1137-1168.
- Ṭayarān, Sālīm Aḥmad. (2005). al-Mazāhir al-ḥaḍārīyah lil-‘Arab qabla al-islām-al-kitābah. al-Kitāb al-Marjī‘ fī Tārīkh al-ummah al-‘Arabīyah. al-mujallad al-Awwal. al-judhūr wālbdayāt. al-Munazzamah al-‘Arabīyah lil-Tarbiyah wa-al-Thaqāfah wa-al-‘Ulūm. Tūnis. 584-605.
- Ṭilfāḥ, Aḥmad Sālīm Aḥmad. (1993). al-ālihah ‘inda althmwdyyn. Risālat mājistīr. Ma‘had al-Āthār wāl’nthrw bwlwjiyā. Qism al-nuqūsh. Jāmi‘at al-Yarmūk. al-Urdun.

Biographical Statement

معلومات عن الباحث

Dr. Eman Saad Ali Al-Nufaie is an assistant professor of (Ancient History) in the (Department of Social Sciences) (Faculty of Arts) at Taif University (Kingdom of Saudi Arabia). Dr. Al-Nufaie holds a doctorate in ancient history from Umm Al-Qura University in 2020. Her research interests include the ancient history of the Arabian Peninsula.

د. إيمان بنت سعد بن علي النفيعي أستاذ مساعد في (التاريخ القديم) في (قسم العلوم الاجتماعية) (بكلية الآداب) في جامعة الطائف (المملكة العربية السعودية). حصلت على درجة الدكتوراه في التاريخ القديم من جامعة أم القرى عام 1442هـ. تدور اهتماماتها البحثية حول تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم.

Email: eman.n@tu.edu.sa



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

Decomposition in Arabic spoken word recognition

Faisal Aljasser 

Department of English Language and Translation, College of Arabic Language and Social Studies, Qassim University, Buraydah, Saudi Arabia

Abstract

Previous research has shown that when a wordlikeness task is used, native Arabic speakers rate spoken nonwords with real roots more Arabic like than nonwords with pseudo roots. That is, they showed an ability to decompose the nonword and identify the embedded root. However, since the wordlikeness task is offline affording subjects unlimited processing time, and other studies used some online tasks that might be confounded, the question remains whether this is the result of a mere conscious process or a part of automatic natural spoken language processing. We investigate this question by comparing the processing time and accuracy rates between nonwords with real roots and nonwords with pseudo roots in an auditory lexical decision task. Native Arabic speakers were slower and less accurate in rejecting nonword with real roots. These findings suggest that automatic morphological decomposition in Arabic spoken word recognition precedes full lexical identification.

Keywords: Morphological processing; auditory lexical decision

المخلص

أظهرت الدراسات السابقة قدرة المتحدثين العرب على تمييز الكلمات غير الحقيقية التي تحوي جذورا حقيقية عن الكلمات غير الحقيقية التي لا تحوي جذورا حقيقية عندما يطلب منهم تقييم مدى تشابه هذه الكلمات غير الحقيقية مع كلمات حقيقية من اللغة العربية. وهذا يدل على ملاحظتهم لوجود الجذر والاعتماد عليه في تقييم الكلمة. ولكن بما أن تجربة تقييم الكلمات هي تجربة تمنح الكثير من الوقت فهي لا تظهر ما إذا كانت هذه القدرة هي عملية تحليل واعية للالفاظ أو جزءا من العملية الطبيعية التلقائية لإدراك الكلمة المنطوقة. يتم التحقق من هذا السؤال في البحث الحالي عن طريق قياس الوقت اللازم (و هو ما يقاس بالجزء من الألف من الثانية) والدقة؛ لاتخاذ قرار حيال كون اللفظ المسموع هو كلمة حقيقية أو غير حقيقية. وجدت الدراسة أن سرعة اتخاذ القرار ودقته يعتمدان على وجود جذر حقيقي في اللفظ المسموع؛ مما يدل على أن تحليل الكلمة والتعرف على الجذرها عمليتان طبيعيتان تلقائيتان في معالجة اللغة العربية تسبقان التعرف الكامل على الكلمة.

الكلمات المفتاحية: المعالجة الصرفية، تصنيف اللفظ المسموع

APA Citation:

Aljasser, F. (2023). Decomposition in Arabic Spoken Word Recognition. *Journal of Arabic Sciences & Humanities*, 17, (2), 161-172.



استلم في: 16-02-1445 / قبل في: 03-03-1445 / نُشر في: 14-04-1445

Received on: 01-09-2023/ Accepted on: 18-09-2023/ Published on: 29-10-2023

1. Introduction

Arabic morphology is non-concatenative in that words are mainly derived by mapping consonantal roots into vowel patterns (Holes, 1995). For example, the word for “worked” in Arabic is derived by mapping the root consonants /ʕML/ into the vowel pattern /-a-i-/ resulting in the word /ʕamil/. To derive the word “worker”, however, the same root is mapped into a different pattern (i.e., /fa:ʕil/)¹ resulting in the word /ʕa:mil/. Alternatively, instead of transforming the stem internally as in the case with Arabic words, affixation is the main method of word derivation in morphologically concatenative languages such as English. For example, the word “worker” is derived in a concatenative manner by adding the suffix “er” to the stem “work”.

However, a question that has been debated is how cognitively relevant are the morphological units (i.e., root and pattern) in the representation of the Arabic mental lexicon. Two main theories of Arabic morphology and lexical processing have been proposed. The first assumption put forward was that non-concatenative morphology is morpheme-based in that the root and pattern are represented and accessed during lexical processing (see McCarthy (1981) for the prosodic account of the morpheme-based theory). Alternatively, the opposing theory asserts that lexical processing in non-concatenative languages is stem-based (Benmamoun, 1999, 2003). The latter argument is that an Arabic word such as *muqaddim* “presenter” is not the result of mapping the root [qdm] into the pattern [mufaʕʕil] but rather the result of adding the prefix *mu-* to the imperative stem *qaddim*.

Each of these claims is congruent with a separate hypothesis of lexical representation and lexical processing. On the one hand, the morpheme-based theory is in the line with the decompositional hypothesis (Taft & Forster, 1975). This hypothesis suggests that words, particularly complex ones, are represented and accessed as separate morphemes. On the other hand, the full-listing hypothesis (Butterworth, 1983) lays the theoretical background for the stem-based theory. It adopts the view that words are not accessed or represented as separate morphemes but rather as whole units.

Several attempts have been made to provide evidence for morpheme-based lexical processing in Arabic. Pivotal work by Boudellaa and Marslen-Wilson merits review. For example, using the incremental masked priming task, Boudellaa and Marslen-Wilson (2005) set out to explore the time course of the availability of different types of processing information during lexical access in Arabic. Specifically, by manipulating Stimulus Onset Asynchronies (SOA), they wanted to learn if morphological (root and pattern) effects in Arabic emerge earlier than semantic or orthographic effects in visual word recognition. Their results suggested that both root and pattern effects were separable and preceded semantic and orthographic effects. However, the root effect was stronger than the pattern effect at all SOAs.

If lexical processing in Arabic is truly root-based then it stands that root productivity (family size) should have an effect on pattern processing. Boudellaa and Marslen-Wilson (2011) explored this assumption using masked and cross modal priming experiments. They found out that pattern priming was only successful in the context of a productive root.

Moreover, given the diglossic situation in Arabic, Boudellaa and Marslen-Wilson (Boudellaa & Marslen-Wilson, 2013) investigated whether the root effects still stand in dialectal Arabic as compared to standard Arabic. Using an auditory priming task, they demonstrated that both standard Arabic and dialectal Arabic show root and pattern effects.

Findings of the studies reviewed above were interpreted as good evidence that lexical processing in Arabic is morpheme-based with the root playing the central role. However, a closer look may suggest that this evidence may not be conclusive particularly for spoken word recognition. First, most of the studies investigating morphological processing in Arabic used priming tasks where

both the prime and target are visually presented. These may not provide comparable information about the root effect in spoken word recognition. That is, the ability to recognize and decompose the consonant root letters in a written word may not be replicated in the less reliable linear auditory signal. Similarly, even when cross-modal priming is used the target is still presented visually after an auditory prime.

Moreover, using auditory- auditory priming is not without problems as words sharing the root are typically related in meaning. Therefore, semantic priming may confound morphological priming. Attempting to tease apart, morphological effects from semantic ones Boudellaa and Marslen-Wilson (2013) compared priming in a condition where there was a transparent semantic relationship between the two words in the prime and target that share the same root (e.g. the root /jHD/ in the word /ja:hidun/ “witness” and the word /jaha:datun/ “testimony”) to another condition where there was an opaque semantic relationship between the two words sharing the root (e.g. the root /yRB/ in the word /yuru:bun/ “sunset” and the word /yari:bun/ “foreign”). Priming was comparable in both conditions. Boudellaa and Marslen-Wilson (2013) took the overt root priming effects in the absence of a transparent semantic relationship as evidence that priming effect in their study were purely morphological and root-based (see also Geary and Ussishkin (2019) for a similar attempt to isolate morphological priming effects from semantic effects in Hebrew). However, this is inconsistent with evidence from a distributed connectionist model (Plaut & Gonnerman, 2000). Plaut and Gonnerman (2000) conducted a simulation to compare the effect of semantic transparency on processing in a morphologically rich language that simulates Hebrew and a morphologically impoverished language that simulates English. In the network, priming of semantically opaque words was only observed in the morphologically rich language. However, in both languages semantic transparency resulted in more priming indicating to the unavoidable semantic confound. Besides, priming in the absence of semantic transparency cannot be categorically taken as evidence of morpheme-based processing in Semitic languages as compared to word-based processing in Indo-European languages. That is, although behavioural evidence on some Indo-European languages such as English and French show lack of priming in the absence of semantic transparency, research on German, another Indo-European stem-based language, revealed similar findings to Semitic languages. That is, similar to findings in Arabic and Hebrew morphological priming does show regardless of semantic relatedness (Baayen & Smolka, 2020; Smolka, Komlósi, & Rösler, 2009).

Taken together, it is apparent that one cannot solely rely on the priming task to specify structural roles for morphemes in the processing of spoken words in Semitic languages. In other words, most priming studies conducted to investigate morphological effects in Arabic were visual-visual in both the prime and target or auditory in the prime and the target is visual (see also Khateb, Asadi, Habashi, and Korinith (2022) for the role of the root in visual word recognition in Arabic using the eye-tracking task). These do not tap into morphological effects in spoken word recognition. In addition, even when only auditory stimuli is used (Boudellaa & Marslen-Wilson, 2013) the very nature of the priming task cannot totally exclude semantic confounds.

Recently, other paradigms have been used to investigate the role of the root morpheme in Arabic spoken language processing. For example, Aldholmi and Pycha (2023) used the silence replacement paradigm in two experiments to examine the role played by consonants and vowels in sentence processing in Arabic. Subjects were asked to listen to spoken sentences and repeat them. They found out that replacing consonants with silence inhibited recognition more than replacing vowels with silence. They also found that recognition increases when the stimuli has a high ratio of consonants to vowels. The authors interpreted their findings as good evidence that speech

processing in Arabic is mainly dependent on root consonants. These results showed clear influence for root consonants. However, since the silence placement paradigm involves a production task one may not accurately specify the locus of the root consonants' effect in this study. In other words, the root effect in the silence replacement on spoken word recognition cannot be isolated from its effect on any of the processes involved in speech production (Levelt, 1989; Levelt, Roelfs, & Meyer, 1999).

Alamri (2017) used the visual word paradigm with eye-tracking to investigate the effect of the root morpheme in Arabic spoken word recognition. In this paradigm, subjects listen to spoken words and select the target word by clicking on one of two or more pictures that are presented on a computer screen. Fixation location and duration are measured. Using two experiments, Alamri tried to isolate root effects from phonological and semantic effects by manipulating morphological, semantic and phonological relatedness of the competing pictures to the spoken word. The findings were mixed. That is, in the context of prefixed target words (e.g., /masbaḥ/ "swimming pool") it was found that root effects were independent of semantic effects. However, in the context of non-affixed words (e.g., /farjah/ "rug") their results were similar to those obtained in the connectionist simulation by Plaut and Gonnerman (2000) discussed above. That is, there was "a graded activation of morphologically relatives as a function of semantic transparency" (Alamri, 2017, p. 163)

Taken together, the evidence suggests that when real words are used it proves difficult to fully dissociate morphological effect from semantic ones. In addition, other lexical effects (e.g., neighbourhood density) may be stronger in word processing as compared to nonword processing. To eradicate these problems a task is needed that a) exclusively taps into the lexical processing involved in spoken rather than visual word recognition b) rules out semantic effects and strong lexical effects involved in real word processing c) and at the same time, similar to the priming task, examines online (automatic) not offline processing.

Using an auditory lexical decision ALD task (Goldinger, 1996) with nonword stimuli meets these conditions. The ALD task has the potential of showing if native Arabic speakers can decompose a nonword utterance into root and pattern online similar to priming tasks but without any semantic cues. Such findings will provide more reliable evidence whether morphological processing in Arabic is root-based or stem-based and whether an obligatory decomposition takes place prior to lexical access. Using nonwords has two advantages. First, it eradicates the problems of semantic priming. Second, even if we take for granted the validity of priming task in confining effects to morphological ones, the current study will show if root effects can be replicated in other tasks especially those in which sublexical level representation (using nonwords rather than lexical representation using real words) dominates (Vitevitch & Luce, 1998, 1999). Vitevitch and Luce maintain that lexical competition is only partially involved when processing nonwords because they do not initiate "direct contact with a single lexical unit" (Vitevitch & Luce, 1999, p. 376). Following this proposal, it is assumed here that using nonword stimuli will show that root effects are not merely the byproduct of semantic or lexical effects but rather the result of decomposing the nonwords into their constituent morphemes early in the course of recognition (Boudelaa, 2014)

Recently, Aljasser (2020) used nonword stimuli to explore whether Arabic speakers' processing of nonwords is root-based. However, the nonword stimuli were presented in a rating task. In their rating task subjects were asked to rate the nonwords based on their wordlikeness in Arabic. Although their result showed that subjects were sensitive to the root in nonwords the rating task falls short of providing evidence that this sensitivity can be applied automatically and used effectively in spoken word recognition. It is probable that while Arabic speakers are already able

to identify the underlying morphemes in the nonwords, their parsing efforts may not be fully automatized in natural online spoken word recognition.

The difference between offline and online processing has long been pointed out in the field of L2 acquisition. However, we borrow this distinction in our current investigation of L1 morphological processing because we are targeting an L1 linguistic question that has been disputed. Notably, a distinction has been made in the L2 acquisition literature between the two types of linguistic representations the L2 learner possesses which can reflect integrated and non-integrated knowledge (Jiang, 2000). The nature of the former representation is believed to be “unanalysed/automatic” and the latter to be “analysed/non-automatic” (Ellis, 1984). L1 processing, on the other hand, is assumed to always be characterized by the former representation (i.e., unanalysed/automatic). Therefore, we hypothesized here that if the root and pattern morphemes in L1 Arabic govern the spoken word recognition process, then access to their representations should be automatic. Specifically, we investigate the following research question:

Do Arabic speakers automatically decompose spoken nonwords into morphological constituents and use the root morpheme representation as the main unit of processing?

2. The current study

So far, we have argued that previous studies revealing root-based lexical processing in Arabic have certain limitations that can either confound their results (e.g., semantic confounds), or used an offline task (i.e., nonword rating) that affords subjects unlimited processing time and therefore does not tap into unanalyzed automatic lexical representation and processing. To investigate whether the root morpheme is independently represented and accessed automatically during spoken word recognition in Arabic, one has to investigate this question with a task that avoids these pitfalls. One such task is the ALD task (Goldinger, 1996).

2.1 Method

Here, we predict that if L1 Arabic spoken word recognition is governed by the root morpheme then L1 Arabic speakers will show unanalysed automatic lexical processing and decomposition process as reflected in the ALD task. In this task, subjects listen to a stimulus item and their task is to judge as quickly and as accurately as possible if the item is a real word in the target language or a nonsense word (nonword). Root-based lexical processing should show in the form of longer reaction times and more error rates when rejecting nonwords with real roots compared to nonwords with pseudoroots. If this does not show however, it should be good evidence that findings of previous studies were inconclusive. As mentioned above, the argument here is that neither previous task using real words nor nonword rating allow us to fully tap into morphological representation in spoken word recognition. On the one hand, the online tasks discussed above may be confounded with semantic effects. On the other hand, the offline nonword rating task may have been only tapping into an analysed, non-integrated and consequently non-automatic lexical representation and processing. Therefore, the ALD task allows more unequivocal interpretations of its results and

helps us establish if Arabic native speakers use the root as the processing unit in online naturalistic spoken word recognition.

2.2 Participants

Thirty one native Arabic speakers, all students in the department of English language and translation, Qassim university, took part voluntarily in the experiment. Participants were all male. None of the participants reported a history of speech or hearing problems. Their age ranged from 19 to 21 years and their mean age was 20 years old.

2.3 Stimuli

The stimuli consisted of 60 nonwords and 60 real word fillers. The nonwords varied in their root status and were divided in two conditions. In the real root (RR) condition, forty of these nonwords had real roots (e.g., /taʕalmum/, /taʕamlul/). In the pseudo root (PR) condition 20 nonwords had pseudo (nonexistent) roots (e.g., /taʕalzuz/, /taʕamzuz/). The pseudo roots were mainly created by replacing the last consonant of the real roots (e.g., /ʕLM/ → /ʕLZ/). The tri-consonantal real roots and pseudo roots in both groups of nonwords were embedded in the same pattern (i.e., {ta-a-u-}). According to derivational rules of Arabic the derivation of the word /taʕallum/ “learning” is achieved through mapping the root /ʕLM/ into the four consonant’s slots in the pattern by repeating the second root consonant /l/ so that it occupies consonant slot number 2 and number 3. The creation of the nonwords, however, was the result of illegal mapping of the three root consonants in the four consonant’s slots in the pattern by repeating the third (not second) root consonant. For example, using this method, the three consonants of the real root /ʕLM/ were mapped resulting in the nonword /taʕalmum/. Similarly, the mapping of the pseudo root consonant /ʕLZ/ resulted in the nonword /taʕalzuz/.

Using this method of nonword stimuli creation has several advantages. First, and most importantly, it allowed the control of the nonword point. This is the point at which the nonword deviates from all real words and it has been shown to affect reaction time (Marslen-Wilson, 1984). If nonword rejection starts at this point then it is critical to control this point across conditions. In both conditions, the RR condition (e.g., /taʕalmum/) and the PR (e.g., /taʕalzuz/) the nonword point is phoneme number six (i.e., /m/ and /z/, respectively). Additionally, adopting this design allowed the balance of a number of important independent variables across conditions. To avoid confounding effects of word length, all nonwords were balanced for number of phonemes and syllables. This also allowed the control of the nonword initial phonemes. That is, all items began with /ta-/ which has an important role in activating the word’s cohort during recognition (Marslen-Wilson & Welsh, 1978)

Every single stimuli item was spoken in isolation and recorded by a male native Arabic speaker using a high-quality microphone on to digital-audio-tape at a sampling rate of 44.1 kHz. The recordings were then saved as digital 16-bit files on a computer disk. The duration of the initial silence was fixed to 50ms in all stimuli items’ files.

2.4 Procedure

A PC running E-prime (Schenider, Eschman, & Zuccolotto, 2002) was used for the experiment presentation and data collection. E-prime is a software used to design, generate, and run computerized behavioural experiments. Participants were tested individually and one at a time. Each participant was seated in front of a computer desk equipped with a set of Beyerdynamic DT-100 headphones. Prior to running the experiment, the instructions appeared on the computer screen in Arabic. Participants were instructed that they will listen to stimuli items and that their task is to judge which ones are real Arabic words and which ones are nonwords by pressing the relevant button on the keyboard. All participants' inquiries were answered prior to the start of the experiment.

Prior to the experimental trials, each participant received 12 practice trials. Half of these trials were real words and the other half were nonword. These trials were used to familiarize the participants with the task and were not included in the final data analysis. The participants were then presented with one of the randomly selected stimuli at a comfortable listening level over the headphones. The P button on the Keyboard (with a sticker indicating "nonword" in Arabic to remind subjects what the relevant button is) was for nonword selection and the W button (with a sticker indicating "real word" in Arabic) was for word selection. The participants responded as quickly and accurately as possible by pushing the appropriate labelled button. After each response, 1500 ms elapsed before the next token was played. RT was measured from the onset of the stimulus file to the onset of the response.

3. Results

Recall that we are interested in comparing reaction times and accuracy rates between the RR and PR conditions when subjects are selecting nonwords. Eprime data file was scored by assigning the value 1 to each correct response and the value 0 to each incorrect response. The correct response was when the subjects decided that a nonword was a nonword. The incorrect response was when the subjects decided that the nonword was a real word. The sum of these scores for each nonword was then divided by the number of subjects in each condition to calculate the mean correct response for each nonword. Overall mean correct response in the RR condition was (.896) and overall mean correct response in the PR condition was (.973). Mean RTs in ms and percentage correct with standard deviation (SD) for each of the two conditions are shown in Table 1.

Table 1. Mean RTs in ms and % correct by Condition

	<i>Mean RT in ms (SD)</i>	<i>% correct (SD)</i>
RR	1405 (68)	89.6 (7.6)
PR	1345 (67)	97.3 (2.9)

Table 1 shows that subjects responded to nonword in the RR condition slower than those in the PR condition and that they made more errors in the RR condition. Two separate t-tests were conducted on RTs and correct response. The first t-test showed that RTs in the RR condition were very significantly higher than those in the PR condition $t_{stat} = 3.2$, $p = .0022$, $t(58.05) = 2.002$.

Similarly, the other t-test showed that mean correct responses in the RR condition were extremely significantly lower than those in the PR condition $t_{\text{stat}} = 4.3$, $p = .00007$, $t(58.0.05) = 2.002$.

4. Discussion

The current study aimed to examine the robustness and automaticity of morphological decomposition in Arabic obtained in other studies. Previous studies used either potentially semantically confounded tasks or offline tasks that do not tap into automatic speech processing. Therefore, we attempted to answer the question whether Arabic native speakers automatically extract the discontinuous root consonants embedded in spoken nonword stimuli when no other semantic cues may be used. To answer this question an ALD task was employed in order to solely tap into auditory rather than visual recognition and at the same time, similar to other online tasks examine online not offline processing. The ALD task affords us this possibility by allowing the investigation of automatic sensitivity to morphological structure embedded in nonword stimuli.

The current findings are straightforward. Native Arabic speakers were slower and less accurate to reject nonwords with real roots than nonwords with pseudo roots. Recall that all nonwords in contrasting conditions were embedded in the same types of patterns. As a result, confounding variables such as initial phonemes, number of phonemes, number of syllables and position of the nonword point were all controlled. Therefore, this processing cost as manifested in slower RTs and more decision errors appears to be the result of activating the root morpheme representation after obligatory decomposition. This activation has a temporal cost associated with it and therefore made rejecting nonwords with real roots slower and less accurate. These findings contribute to the Arabic morphological processing debate in a number of ways. First, the present finding that Arabic speakers showed online automatic decomposition of the nonword stimuli and extraction of real roots is in line with the model that Arabic language is morpheme-based, the processing of which entails an obligatory decomposition (Boudelaa, 2014; Taft, 2004).

On the other hand, our findings diverge from the stem-based full-listing model (Butterworth, 1983) which posits that words are not accessed or represented as separate morphemes but rather as whole units. In other words, if the root morpheme is only accessed via a whole word representation, how would the root morpheme be accessed automatically when it is embedded in a nonword as in the current study? In contrast, given that nonwords were used in the present experiment, the current findings suggest that decomposition and activation of the root morpheme precedes lexical access. An attempt to account for decomposition in nonwords has been made by the Augmented Addressed Morphology Model (AAM) (Caramazza, Laudanna, & Romani, 1988). In this dual route model, it is assumed that whole-word route and root morpheme route are used in parallel. When the complex word is familiar it activates the whole-word representation. However, when it is novel, which is claimed to apply to nonwords, morphological decomposition and activation of the root morpheme takes place. A similar model of processing was posited for a non-concatenative language, namely Hebrew; but see Boudelaa (2014) for a critical review and the positing of the obligatory decomposition model for Arabic.

Notwithstanding, decomposition accounts were posited mainly based on evidence from visual word recognition. These do not necessarily resemble the processes involved in spoken word recognition (Marslen-Wilson, 1984). In the current findings from spoken language processing, however, an interesting question is raised. That is, how can decomposition and extraction of the root morpheme take place automatically given the non-concatenative structure of Arabic language? Unlike written words the acoustic signal is linear. As a result, an emphasis on the Uniqueness Point (UP) has been made by initial models of spoken word recognition (e.g., Marslen-Wilson & Welsh, 1978). The UP refers to the point at which the word deviates from all other words in the listener's lexicon. (e.g., the phoneme /z/ in "thousand"). It was argued that spoken word recognition takes place exactly at this point regardless of internal morphological structure of the word. Main support of this position came from findings that when RTs were measured from the nonword deviation point, they were comparable regardless of the location of the deviation point in the nonword; that is, nonwords were rejected at their nonword point (Marslen-Wilson, 1984). The current findings diverge from this proposal in that reaction times were not constant from the nonword point.² In fact, our subjects needed significantly more time to monitor the input past the UP. This time was longer for nonwords with the real roots than nonwords with pseudo roots.

Clearly, continuous non-decompositional models of spoken word recognition which rely on linear recognition and assume that the lexical representations are structured in terms of whole words rather than morphological units cannot account for our findings. In fact, the current findings are more plausibly explained in terms of an automatic decomposition and activation of the morphemic representation which precedes lexical access. This, however, does not rule out the possibility that under some conditions Arabic speakers may use a dual route model to process some words in Arabic. Indeed, some recent evidence suggests they do (Alamri, 2017; Wray, 2016)

Given the non-concatenative nature of the root consonants, pronounceability seems to be peripheral to the representation and recognition of these morphemic units. Indeed, we agree with the mechanism of auditory representation and recognition which is elegantly captured by Gwilliams and Marantz (2015) based on their neural evidence of auditory decomposition in Arabic. They state that:

"Our results support the existence of a mechanism that is able to extract each component (in this case, consonant) of the root morpheme from the whole word, and set up a comparison between (1) the sensory evidence and (2) possible realisations of the root and their relative likelihood of occurrence. Incoming phonemes would presumably have to be separated into morphemic categories as they materialise over the speech stream, and recognised relative to mental representations of possible roots." (Gwilliams & Marantz, 2015, p. 10).

5. Conclusion

The current study has provided evidence that, even when hearing nonwords, processing in Arabic undergoes an automatic and unconscious decomposition to extract the root morpheme and use it as the main unit of processing. These findings have both theoretical and pedagogical implications. On

the one hand, they provide support to theories of morpheme (root) based processing in Arabic (e.g. McCarthy, 1981) and the decompositional hypothesis of lexical processing (Taft & Forster, 1975). On the other hand, our results have important pedagogical implications for the teaching of Arabic as a second or foreign language. Morphological processing activities may need to be an integral part of Arabic teaching courses. Indeed, morphological processing training has been found to be as effective as phonological processing in teaching spelling to Arabic speaking children (Taha & Saiegh-Haddad, 2016). Future research should seek to explore the mechanism underlying lexical processing of Arabic as a second language and whether morphological processing intervention can accelerate the acquisition of the decomposition-based lexical processing which native Arabic speakers adopt.

Endnotes

¹ The three consonants [fʃl] in the pattern are used as place holders for root consonants.

² Although RTs in the current study were measured from the beginning of the nonword, not the nonword point, the stimuli prior to the nonword point including initial silence was balanced across items making auditory stimuli duration up to the nonword point comparable.

References

- Alamri, A. (2017). *Phonological, semantic , and root activation in spoken word recognition in Arabic : an eyetracking study*. University of Ottawa.
- Aldholmi, Y., & Pycha, A. (2023). Segmental contributions to word recognition in Arabic sentences. *Poznan Studies in Contemporary Linguistics*, 59(257–287).
- Aljasser, F. (2020). Root and pattern effects in the processing of spoken non-words in Arabic. *International Journal of Linguistics*, 12(2), 292–300. <https://doi.org/10.5296/ijl.v12i2.16545>
- Baayen, R. H., & Smolka, E. (2020). Modeling morphological priming in German with Naive Discriminative Learning. *Frontiers in Communication*, 5(November). <https://doi.org/10.3389/fcomm.2020.00017>
- Benmamoun, E. (1999). Arabic morphology: The central role of the imperfective. *Lingua*, 108, 175–201.
- Benmamoun, E. (2003). The role of the imperfective template in Arabic morphology. In J. Shimron (Ed.), *Language processing and language acquisition in a root-based morphology* (pp. 99–114). Amsterdam: John Benjamins.
- Boudelaa, S. (2014). Is the Arabic Mental Lexicon Morpheme-Based or Stem-Based ? Implications for Spoken and Written Word Recognition, 9(February 2014). <https://doi.org/10.1007/978-94-017-8545-7>
- Boudelaa, S., & Marslen-Wilson, W. D. (2005). Discontinuous morphology in time: Incremental masked priming in Arabic. *Language and Cognitive Processes*, 20(1–2), 207–260. <https://doi.org/10.1080/01690960444000106>
- Boudelaa, S., & Marslen-Wilson, W. D. (2011). Productivity and priming: Morphemic decomposition in Arabic. *Language and Cognitive Processes*, 26(4–6), 624–652. <https://doi.org/10.1080/01690965.2010.521022>
- Boudelaa, S., & Marslen-Wilson, W. D. (2013). Morphological structure in the Arabic mental

-
- lexicon: Parallels between standard and dialectal Arabic. *Language and Cognitive Processes*, 28(10), 1453–1473. <https://doi.org/10.1080/01690965.2012.719629>
- Butterworth, B. (1983). Lexical representation. In B. Butterworth (Ed.), *Language production*. London, UK: Academic Press.
- Caramazza, A., Laudanna, A., & Romani, C. (1988). Lexical access and inflectional morphology. *Cognition*, 28(3), 297–332.
- Ellis, R. (1984). *Classroom second language development*. Oxford: Pergamon Press.
- Geary, J., & Ussishkin, A. (2019). Morphological priming without semantic relationship in Hebrew spoken word recognition. *Proceedings of the Linguistic Society of America*, 4(1), 9. <https://doi.org/10.3765/plsa.v4i1.4509>
- Goldinger, S. D. (1996). Auditory Lexical Decision. *Language and Cognitive Processes*, 11(6), 559–568. <https://doi.org/10.1080/016909696386944>
- Gwilliams, L., & Marantz, A. (2015). Non-linear processing of a linear speech stream: The influence of morphological structure on the recognition of spoken Arabic words. *Brain and Language*, 147, 1–13. <https://doi.org/10.1016/j.bandl.2015.04.006>
- Holes, C. (1995). *Modern Arabic: Structure, functions and varieties*. London, UK: Longman.
- Jiang, N. (2000). Lexical representation and development in a second language. *Applied Linguistics*, 21(1), 47–77. <https://doi.org/10.1093/applin/21.1.47>
- Khateb, A., Asadi, I. A., Habashi, S., & Korinth, S. P. (2022). Role of morphology in visual word recognition: A parafoveal preview study in Arabic using eye-tracking. *Theory and Practice in Language Studies*, 12(6), 1030–1038. <https://doi.org/10.17507/tpls.1206.02>
- Levelt, W. (1989). *Speaking: From Intention to Articulation*. Cambridge, MA: MIT Press.
- Levelt, W. J., Roelofs, A., & Meyer, A. (1999). A theory of lexical access in speech production. *Behavioral and Brain Sciences*, 22(1), 1–38.
- Marslen-Wilson, W. D. (1984). Function and Process in Spoken Word Recognition- a tutorial review. In H. Bouma & D. Bouwhuis (Eds.), *Attention & performance X*. London, UK: Lawrence Erlbaum.
- Marslen-Wilson, W. D., & Welsh, A. (1978). Processing interactions and lexical access during word recognition in continuous speech. *Cognitive Psychology*, 10(1), 29–63. [https://doi.org/10.1016/0010-0285\(78\)90018-X](https://doi.org/10.1016/0010-0285(78)90018-X)
- McCarthy, J. (1981). A prosodic theory of nonconcatenative morphology. *Linguistic Inquiry*, 12(3), 373–418.
- Plaut, D. C., & Gonnerman, L. M. (2000). Are non-semantic morphological effects incompatible with a distributed connectionist approach to lexical processing? *Language and Cognitive Processes*, 15(4–5), 445–485. <https://doi.org/10.1080/01690960050119661>
- Schneider, W., Eschman, A., & Zuccolotto, A. (2002). *E-Prime user's guide*. Pittsburgh: Psychology Software Tools.
- Smolka, E., Komlósi, S., & Rösler, F. (2009). When semantics means less than morphology: The processing of German prefixed verbs. *Language and Cognitive Processes*, 24(3), 337–375. <https://doi.org/10.1080/01690960802075497>
- Taft, M. (2004). Morphological decomposition and the reverse base frequency effect. *Quarterly Journal of Experimental Psychology Section A: Human Experimental Psychology*, 57(4), 745–765. <https://doi.org/10.1080/02724980343000477>
- Taft, M., & Forster, K. I. (1975). Lexical storage and retrieval of prefixed words. *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior*, 14(6), 638–647.
- Taha, H., & Saiegh-Haddad, E. (2016). The role of phonological versus morphological skills in the

- development of Arabic spelling: An intervention study. *Journal of Psycholinguistic Research*, 45(3), 507–535. <https://doi.org/10.1007/s10936-015-9362-6>
- Vitevitch, M. S., & Luce, P. A. (1998). When words compete: Levels of processing in perception of spoken words. *Psychological Science*, 9(4), 325–329. <https://doi.org/10.1111/1467-9280.00064>
- Vitevitch, M. S., & Luce, P. A. (1999). Probabilistic phonotactics and neighborhood activation in spoken word recognition. *Journal of Memory and Language*, 40(3), 374–408. <https://doi.org/10.1006/jmla.1998.2618>
- Wray, S. (2016). *Decomposability and the effects of morpheme frequency in lexical access*. University of Arizona.

Biographical Statement

معلومات عن الباحث

Dr. Faisal Aljasser is an associate professor of applied linguistics in the Department of English Language and Translation, College of Arabic Language and Social Studies, Qassim University. He received his PhD in applied linguistics from Newcastle University, UK in 2008. His research centers on the psycholinguistic aspects of speech production and perception, particularly the production and perception of Arabic as a native language and as a second language.

د. فيصل الجاسر، أستاذ مشارك (اللغويات التطبيقية) في قسم اللغة الانجليزية والترجمة (كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية) في جامعة القصيم (المملكة العربية السعودية). حاصل على درجة الدكتوراه في اللغويات التطبيقية من جامعة نيوكاسل عام 2008. تدور اهتماماته البحثية حول علم اللغة النفسي خصوصاً ما يتعلق بفهم وإدراك ونطق اللغة العربية كلغة أولى ولغة ثانية.

Email: jasr@qu.edu.sa



17، (2)، ربيع
الثاني، 1445
October, 2023

Advancing academic writing skills: An interventional study with EFL tertiary-level students

Yasamiyan Alolaywi 

Department of English and Translation, College of Sciences and Arts, Qassim University,
Methnab, Saudi Arabia

Abstract

This study aimed to enhance the academic writing skills of EFL undergraduate students at Qassim University in Saudi Arabia. A total of 32 students from the Department of English Language and Translation participated in a quasi-experimental study with a one-group pre-test and post-test design. The participants were assessed on their writing abilities before undergoing a fifteen-week instructional intervention focused on proper essay formatting, the use of signal words and transitional phrases, and advanced sentence structures. The effectiveness of the intervention was measured through a post-test. Statistical analysis, including one-sample t-tests and descriptive statistics, was conducted to assess the results. The findings revealed significant improvements in the participants' writing performance and other linguistic aspects. However, it is important to note that the students' overall writing levels remained relatively low, aligning with previous research. Consequently, recommendations were made to intensify and diversify efforts in order to elevate the students' writing skills.

Keywords: academic writing; corrective feedback; form-focused instruction; empirical research; undergraduate female students

المخلص

تهدف هذه الدراسة إلى تعزيز مهارات الكتابة الأكاديمية لدى طالبات المرحلة الجامعية في قسم اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أجنبية في جامعة القصيم في المملكة العربية السعودية. شارك ما مجموعه 32 طالبة من قسم اللغة الإنجليزية والترجمة في دراسة شبه تجريبية تتضمن اختباراً قبلياً وبعدياً لمجموعة واحدة. تم تقييم المشاركات بناءً على قدراتهم الكتابية قبل الخضوع لتجربة تعليمية مدتها خمسة عشر أسبوعاً بالتركيز على الكتابة النموذجية للمقالات، واستخدام الكلمات الدلالية والعبارات الانتقالية، والتراكيب المتقدمة للجمل. تم قياس فعالية التجربة من خلال الاختبار البعدي. ولتقييم النتائج، أُجريت التحاليل الإحصائية، بما في ذلك اختبارات t لعينة واحدة والإحصائيات الوصفية. كشفت النتائج عن تحسن كبير في الأداء الكتابي للمشاركات والجوانب اللغوية الأخرى. ومع ذلك، من المهم ملاحظة أن مستويات الكتابة الإجمالية للطالبات مازالت منخفضة نسبياً، بما يتوافق مع مخرجات الأبحاث السابقة. وبناءً على ذلك، فقد تم التوصية بتكثيف الجهود وتنويعها من أجل الارتقاء بمهارات الكتابة لدى الطالبات.

الكلمات المفتاحية: الكتابة الأكاديمية، التغذية الراجعة، التعليم المرتكز على بناء الجملة، البحث التجريبي، طالبات المرحلة الجامعية

APA Citation:

Alolaywi, Y. (2023). Advancing Academic Writing Skills: An interventional Study with EFL Tertiary-Level Students. *Journal of Arabic Sciences & Humanities*, 17, (2), 173-185.



استلم في: 1445-02-24 / قبل في: 1445-03-06 / نُشر في: 1445-04-14

Received on: 09-09-2023/Accepted on: 21-09-2023/Published on: 29-10-2023

1. Introduction

Writing is a fundamental skill in the English language, emphasizing its importance for educators and teachers. Proficiency in writing at a higher education level is a reasonable expectation for university students. Insufficient writing and composition abilities hinder students and others from effectively conveying their ideas and thoughts. Through well-structured sentences, writing provides a means to express ideas and facts clearly.

Within the scope of English as a foreign language, educators often remark weakness in the students' performances, their mastery of the language in general, and their writing skills in particular. This has been confirmed by many studies in this field. Research conducted by Bacha (2012) in an EFL context revealed that teachers find students' academic writing weak. It is assumed to be specifically difficult for those of "non-Anglicized linguistic and cultural backgrounds" (Al Fadda, 2012, p. 123)

Writing is considered to be a highly demanding and challenging task that requires proficiency in various sub-skills like grammar and vocabulary. Additionally, it necessitates the utilization of higher-order thinking abilities. According to Grami (2010), writing is not a straightforward cognitive activity, but instead a complex mental process that demands careful thought, discipline, and concentration (p.9).

Academic writing holds great significance at the university level as it is crucial for students to possess strong literacy skills in order to successfully engage in academic endeavors and conduct research tasks. Proficiency in academic writing also proves helpful in mastering other disciplines taught in English. Abdulkareem (2013) asserts that academic writing plays a pivotal role in the progress of second language learners.

While numerous research papers have explored writing techniques, there is a dearth of studies focusing specifically on academic writing and its strategies (Alsmari, 2019). Thus, there exists a need for this study.

In addition, traditional and non-traditional settings utilize distinct teaching methods. Although modern techniques emphasizing communication and interaction have become more prevalent, traditional approaches remain important (Alsmari, 2019).

When it comes to writing skills, explicit teaching procedures are necessary as they emphasize accuracy in expression and the proper use of vocabulary and structures. Several researchers argue that explicit grammatical instructions are more effective than implicit ones, especially for difficult rules (Archer & Hughes, 2010; Ellis, 2008). Furthermore, Müller and Gregoric (2017) state that explicit instructions are more efficient for complex rules. Therefore, for this research experiment, the direct instruction approach was utilized.

In addition, feedback provided by instructors plays a crucial role in rectifying errors and aiding students' development. Neglecting to correct students' mistakes will hinder progress. Studies on the effectiveness of corrective feedback in L2 writing have produced conflicting results (Baleghizadeh and Gordani, 2012). However, this present study contributes to this field by examining the role of written and oral feedback types in an EFL academic writing context.

To summarize, this study aims to determine the effectiveness of a form-focused teaching method in improving the academic writing skills of tertiary-level students. It also seeks to investigate the value of corrective feedback in enhancing students' linguistic abilities in writing.

1.1. Research objectives

The research objectives are as follows:

1. To determine the influence of explicit instruction of academic writing techniques on Saudi EFL students' skills in writing comparison-contrast essays, specifically in relation to the use of comparison and contrast signal words (e.g., like, unlike, similar, dissimilar, etc.).
2. To examine the impact of explicit instruction on the students' ability to organize their essays appropriately, including the inclusion of an introduction, body paragraphs, and a conclusion.
3. To assess the effects of explicit instruction on the students' incorporation of prepositional phrases that demonstrate location and spatial relationships within their sentences.
4. To investigate the influence of explicit instruction on the correct usage of restrictive and non-restrictive relative clauses in the students' writing.

1.2. Statement of the problem

The Saudi community views the English language as a foreign language, with limited usage outside of academia. As a result, there is a need to enhance the English language proficiency of EFL learners. Alkodimi and Al-Ahdal (2021) found that current teaching-learning practices in Saudi Arabia have not enabled learners to achieve native-like fluency in English.

Furthermore, academic writing, in particular, is a crucial skill that requires special attention and emphasis. Undergraduate students must develop academic writing abilities to effectively complete their academic tasks and research projects. However, previous studies have shown that Saudi undergraduate students, especially those in the context of this study, lack sufficient linguistic and writing skills. Alkodimi and Al-Ahdal (2021) identified limited academic writing skills in Saudi undergraduate learners, including a lack of vocabulary, proper sentence structure, and spelling. Similarly, Alqasham et al. (2021) explored the writing abilities of Qassim University students and found that they struggled with coherence and cohesion in their writing, leading to generally low essay writing achievements. Moreover, in their study, Alawerdy and Alalwi (2022) observed that Saudi EFL students exhibited deficiencies in their ability to write a coherent paragraph, specifically in terms of their usage of conjunctions. They found that certain conjunctions were either excessively utilized, insufficiently utilized, or improperly employed.

Considering these factors, there is an urgent need to enhance the writing skills of English-major undergraduate students. The existing literature on writing research also indicates a lack of studies addressing academic writing improvement, eventually highlighting the significance of this research.

1.3. Limitations of the study

The study has two limitations. Firstly, the sample size is small, which limits the ability to apply the findings to a larger population. It is recommended that future studies on the same topic use a larger sample size. Secondly, the study only involves a single assessment experiment that compares the means of pre-test and post-test variables. Conducting a two-group experiment with a treatment group and a control group would likely yield more effective results.

2. Literature review

2.1. Form-focused instruction

The assumptions that underlie this research were mainly drawn from the SLA theory known as form-focused instruction (FFI). FFI is defined as a type of L2 instruction that "involves some attempt to focus learners' attention on specific properties of the L2 so that they will learn them" (Ellis, 2008, p. 963). The term form-focused was originally used by Long (1991) to distinguish between "focus on forms" and "focus on form." The main distinction between the two terms lies in the type of syllabus a learner is exposed to and the type of exercises they practice. Focus on forms is found in structural syllabi and uses traditional types of exercises, in which explicit instruction of previously planned grammar structures is used. According to Ellis (2002), this kind of instruction involves "teaching of specific grammatical features in a structure-of-the-day approach." He argues that in this type of instruction, the learning is intentional because the language is treated as something to be mastered in order for the communication to take place. Focus on form, on the other hand, is based on a task-based syllabus and comprises communicative tasks which aim at drawing the learners' attention to linguistic structures while they are engaged in communicative activities. The term FFI can be considered as the one that meets both needs. As a term, it was first introduced by Spada (1997) as an alternative of but not identical to Long's focus on form (Long, 1991).

It can be concluded that FFI is a method of teaching grammatical features directly, i.e., through explicit explanation at times considered appropriate by the teacher, or indirectly, i.e., through meaning-focused or communicative activities by drawing the learners' attention to or helping them notice these structures.

A plethora of research has investigated the effectiveness of FFI or explicit instruction on enhancing EFL (English as a Foreign Language) learners' writing skills. For example, Nasser (2019) investigated the difficulties in writing composition with Iraqi EFL learners. The study concluded that using explicit instruction helps the students improve their writing abilities. However, it was found that the majority of participants made mistakes in sentence structure, vocabulary, tenses, subject-verb agreement, articles and word order. Ultimately, instructors had to work hard to enhance the students' writing and decrease the pressure that students felt when doing this activity.

In the Saudi Arabian context, the issue of cohesive writing has been examined in a few studies. Firstly, in a study by Alawerdy and Alalwi (2022), the writings of 43 EFL students at a Saudi University in their first year of study were analyzed. These students attended explicit instruction sessions on using conjunctions as cohesive devices. The results showed significant differences in the post-test between the experimental and control groups. Additionally, Alshalan (2019) investigated the writing quality of 100 Saudi EFL undergraduate students at Al Imam Muhammed Ibn Saud Islamic University in Riyadh. The findings revealed that these students tended to consistently focus on the central idea of the topic. Furthermore, the statistical analysis indicated a relationship between the students' writing scores and the length of their essays, as well as the use of cohesive ties and the scores, and cohesive ties and the length of the students' essays. Based on these studies, it is recommended that EFL teachers provide Saudi EFL students with various cohesive tools to help them enhance their writing skills and create smooth connections between their ideas.

Moreover, Akkoç, Qin and Karabacak (2018) studied the impact of explicit teaching of formulaic language on the quality of Turkish EFL university students' argumentative writing. Their results indicated that the experimental group students outperformed the control group students in

both immediate and delayed post-tests. Overall, the findings suggest that explicit instruction of the target items raised the students' awareness of formulaic language and eventually improved the quality of their writing. Similarly, a study investigating the effectiveness of explicit instruction of discourse markers on EFL learners' writing ability was carried out by Sadeghi and Kargar (2014). A post-test administered at the end of the study showed that learners exposed to explicit instruction significantly improved their writing skills as well as awareness of discourse markers and text coherence.

Another study aiming at an appraisal of FFI on improving the writing accuracy of EFL Iranian students was conducted by Rajabi and Dezhkam (2014). The results obtained from statistical procedures pointed out the effectiveness of explicit grammar instruction as a scaffolding strategy that can provide a solid ground for students to improve writing accuracy. Finally, Wang and Wang (2014) explored the effect of FFI on Korean students' perceptions of their writing and editing skills. Their survey results revealed a positive impact of the intervention on the participants' perceptions of their writing and editing abilities, suggesting that explicit grammar instruction could have a beneficial role in foreign language writing pedagogy.

2.2. *Corrective feedback*

Another concept closely related to the premises of this study is known as "Corrective feedback." Corrective feedback takes several forms such as content comments, error correction, error correction and content comments and error identification without corrections (Ferris 2002). It is divided into two main types: direct and indirect feedback. Direct feedback is also known as explicit feedback. Direct feedback takes place when the instructor identifies the errors and corrects them on the learners' written essay. Indirect feedback, on the other hand, is when the instructor identifies the error but does not provide the correct form. However, in most cases, the instructor would underline, circle or place an error sign in the margin to indicate the mistake the students have committed.

In 2022, Albelihi conducted a study that examined how Saudi English as a foreign language (EFL) instructors support their students with corrective feedback and also investigated the students' beliefs about the feedback they receive. The research revealed that the predominant type of corrective feedback used by the instructors was direct, particularly when addressing grammatical errors, vocabulary, syntax, and content evaluation. However, it was found that Saudi EFL learners favored direct corrective feedback for grammatical errors, while they preferred indirect coded feedback when it came to improving the content of their writing assignments.

Ferris (2004) examined the effects of direct and indirect error correction and found that more students revised their essays (88%) under the direct error feedback compared to the indirect error feedback (77%). In this research, the researcher—who was the course instructor—had provided direct corrective feedback throughout the course drawing the students' attention to their written errors wherever appropriate.

From an empirical point of view, the findings of some studies following a line of research concerned with the role of corrective feedback in writing are presented next. For instance, a study was carried out by Baleghizadeh and Gordani (2012) with the aim of exploring the role of corrective feedback in an EFL academic writing context over a course of 12 weeks. The study found both immediate and delayed effects for the student-teacher conference type of feedback on students' overall writing skills.

Similarly, Müller and Gregoric (2017) investigated the impact of explicit instruction and corrective feedback on ESL postgraduate students' grammar in academic writing. It was found that

the experimental group students significantly outperformed their counterparts in the control group, suggesting the usefulness of explicit grammar corrective feedback on ESL learners' writing improvement.

Yoke et al. (2013) examined the effectiveness of an innovative form of corrective feedback in improving Malay learners' academic writing. The findings of the research showed that online corrective feedback may be an effective way to improve the writing skills of learners, particularly when integrated into the teaching and learning of academic writing.

Finally, Irwin (2017) investigated EFL students' preferences and teacher feedback practices pertaining to written corrective feedback. It was found that the students preferred that their teachers provide direct lexical and grammatical error corrections and attend to all of their mistakes. In contrast, indirect feedback that simply pointed out that an error had been made did not seem appealing to the study participants.

3. Research methodology

3.1. *Participants and sampling*

The study sample consisted of 32 students majoring in the English language at Qassim University, Department of English Language and Translation. The sampling procedure used to choose students for the experiment is cluster sampling, which involves selecting an entire group or class as participants in the study. The students were enrolled in the Academic Writing (ENG 247) course during the first semester of the academic year 2021–2022. This course covers a range of topics about essential writing tips and techniques in addition to the identification of main essay types such as comparison-contrast essays, cause-effect essays, argumentative essays, classification essays and reaction essays.

3.2. *Research design and data collection*

The research reported herein is a quasi-experimental study in the form of a one-group pre-test and post-test design. The experiment was conducted during the first semester of the 2021–2022 academic year. Prior to the experiment, the participants' writing abilities were assessed using a pre-test. Thereafter, a post-test was administered to each participant after completing the 15 teaching weeks that represented the intervention period. During this period, the students were trained on how to write effectively and master the techniques of academic writing using explicit teaching methods, with a special focus on the comparison-contrast essay type. Students' mistakes were also regularly amended through the adoption of direct corrective-feedback.

3.3. *Instruments*

3.3.1. *Pre-test and post-test*

In this research study, two data collection tools were utilized: a pre-test and a post-test. The pre-test was administered at the beginning of the semester to all the students in order to gauge their initial writing performance and identify any weaknesses or areas that needed improvement. The test consisted of a one-question essay prompt that required the students to write a comparison-contrast essay of about 150-200 words. The limited writing abilities of the participants may explain the relatively small number of words. They could choose between two topics: comparing school study and university study, or comparing their hometown with another place they had visited.

Following the pre-test, the participants underwent a 15-week treatment of explicit writing instructions. The focus of these instructions was on specific writing forms, such as the appropriate usage of signal words, relative clauses, and essay organization format. The goal was to equip the students with the necessary skills to improve their writing abilities.

After the treatment period, a post-test was administered to assess the extent to which the students had applied the knowledge they had gained and to measure the difference in their performance compared to the pre-test. The post-test had the same format as the pre-test, with a single essay question. The participants were asked to compose a comparison-contrast essay on one of two topics: online studying and in-person studying, or online shopping and mall shopping (see Appendix A for samples of students' performances in the tests).

To analyze the data, the Statistical Package for Social Science (SPSS 23) was used. One-sample t-tests were conducted to compare the results of the pre-test and post-test and determine the significance level. The significance value was set at < 0.05 . Additionally, the means and standard deviations for each variable tested during the experiment were reported.

Overall, the experiment involved administering a pre-test to diagnose the students' writing performance, providing explicit writing instructions as a treatment intervention, and evaluating the students' progress through a post-test. The data obtained were analyzed using statistical tests to assess the significance of any differences observed.

4. Results

The results of the students in the pre-test and the post-test revealed statistically significant differences in the students' performance in the two tests ($p. < 0.05$); see Table 1). The mean score in the pre-test was 4.19 compared to 12.28 in the post-test. This finding suggests that the intervention yielded fruitful results and positively impacted the students' general writing achievements.

Table 1. One-sample t-test

	N	Mean	Std. Deviation	Std. Error Mean	Sig. (2-tailed)
Pre-test	32	4.19	6.203	1.097	.001
Post-test	32	12.28	9.145	1.617	.000

Regarding the internal assessment of some linguistic aspects in the performance of the students in the two tests, the results showed remarkable progress. For example, Table 2 below shows that the study participants' use of appropriate paragraph organization, wherein paragraphs are divided into introduction, body paragraphs and conclusion, increased in the post-test—as indicated by the mean score, which was 1.38 in the pre-test and which increased to 4.53 in the post test.

Table 2. Use of appropriate paragraph organization

	N	Minimum	Maximum	Mean	Std. Deviation
Pre-test	32	0	10	1.38	3.024
Post-test	32	0	10	4.53	4.204

Concerning the students' use of words that signal comparison and contrast (such as the words like, unlike, similar, dissimilar, etc.), Table 3 below shows that the usage increased in the post-test, as the average score was 3.38, compared to only .78 in the pre-test.

Table 3. Use of signal words

	N	Minimum	Maximum	Mean	Std. Deviation
Pre-test	32	0	5	.78	1.845
Post-test	32	0	10	3.38	3.119

However, the results showed little improvement in the use of relative clauses in the post-test. The mean score in the post-test was 1.49 compared to .78 in the pre-test (Table 4). In fact, both scores are considered low and indicate that the students need further improvement in the use of complex grammatical structures.

Table 4. Use of relative clauses

	N	Minimum	Maximum	Mean	Std. Deviation
Pre-test	32	0	5	.78	1.845
Post-test	32	0	7	1.49	2.675

Finally, regarding the integration of prepositional phrases in their sentences, the students showed little progress. The mean score pertaining to this linguistic aspect in the post-test was 2.44, while it was 1.25 in the pre-test (Table 5). This finding indicates that there are no significant differences between the achievements of the participants in the two tests concerning this grammatical point.

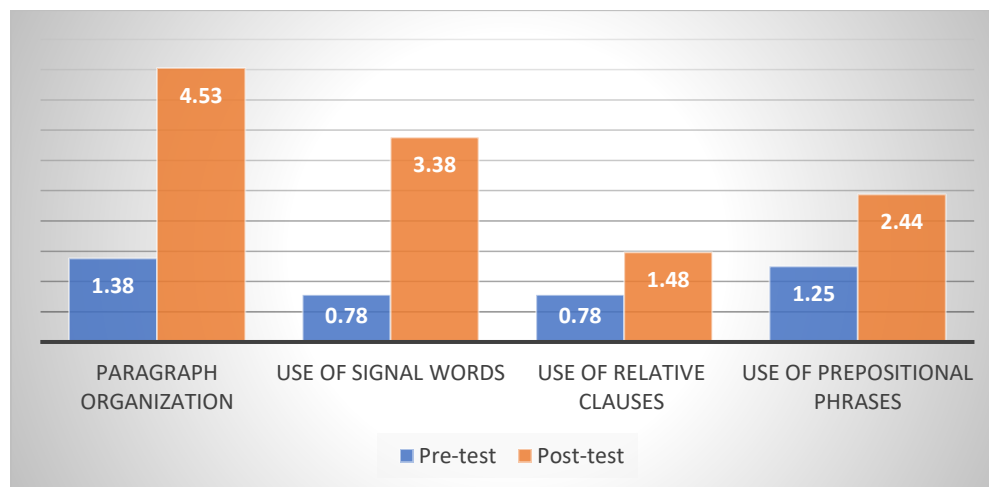
Table 5. Use of prepositional phrases

	N	Minimum	Maximum	Mean	Std. Deviation
Pre-test	32	0	5	1.25	2.048
Post-test	32	0	10	2.44	3.68

Figure 1 below shows a general configuration of the use of the linguistics aspects under investigation by the students in both tests and provides a summary of the students' overall performance.

Shape 1

A general configuration of the overall result



5. Discussion

The data analysis yielded some important findings that could contribute to the literature in the field of writing and skill improvement of EFL students.

First and foremost, it was found that the intervention adopted with the study samples resulted in a positive impact in developing the learners' writing abilities. This finding is quite consistent with those of previous researchers such as Nasser (2019), Müller and Gregoric (2017), Rajabi and Dezhkam (2014) and Baleghizadeh and Gordanis (2012). The sum of these studies found that explicit teaching of certain linguistic structures represents a scaffolding strategy that can provide a solid ground for students to improve their writing accuracy. They also highlighted the usefulness of direct grammar instruction and corrective feedback on EFL learners' writing advancement.

The current study also shows that the students developed adequate paragraph organization as a result of explicit instruction, which is similar to the findings of Nasser (2019), who dealt with EFL students' difficulties in writing composition and paragraph organization.

The use of specific paragraph signal words contributes to the fluency and coherence of writing and plays a facilitating role in communication; therefore, the lack of or inappropriate use of words and phrases might lead to the lack of comprehension or an awkward type of composition. Hence, this study found that focusing on teaching certain linguistic forms could lead to improving the learners' use of such forms. This also conforms to the findings of previous researchers such as Sadeghi and Kargar (2014), who clearly indicate that learners' exposure to explicit instruction of discourse markers significantly improved their ability in writing.

Although the students showed significant development in the use of connectors and transitions between sentences, the analysis showed that these devices were sometimes placed incorrectly or used out of context by the participants. This finding aligns well with that of Alqasham et al. (2021), who demonstrated that their study participants were clueless on the use of transitional linking devices, as they frequently used them with no relevance whatsoever to the context.

It is worth noting that despite the relative improvement in the performance of the participants in the present research, it can be fairly said that the general level of the students is still low. This is evident in the low scores obtained by some of the students reaching "zero" in both tests while measuring particular linguistic elements in the study. This result has already been confirmed by

previous studies conducted in the same context, such as Alkodimi and Al-Ahdal (2021) and Alqasham et al. (2021).

In fact, writing is one of the most daunting and demanding tasks, as it requires the mastery of a set of linguistic knowledge and techniques. For this reason, some researchers suggested that writing should be taught through practice and exposure. Mukmin and Afriyanti (2020) argued that writing is a complex activity that needs an immense amount of work to understand and teach, so it has to be taught through exposure.

This point clearly indicates that certain policies and efforts need to be undertaken to reform the existing conditions and develop the EFL learners' English language skills in general and writing skills in particular.

6. Conclusion

In conclusion, the current study showed that explicit teaching and corrective feedback are effective in improving university students' writing styles. While there were relative improvements in students' performance, their levels still need more attention and advancement. This reinforces findings from previous studies that more efforts are needed to enhance students' writing skills and language proficiency. To promote change in this area, higher level policies should be implemented, and changes should be made to department plans, curriculum, teaching methods, and admission criteria. There are still aspects of writing that require further investigation, such as analyzing students' linguistic errors and finding solutions to develop them. Future research should also conduct experimental studies to test the efficacy and usefulness of interactive methods. It is important to note that research in writing has the dual benefit of providing insights into students' performances as well as pushing their level forward.

6.1. Recommendations:

The findings of this study reinforce previous research indicating that EFL students in English language departments have below-average writing abilities. Therefore, it is necessary to implement policies at various levels, including the curriculum and senior management levels, to address this issue.

At the course level, it is recommended to intensify and diversify efforts to improve students' writing skills. This can be achieved through the use of effective teaching methods, such as interactive teaching, which encourages students to actively participate in language productive tasks like speaking and writing.

At the department level, it is proposed to assess the eligibility of students applying to join a foreign language department. This should include evaluating their readiness to improve and adapt throughout their enrollment in the program. Higher policy levels should consider specific criteria, such as increasing the enrollment percentage in the English language department or implementing admission tests for prospective students. These measures aim to ensure the quality of program outputs and ensure that applicants possess the necessary competence to study a foreign language.

References

- Abdulkareem, M. (2013). Investigation study of academic writing problems faced by Arab postgraduate students at Universiti Teknologi Malaysia (UTM). *Theory and Practice in Language Studies*, 3 (9), 1552-1557.
<http://www.academypublication.com/issues/past/tpls/vol03/09/06.pdf>

- Akkoç, A. B., Qin, J., & Karabacak, E. (2018). The effect of explicit instruction of formulaic language on EFL argumentative writing quality. *Indonesian Journal of Applied Linguistics*, 8(2), 358-368. <https://doi.org/10.17509/ijal.v8i2.13282>
- Alawerdy, A. S., & Alalwi, F. S. (2022). Enhancing English as a foreign language university students' writing through explicit instruction of conjunctions as cohesive devices: An experimental study. *Front. Psychol.* 13:1053310. DOI: [10.3389/fpsyg.2022.1053310](https://doi.org/10.3389/fpsyg.2022.1053310)
- Albelihi, H, H, M. (2022). Written corrective feedback: A comparative study of the preferences and beliefs of EFL teachers and learners in Saudi Arabia. *F1000Research*, 11:452. <https://doi.org/10.12688/f1000research.108680.1>
- Al Fadda, H. (2012). Difficulties in academic writing: From the perspective of King Saud University postgraduate students. *English Language Teaching*, 5(3),123-130. DOI:[10.5539/elt.v5n3p123](https://doi.org/10.5539/elt.v5n3p123)
- Alkodimi, K. A., & Al-Ahdal, A. A. M. H. (2021). Strategies of teaching writing at Saudi tertiary-level institutions: Reality and expectations. *Arab World English Journal (AWEJ)*, 12(2), 399- 413. DOI: <https://dx.doi.org/10.24093/awej/vol12no2.27>
- Alqasham, F. H., Al-Ahdal, A. A. M. H., & Babekir, A. H. S. (2021). Coherence and cohesion in Saudi EFL learners' essay writing: A study at a tertiary-level institution. *Asian EFL Journal Research Articles*, 28(1.1), 8-25. <https://www.researchgate.net/publication/349256060>
- Alshalan, K. F. (2019). A systemic functional linguistic analysis of cohesion and the writing quality of saudi female EFL undergraduate students. *Arab World Engl. J.* 241, 1–62. DOI: <https://dx.doi.org/10.24093/awej/th.241>
- Alsmari, N. A. (2019). Fostering EFL students' paragraph writing using edmodo. *Engl. Lang. Teach.* 12:44. DOI: [10.5539/elt.v12n10p44](https://doi.org/10.5539/elt.v12n10p44)
- Archer, A. L., & Huges, C. A. (2010). *Explicit instruction: Effective and efficient teaching*. The Guilford Press
- Bacha, N. N. (2012). Disciplinary writing in an EFL context from teachers' and students' perspectives. *International Journal of Business and Social Science* 3(2),233-256. <http://hdl.handle.net/10725/2367>
- Baleghizadeh, S., & Gordani, Y. (2012). Academic writing and grammatical accuracy. *Education and Learning Research Journal*, 6, 159-176. <https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ1062591.pdf>
- Ellis, R. (2002). Does form-focused instruction affect the acquisition of implicit knowledge? *Studies in Second Language Acquisition*, 24(02), 223-236. DOI:[10.1017/S0272263102002073](https://doi.org/10.1017/S0272263102002073)
- Ellis, R. (2008). *The study of second language acquisition*, second edition. Oxford: Oxford University Press.
- Ferris, D. R. (2002). *Treatment of error in second language student writing*. Ann Arbor: University Michigan Press.
- Grami, G. M. A. (2010). *The Effects of Integrating Peer Feedback into University-Level ESL Writing Curriculum: A Comparative Study in a Saudi Context* [Unpublished doctoral dissertation]. Newcastle University.
- Irwin, B. (2017). Written corrective feedback: Student preferences and teacher feedback practices. *IAFOR Journal of Language Learning*, 3(2), 35-58. <https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ1167256.pdf>
- Long, M. (1991). Focus on form: A design feature in language teaching methodology. In K. De Boot, R. Ginsberg, & C. Kramsch, *Foreign language research in cross-cultural perspective* (pp. 39-52) .Amsterdam: John Benjamin.

- Mukmin, H. A., & Afriyanti, H. (2020). Mind mapping in teaching writing. *BABASAL English Education Journal*, 1(1), 17-23. <https://doi.org/10.32529/beej.v1i1.537>
- Müller, A., & Gregoric, C. (2017). The impact of explicit instruction and corrective feedback on ESL postgraduate students' grammar in academic writing. *Journal of Academic Language & Learning*, 11(1), A125-A144. <https://journal.aall.org.au/index.php/jall/article/view/442>
- Nasser, S. M. (2019). Iraqi EFL students' difficulties in writing composition :An experimental study (University of Baghdad). *International Journal of English Linguistics*, 9(1), 178- 184. DOI:10.5539/ijel.v9n1p178
- Rajabi, P., & Dezhkam, E. (2014). The effect of explicit grammar instruction on improving writing accuracy of Iranian EFL learners. *Journal of ELT and Applied Linguistics (JELTAL)*, 2(1), 61-76. <https://www.semanticscholar.org>
- Sadeghi, B., & Kargar, A. (2014). The effect of explicit instruction of discourse markers on EFL learners' writing ability. *International Journal of Educational Investigations*, 1(1), 328-338. <http://www.ijeionline.com>
- Spada, N. (1997). Form-focused instruction and second language acquisition: A review of classroom and laboratory research. *Language Teaching*, 30(02), 73-87. DOI:10.1017/S0261444800012799
- Wang, G. H., & Wang, S. (2014). Explicit grammar instruction for EFL writing and editing: An exploratory study at a Korean university. *Linguistics and Literature Studies* 2(2): 65-73. <https://www.hrpub.org/download/20140105/LLS4-19301873.pdf>
- Yoke et al. (2013). The use of online corrective feedback in academic writing by L1 Malay learners. *English Language Teaching*, 6(12), 175-180. DOI:10.5539/elt.v6n12p175

Biographical Statement

معلومات عن الباحث

Dr. Yasamiyan Alolaywi is an assistant professor of Applied Linguistics in the Department of English Language and Translation, College of Sciences and Arts, Mithnab, Qassim University. Dr. Alolaywi received her Ph.D. degree in Applied Linguistics (2020) from Imam Muhammed bin Saud University. Her research interests include Applied Linguistics and Second Language Acquisition.

د. ياسمين العليوي، أستاذ مساعد في تخصص اللغويات التطبيقية في قسم اللغة الإنجليزية والترجمة، بكلية العلوم والآداب في المذنب في جامعة القصيم؛ في المملكة العربية السعودية. حاصلة على درجة الدكتوراه في اللغويات التطبيقية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام 2020. تدور اهتماماتها البحثية حول علم اللغة التطبيقي واكتساب اللغة الثانية.

Email: yalieoy@qu.edu.sa

Appendix A

Samples of students' written scripts

Studying online and studying in person

Because of covid 19, studying online became a regular thing. Some students still prefer to study in person. Both experiences are different.

Studying online can give a lot of time to relax. For example, you don't have to suffer from the traffic to get to your college. You don't have to wake up early in the morning so you can dress up. The internet could be a problem. You need a laptop or a pc which you have to use to attend your lecture.

Studying in person allows you to have new friends, and have some fresh air. You can really focus during the class. Transportation and traffic can be a problem because it can hold you off sometimes. In contrast both ways of studying have the good and bad. It always depends on

shopping online vs mall shopping

Humans these days can't live without shopping and some people are interested in fashion. Most of them care about quality and the clothes brands. Shopping online and mall shopping both have similarities. You can find popular brands from both and the quality is pretty much the same.

However, there are differences. If you think about it, you can find popular brands from both and the quality is pretty much the same. Not only clothes, you can also buy other products such as beauty products, like makeup from both online and mall shopping.

But there are differences. In online shopping, you can find everything you want. And in the mall, you have to go to your city, like some brand and limited edition, even though sometimes it takes long to arrive. And about the mall shopping, it's better when it comes to the product size. It's more suitable to go shopping in a mall with friends.

Shopping Online and Mall Shopping

There are many applications on the phone. And there are many malls on the world. But in the time I think all people like shopping online. In contrast, mall shopping.

In similarities, shopping online and mall shopping for the wears and dress. Shopping online you can be bought in the home. In contrast, mall shopping you could go the out house. Shopping online every time you got discount. But mall shopping I think not every time.

I believe there are many people like it shopping online on the time. About me I love it more shopping online because easy for me. In contrast, my sister because say that I would show me for the dress or I think to the buy.